386

إبداعات عالمية

تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

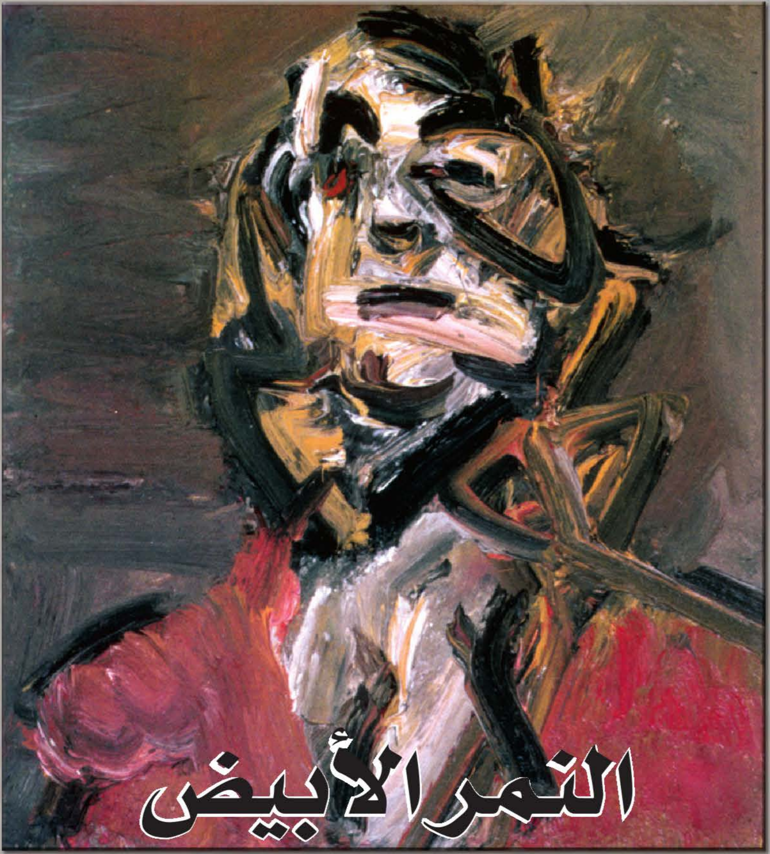

التمر الأبيض

«رواية»

تـــألـــيـــف: آرافيند آديغا
ترجمـــة وتقـديم: د. طيبة صادق
مـــراجـــعـــة: د. زبيدة أشكناني

أغسطس 2011

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

Frank Auerbach
Head of J.Y.M.I. 1981
Oil on canvas

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

الكويت

إصدارات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

عالم الفكر

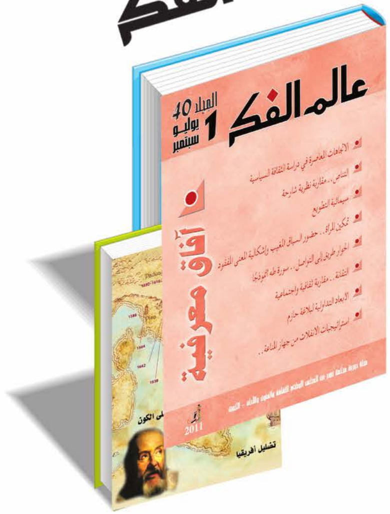

عالم المعرفة

الثقافة العالمية

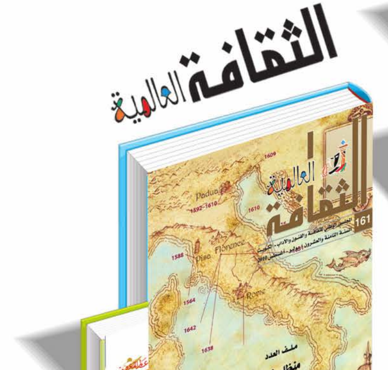

الإصدارت الدورية

إصدارات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
الكويت
الإصدارت الدورية
جريدة الفنون
إبداعات عالمية
المسرح العالمي
جائزة الدولة التشجيعية

المجلس
الوطني
للثقافة
والفنون
والآداب

النمر الأبيض

«رواية»

تـــألـــيـــف: آرافيند آديغا

تـــرجـــمـــة: د. طيبة صادق

مـــراجـــعـــة: د. زبيدة أشكناني

إبداعات عالمية

تصدر كل شهرين عن

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

المشرف العام:

م. علي حسين اليوحة

هيئة التحرير:

د. زبيدة علي أشكناني

د. علي عجيل العنزي

د. سليمان خالد الرباح

أ. د. سليمان علي الشطي

د. ليلى عثمان فضل

أ. وليد جاسم الرجيب

سكرتيرة التحرير

لمياء القبندي

التنضيد والإخراج والتنفيذ:

وحدة الإنتاج

في المجلس الوطني

للثقافة والفنون والآداب

www.kuwaitculture.org

:E.Mail

ebdaat_alamia@yahoo.com

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج	500 فلس
الدول العربية الأخرى	ما يعادل دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	دولاران أمريكيان

الاشتراكات

دولة الكويت

للأفراد	10د.ك
للمؤسسات	20 د.ك

دول الخليج

للأفراد	12د.ك
للمؤسسات	24 د.ك

الدول العربية الأخرى

للأفراد	25دولارا أمريكيا
للمؤسسات	50دولارا أمريكيا

خارج الوطن العربي

للأفراد	50دولارا أمريكيا
للمؤسسات	100دولار أمريكي

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام

للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص. ب: 28623 - الصفاة - الرمز البريدي13147

دولة الكويت

رقم الإيداع: ٢٠١١/٣٦٧

ردمك: ٤-٣٣٥-٠-٩٩٩٠٦

• النمر الأبيض

«رواية»

العنوان الأصلي:

The White Tiger
by: Aravind Adiqa

Free press Adivison of Simon & Schuster ***2008***

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، *2011*م

إبداعات عالمية - العدد *386*

صدر العدد الأول في أكتوبر *1969*م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(1990 - 1923)

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

تم شراء حقوق النشر العربية لهذه الرواية

من الدار العربية للعلوم - ناشرون

المقدمة

يفرش الكاتب تفاصيل روايته على امتداد مساحة الهند، وفوق أوسع خارطة تحتملها الذاكرة من شمالها إلى جنوبها، ينسج بخيوطٍ ملونة تفاصيل المنطقة السياسية والعقائدية والاجتماعية وكل ما تراه عيناه من تناقضات، وذلك من خلال سرد بطل الرواية قصة حياته ابتداء من قريته الغارقة في الفقر والقلق والتخلف، ليضعها وجها لوجه أمام المدينة النابضة بالحياة، بعد أن صار شاهدا على جمالها وجلالها وصخبها وفسادها. يأخذك من الظلام والتعفن والنفايات والأمراض، إلى المدينة الحديثة، بأنوارها التي لا تخفت ليل نهار، والتي تنعكس على مبانيها الشاهقة المكتسية بالزجاج اللامع، بينما يعود الكاتب بين فينة وأخرى ليمسح بريشته الفنية ذلك اللون الأسود المظلم والكئيب على القرية. وفي خضم هذه التناقضات تنمو وتتشكل شخصية بطل الرواية من قروي ساذج إلى قاتلٍ محترف، ومنه إلى رجل أعمالٍ متمرس. كيف لخادمٍ وضيع أن يصبح رجل أعمال؟ تُرى هل هي فطرة النمر الأبيض التي اكتشفها المفتش المدرسي من خلال اطلاعه على مهاراته المدفونة في الفصل الدراسي الذي كان مجرد مرتعٍ للقمع والتخلف، أم هو تحدي الألم والحرمان حين أصبحت الحياة هي مدرسته الأولى والتي

سرعان ما تعلم فيها كيف يكون جبارا يحصل على مبتغاه من منطلق «الغاية تبرر الوسيلة»؟

يعرض الكاتب التناقضات في الحياة اليومية على شكل رموز عدة، أحدها اللون، فمثلا تكرار اللونين الأسود والأبيض اللذين سادا وصف القرية في البدايات كدلالة على الرتابة والكآبة في ذلك المكان. وراح بعد هذا يستخدم الألوان المبهجة والبرَّاقة.

وفي فضاء النص القصصي تكتشف الحالة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ليس بعرض الصورة النمطية المقترنة بالوصف مباشرة، بل من خلال الرمز أيضا. يجعل الكاتب دلهي عاصمة الهند، «عاصمة لدولتين - النور والظلام - لا دولة واحدة».

حتى نيودلهي نفسها تتكون من جانبين : دلهي القديمة الفقيرة القذرة التي يسكنها الفقراء والمسلمون. والآخر، دلهي الجديدة بكل ما فيها من القصور ومراكز التسوق التجارية والفنادق ذات الخمس نجوم حيث المتعة والرفاهية، يسكنها الأغنياء والمترفون. وعندما يتواجه الاثنان يولد الصراع الأبدي بين الفقراء والأغنياء. كل جانب يحاول أن يزيِّف الجانب المعاكس، كل وفق إمكاناته، فبينما يتبول الفقراء في أواني الزرع ويركلون كلابهم الأليفة، أو يسرقون الفتات من ثرواتهم الطائلة، نجد أن الأغنياء هم الذين

يحرزون النصر دائما بتمويه العدالة، ونشر الفساد وإزهاق الأرواح والتفرد بكل شيء.

وفي الرواية يبرز الكاتب الجانب العبثي المتعلق بسيكولوجية الهند المنتمي إلى طبقة الفقراء، حيث يقدم الروائي بطله وهو مكبلٌ بتلك القيود التاريخية والثقافية التي تجعل منه خادما فقيرا بغض النظر عن طبيعة الحراك الاجتماعي الذي يحدث في الهند؛ ولذلك يقول البطل معترفا في آخر الرواية: «لأن الرغبة في أن أكون الخادم قد تأصلت فيَّ ثُبِّتَ هذا الشيء في جمجمتي بمسمار تلو مسمار، وقد سُكِبَ في دمي، مثل مياه المجاري الملوثة بالسموم الصناعية وهي تصبُّ في النهر الأم، غانجا».

وفي الرواية نتلمَّس أن الحياة السياسية في الهند الحديثة ليست أفضل من الحياة الاقتصادية، من حيث التناقضات والتجاوزات واستغلال الديموقراطية التي هي من أكبر منجزات الهند بعد خروج الاستعمار، إذ نجد الكاتب ينطلق ليسبر غور الحياة السياسية في الهند، فيستعرض موازين القوى السياسية في الهند، ويفاجئُك حين يميط اللثام عن كيفية تداول الديموقراطية في هذا البلد، حيث تكون نتائج الانتخابات دائما محسومة سلفا لمصلحة الحزب الذي يدفع أكثر. ويزيح الستار عن الانحطاط الأخلاقي والابتزاز والتلاعب باسم الديموقراطية التي يجني ثمارها الأشرار

فقــط، ويوصل حثــالات المجتمع إلى مرتبة الأســياد، وهكذا تستمر التناقضات التي هي نبض الحياة في هذه الرواية.

وإلــى جانــب العمــق الثقافــي للكاتب حيث يســبر عوالم المجتمــع الهندي بطوائفــه وفوارقه الاجتماعيــة والثقافية، فإن الكاتب يستخدم لغة سهلة قريبة من اللغة اليومية حيث تكتنفها بعض الكلمات والعبارات العفوية التي تضفي كثيرا مــن الواقعيــة على الرواية علــى الرغم من كونهــا عبئا على الترجمة، حيث إن الكاتب يستخدم بعض الكلمات والعبارات في أصلها الهندي على الرغم من أن الرواية قد كتبت باللغة الإنجليزيــة. نتمنــى أن نكــون قــد وفقنــا فــي ترجمتها وأن تكــون الملاحظات الجانبية قد ســاهمت فــي عملية الترجمة النهائية.

لا بد من الوقوف عند التقاء النص مع مراجعته للإشادة بالمجهــود الرائــع الذي قــد بذلتــه الدكتورة زبيدة أشــكناني لمعالجة التباين اللغوي والفكري بين الموروث الثقافي للقارئ العربــي وغيــره من قراء هذه الرواية، كانت تستشــعر القبول أو الرفــض، فتتلمــس الوســطية بحنكة وخبــرة امتازت بها كمترجمة ومراجعة لعدة أعمال أدبية.

فلها مني كل الشكر والتقدير.

د. طيبة صادق

إلى رامين بهراتي

الليلة الأولى

إلى مكتب:

معالي رئيس الوزراء وِن جياباو

بكين:

عاصمة دولة الصين محبي الحرية

من مكتب:

«النمر الأبيض»

الرجل المفكر

والمقاول

الذي يعيش في المركز العالمي للتكنولوجيا وتوفير العمالة الخارجية، مدينة الإلكترونيات، المرحلة الأولى - بعد طريق هوسر الرئيسية.

بانغلور، الهند

رئيس الوزراء،

سيدي.

لا أنت ولا أنا باستطاعتنا التحدث بالإنجليزية، ولكن ثمة عبارات لا تقال إلا بالإنجليزية.

تعلمت من السيد آشوك، مستخدمي السابق، وزوجته بنكي مدام إحدى هذه العبارات. واليوم، عند الساعة ١١:٣٢ مساء، أي قبل عشر دقائق تقريبا، أعلنت السيدة في محطة عموم الهند الإذاعية أن رئيس الوزراء جياباو سوف يأتي إلى بانغلور الأسبوع المقبل. رددت في الحال تلك العبارة. والحقيقة أنه في كل مرة تزور بلادنا شخصيات عظيمة مثلك أردد تلك العبارة. ليس لأني ضد الشخصيات العظيمة. شخصيا، أنا أعتبر

نفســـي مثلك أنت يا سيدي،. ولكن عندما أشاهد رئيس وزرائنا وأصدقاءه الحميمين في طريقهم إلى المطار بســـيارات ســـوداء، يترجلون منها ويحيونك أمام كاميرات التلفزيون، ويتحدثون عن مدى صفاء أخلاقيات وقداسة الهند، أُجبر على قول تلك العبارة التي تعلمتها باللغة الإنجليزية.

الآن، معالـــي رئيس الوزراء، ســـتزورنا هذا الأســـبوع، أليس كذلك؟ إذاعة عموم الهند تملك المصداقية في هذه الأمور.

إنها مجرد مزحة يا سيدي.

ها ها!

لذلك أريد أن أســـالك مباشرة إن كنت حقا آتيا إلى بانغلور. لأنك إن كنت فعلا آتيا، فلدي شيء ذو أهمية أريد أن أخبرك به. قالت المذيعة: «إن الســـيد جياباو في مهمة: يود أن يعرف حقيقة بانغلور».

تجمدت الدماء في عروقي حين ســـمعت هذا. إن كان هناك أحد يعرف حقيقة بانغلور، فهو أنا.

وبعد ذلك قالت المذيعة: «إن الســـيد جياباو يود مقابلة بعض المقاولـــين الهنود ليســـتمع إلـــى قصص نجاحهم على لســـانهم مباشرة».

واســـتمرت تشـــرح الموضوع بعضـــا من الوقت. مـــن الواضح سيدي، أنكم أنتم الصينيين تسبقوننا في كل الأمور، بيد أنه ليس لديكم مقاولون. أما في بلادنا، فعلى الرغم من أنه لا توجد هناك مياه للشـــرب، أو كهربـــاء، أو نظام الصرف الصحي، أو شـــبكة المواصـــلات العامة، أو الوعي الصحي، أو التنظيم، أو الاحترام،

أو الالتـــزام بالمواعيد، فإن لدينا مقاولـــين. بالآلاف. خاصة في مجال التكنولوجيا. وهؤلاء المقاولون – نحن المقاولين – نؤســـس كل شـــركات العمالـــة الخارجية التي أصبحت فـــي النهاية تدير أمريكا.

يبدو أنك تـــود أن تتعلم كيف تجعل بعض الصينيين مقاولين، لذلـــك أنت تزورنـــا. وهذا يبعث لدي شـــعورا طيبـــا. ولكن ما صدمنـــي هو أن رئيس الوزراء ووزير خارجية بلادي، ســـيكونان في اســـتقبالك – وفق البروتوكول الدولي – في المطار مع أكاليل الزهور، وهدايا من تماثيل لغاندي مصنوعة من خشب الصندل، وكتيب ملؤه معلومات عن ماضي وحاضر ومستقبل الهند.

حينها عليَّ أن أتفوه بتلك العبارة التي تعلمتها باللغة الإنجليزية، يا سيدي، وبصوت عالٍ.

كان هذا في الساعةً ١١:٣٧ مساء. منذ خمس دقائق.

أنا لا أســـب وألعـــن وأكتفي بذلك، إنني رجـــل فعّال وأواكب التغيير. لذلك قررت على الفور أن أكتب إليك هذه الرسالة.

بداية، دعني أخبرك عن عظيم إعجابي ببلاد الصين العريقة. لقـــد قرأت عـــن تاريخكم في كتاب «حكايات مثيرة عن الشـــرق العجيب»، الذي وجدته على الرصيف، في أيام بحثي عن التنوير بين طيات الكتب المســـتعملة في سوق الأحد في دلهي القديمة. كان الكتاب فـــي معظمه عن القراصنة والذهب في هونج كونج، ولكنـــه كان يحتوي أيضا على خلفية مفيدة تشـــير إلى أنكم أيها الصينيون شديدو الحب للحرية والانعتاق الشخصي. لقد حاول البريطانيـــون أن يجعلـــوا منكم عبيدا لهـــم، ولكنكم لم تدعوهم

يفعلون ذلك. إني معجب بهذا الأمر، سيدي رئيس الوزراء.

لقد كنت أنا نفسي خادما ذات يوم.

هناك فقط ثلاث أمم لم تسمح للأجانب بأن يتحكموا فيها: الصين، وأفغانستان، والحبشة. هذه الدول الثلاث فقط هي التي تثير إعجابي.

احتراما للشغف الذي أظهره الصينيون بالليبرالية، وأيضا إيمانا بأن مستقبل العالم سيكون للرجل الأصفر أو الأسمر، بعد أن استهلك سيدنا السابق ذو البشرة البيضاء نفسه في الملذات واستخدام الهاتف الخليوي، وتعاطي المخدرات، سوف أقدم لك، ومن دون مقابل، الحقيقة عن بانغلور من خلال سرد قصة حياتي.

تصور، عندما تأتي إلى بانغلور، وتقف عند إشارة المرور، ستجد صبيا يهرع نحو سيارتك ويقرع على زجاج نافذتها، رافعا نسخة مهربة من كتاب أمريكي عن إدارة الأعمال، مغلفة بإتقان بورق السوليفان يحمل عنوانا مثل: «**الأسرار العشرة لإدارة الأعمال**»، أو «**كن مقاولا في سبعة أيام مريحة**»!

أنصحك، لا تبدد نقودك في شراء هذه الكتب الأمريكية، إنها متخلفة جدا، إنها تخص الأمس. أنا أخص الغد.

قد أكون مفتقرا قليلا إلى التعليم الرسمي. فأنا بكل صراحة لم أكمل تعليمي. ما أهميته؟ لم أقرأ كثيرا من الكتب، لكنني حفظت عن ظهر قلب كل الكتب المعتبرة لأعمال أعظم أربعة شعراء كل الأزمنة: رومي، وإقبال، وميرزا غالب، وآخر نسيت اسمه. أنا مقاول عصامي التعليم. إن هذا أفضل صنف موجود، ثق بي.

بعـد أن تسـمع قصتي وكيفيـة مجيئي إلى بانغلـور، وكيف أصبحـت من أنجح رجال الأعمال «علـى الرغم من أنني أقلهم شـهرة»، سوف تلم بكل ما تريد معرفته عن كيفية نشأة المقاولة، وتطورها في قرن البشرية الواحد والعشرين الرائع.

هذا القرن، يخص بالذات، الرجل الأصفر والرجل الأسـمر. أنت وأنا.

صار الوقت الآن قبل منتصف الليل بقليل، سيد جياباو. وقت جيد بالنسبة إليّ للتحدث.

إنني أسـهر الليل كله، معاليكم. وليس هناك أحد في مكتبي هذا ذي الـ ١٥٠ قدما مربعة. أنا فقط وثريا معلقة فوقي، ولهذه الثريـا ذاتية خاصة بهـا. إنها ضخمة، مملـوءة بقطع زجاجية معينة الشكل كتلك التي تعرض في أفلام السبعينيات من القرن الماضي. وعلى الرغم مـن أن الليل في بانغلور بارد، فإنني أضع فـوق الثريا مباشـرة مروحة ذات خمس شـفرات من النسـيج الشبكي. وعندما تدور تلك الشفرات الصغيرة تقطع ضوء الثريا وتبعثـره عبر الغرفة، كما الضوء الراقـص في أفضل المراقص الليلية في بانغلور.

إن هـذا هو المكان الوحيـد من نوعه في بانغلـور الذي فيه ثريا خاصة به! على أي حال تظل هناك فجوة في الحائط، وأنا أجلس في هذا المكان طوال الليل.

إنها لعنة المقاول. عليه مراقبة تجارته في كل الأوقات.

الآن سـوف أدير المروحة الصغيرة لكي تتبعثر الأضواء حول الغرفة.

أنا مسترخٍ الآن، يا سيدي، كما أتمنى أن تكون أنت كذلك. فلنبدأ.

قبل أن نفعل ذلك، يا سيدي، هناك عبارة تعلمتها بالإنجليزية من زوجة مستخدمي السابق السيد آشوك بنكي مدام، يا لها من مزحة داعرة.

* * *

أنا مبدئيا لا أشاهد الأفلام الهندوستانية، ولكن في الماضي عندما كنت أشاهدها، قبل أن يبدأ الفيلم، كان إما يظهر الرقم ٧٨٦ متوهجا عبر الشاشة السوداء - كان المسلمون يعتقدون أنه الرقم السحري الذي يمثل ربهم - وإما أنك ترى صورة امرأة تلبس الساري الأبيض تتساقط الجنيهات الذهبية تحت قدميها، والتي هي لاكشيمي إلهة الهندوس.

إنها عادة قديمة ومبجلة لدى الناس في بلادي بأن يبدأوا القصة بالصلاة لقوى عليا. أعتقد، يا معالي رئيس الوزراء، هناك الكثير من الخيارات.

لاحظ، المسلمون لديهم إله واحد.

المسيحيون لديهم ثلاثة آلهة.

والهندوس لديهم ٣٦ مليون إله.

المجموع الكلي هو ٣٦,٠٠٠,٠٠٤.

والآن هناك البعض، ولا أقصد الشيوعيين مثلكم، لكنهم رجال مفكرون من كل الأحزاب السياسية، يعتقدون أنه ليست كل هذه الآلهة موجودة حقا. وبعضهم يعتقد أنه ليس هناك وجود لأي منها. هناك فقط نحن ومحيط من الظلام حولنا.

أنا لست فيلسوفا ولا شاعرا، فكيف لي أن أعرف الحقيقة؟ صحيح أن هذه الآلهة تنجز القليل من العمل، على شاكلة السياسيين لدينا، ويتواصل انتخابهم لعروشهم سنة بعد أخرى. وهذا لا يعني أنني لا أحترمهم، يا معالي رئيس الوزراء! لا تدع هذه الفكرة التكفيرية تدخل جمجمتك الصفراء. إن بلادي من النوع الذي ترى أنه من المجدي أن تلعبها بالطريقتين: إن على المقاول الهندي أن يكون مستقيما وملتويا، مخادعا ومؤمنا، ماكرا ومخلصا في الوقت نفسه.

لذا سأغلق عيني، وأطوي يدي لألقي الناماستا[1]، وأصلي للآلهة لكي يسطع النور على قصتي المظلمة.

تحمَّلني قليلا، يا سيد جياباو. ربما يأخذ مني هذا بعض الوقت؟

* * *

ها قد انتهيت من المهمة.

أفتحُ عيني مرة أخرى.

إنها ١١:٥٢ مساء. وهو حقا الوقت المناسب للشروع في القصة.

تحذير رسمي - كما يكتب على علب السجائر - قبل الشروع في التدخين.

في يوم ما، بينما كنت أقود برئيسي السابق السيد آشوك وزوجته بنكي مدام سيارتهما الهوندا ستي، وضع السيد آشوك يدا على كتفي وقال: «تنح إلى جانب الطريق». استجبت لأمره،

---

(١) الناماستا: التحية - المراجع.

مال إلى الأمام قريبا مني إلى درجة أنني شممت رائحة عطره – كانت لذيذة، برائحة الفواكه، ذلك اليوم – وقال بأدب كعادته: «بالرام، أريد أن أوجه إليك بعض الأسئلة، موافق؟»

قلت: «أجل، سيدي».

فسألني السيد آشوك: «بالرام، كم عدد الكواكب في السماء؟».

أجبته.

«بالرام، من كان أول رئيس وزراء للهند؟».

وبعد ذلك: «بالرام، ما الفرق بين الهندوسي والمسلم؟».

ثم: «ما اسم قارتنا؟».

مال السيد آشوك إلى بنكي مدام: « أَسمعتِ إجاباته؟».

سألته بنكي مدام: «هل كان يمزح؟»، صار قلبي ينبض بشكل أسرع، كما كانت الحال في كل مرة تقول شيئا. «لا. إنه فعلا يعتقد أن إجاباته صحيحة».

قهقهتْ هي عندما سمعَتْ ذلك. ولكن وجه السيد آشوك كان جادا حينما نظرت إليه في المرآة للرؤية الخلفية.

«إنه من المحتمل أن يكون لديه فقط... سنتان، أو ثلاث سنوات من التعليم؟ إنه يعرف القراءة والكتابة، لكنه لا يستوعب ما يقرأه. إنه نصف ناضج. البلد مملوء بأناس مثله، دعيني أوضح لك هذا. نحن نُودِع عظمة ديموقراطيتنا البرلمانية –وأشار إليّ– بيد أشخاص مثل هؤلاء. إنها مأساة هذه الأمة». تنهد.

«حسنا، بالرام، شغِّل السيارة مرة أخرى».

في تلك الليلة، كنت مستلقيا على سريري، داخل الناموسية، أفكر في كلامه. كان الحق معه، يا سيدي، لم تعجبني طريقته في التحدث عني، بيد أنه كان محقا.

«السيرة الذاتية لهندي نصف ناضج». هذا ما يجب أن أُسَمي به قصة حياتي.

أنا، والآلاف غيري في هذا البلد، نصف ناضجين، لأنه لم يسمح لنا بإتمام دراستنا. افتح جماجمنا، وألقِ الضوء على عقولنا، سترى أطيافا من الأفكار المشتتة والغريبة، وجملا من التاريخ أو الرياضيات تُسترجَع من الكتب المدرسية «أؤكد لك أنه ما من تلميذ يتذكر المعلومات مثل الذي حُرم من الدراسة»، الجمل التي يقرأونها في الصحف عن السياسة في أثناء انتظارهم لدخول مكتب ما، المثلثات والأشكال الهرمية في الصفحات الممزقة من كتب الهندسة القديمة التي تستخدم الآن في تغليف الوجبات الخفيفة لدى المقاهي في هذا البلد، نتف صغيرة من نشرات الأخبار في إذاعة عموم الهند، أشياء تسقط في عقلك كسقوط سحلية من السقف، قبل أن تغط في النوم بنصف ساعة، كل هذه الأفكار، نصف المنتظمة ونصف المستوعَبة ونصف المعدلة، يختلط بعضها ببعض مع الأفكار نصف الناضجة في رأسك، وأعتقد أن هذه الأفكار نصف المنتظمة تُكوِّن أفكارا شاذة، وبالتالي تخلق أفكارا نصف منتظمة أخرى تتكاثر أكثر وأكثر، فتقضي حياتك لتعيشها وفق هذا المنوال.

إن قصة نشأتي هي معرفة مراحل إنتاج فرد نصف ناضج.

لكن انتبه، سيدي رئيس الوزراء، الأفراد كاملو التشكيل،

بعد اثنتي عشرة ســـنة في المدارس وثلاث سنوات في الجامعة، يلبســـون البزات الأنيقة، ويلتحقون بالشـــركات، ويتلقون الأوامر من الآخرين طوال حياتهم.

أما المقاولون فقد خُلِقوا من طين نصف ناضج.

* * *

لو أعطيتك المعلومـــات الأولية عني - الأصل، الطول، الوزن، الانحرافات الجنسية المعروفة... إلخ - لن يكون أفضل من ذلك الملصق الذي صنعته الشرطة عن أوصافي.

أنـــا أقر بأن الادعـــاء أن قصة نجاحي هي الأقل شـــهرة في بانغلور ليس صحيحا تماما. منذ ثلاث سنوات، عندما أصبحت، باختصار، شخصا ذا أهمية وطنية بسبب مقاولاتي، أخذ ملصق عليه وجهي طريقه إلـــى كل مكاتب البريد، ومحطات القطارات، ومراكز الشـــرطة في هـــذا البلد. حينها شـــاهد كثير من الناس وجهي واســـمي.لا توجد لدي الآن النســـخة الأصلية من الورق، لكنني أنزلـــت الصورة على جهاز الكمبيوتر المحمول «اللاب توب الماكنتوش الفضي» وقد اشـــتريته عن طريق الإنترنت من مخزن في ســـنغافورة، والحقيقة يشـــتغل كما الحلم، ولو انتظرت ثانية واحدة، ســـأفتح جهاز الكمبيوتر المحمول وأُخـــرج الملصق الذي نسخت منه نسخة بواسطة الماسح الآلي، وأقرأ لك منه مباشرة.

هنـــاك جزئية واحدة عن الملصـــق الأصلي. لقد وجدته في محطة القطار في حيدر آباد، في الفترة التي كنت أسافر فيها مـــن دون أمتعة - فيما عـــدا حقيبة حمراء ثقيلة جدا - عائدا من دلهي إلـــى بانغلور. كانت لدي طبعته الأصلية هنا في هذا

المكتـــب، وفي درج الطاولة هذه، لمدة عـــام كامل. وفي يوم من الأيـــام كان صبي المكتب يرتب أغراضي، وكان على وشـــك أن يجد الملصق. أنا لست رجلا ذا مشاعر جياشة، يا سيد جياباو. ليس بإمكان المقاولين أن يكونوا كذلك. لذا رميت ذلك الشـــيء - ولكـــن قبل أن أرميه، جعلت شـــخصا ما يعلمني اســـتخدام الماســـح الآلي - وأنت تعلم كيف نعتاد نحن الهنود التكنولوجيا كاعتياد الإوز على الماء. اســـتغرق مني الأمر ســـاعة واحدة أو اثنتين. أنا رجل ذو همة عالية كما قلت لك، يا ســـيدي. وهاهو ذا، على الشاشة الآن، أمامي.

مطلوب المساعدة في البحث عن رجل مفقود.

نبلـغ بذلك عموم الشـعب، بموجب القانـون، أن الرجل الذي في الصورة

المدعو بالرام حلوائي، المعروف بـ مونّا ابن فيكرام حلوائي، حمال الريكشو مطلوب للعدالة. العمر: بين ٢٥ و٣٥ سنة.

بشرته مائلة إلى السواد. وجهه بيضاوي. طوله يقدر بخمس أقدام وأربع بوصات. بنيته: هزيل، وصغير.

حســـنا، هذه الأوصاف لم تعد صحيحة تماما يا سيدي. أما الجزء المعني بالبشرة المائلة إلى السواد فصحيح إلى حد ما، على الرغم من أنني على وشـــك تجربة أحد المستحضرات التجميلية الخاصة بتفتيح البشـــرة التي نزلت الأســـواق هذه الأيام والتي تجعل بشـــرة الرجال الهنود تظهر كبشـــرة الغربيين، ولكن بقية الصفات للأســـف عديمة الجدوى. إن الحياة في بانغلور جيدة، الأغذية الغنية، الجعة، المراقص الليلية، فماذا يمكنني أن أقول!

«هزيل وصغير»، ها! إنني في أحسن حال هذه الأيام! وقد يكون «سمين» و«ذو كرش»، أدق تعبيرا.

لنكمل الآن ما قد بدأناه، فليس لدينا الليل كله. يجدر بي الآن شرح هذه الجزئية.

بالرام حلوائي، المعروف بـ مونّا.

تصوَّر، في أول يوم لي في المدرسة، جعل المدرس الأولاد يصطفون ويأتون إلى منضدته حتى يكتب أسماءنا في سجله. عندما نطقت اسمي فغر فاه: مونّا؟ هذا ليس اسما حقيقيا».

كان المدرس محقا: إنه يعني فقط «ولد».

قلت له: «هذا كل ما لدي، يا سيدي».

هذه هي الحقيقة. لم أُمنَحْ اسما قط.

«ألم تطلق أمك عليك اسما؟».

«إنها مريضة جدا، يا سيدي. إنها ترقد في الفراش وتتقيأ دما. وليس لديها وقت لتسميتي».

«وماذا عن أبيك؟».

«إنه حمال الريكشو، يا سيدي. وليس لديه وقت لتسميتي».

«أليس لديك جدة؟ عمات وخالات أو أعمام وأخوال؟».

«هم أيضا ليس لديهم وقت».

استدار المدرس وبصق نافورة من البان الأحمر [٢] صبغت أرضية الفصل. ومص شفتيه.

---

(٢) هي ورقة نبتة التنبول تتحول عصارتها إلى اللون الأحمر القاني بعد مضغها، ولذلك كانت النساء في الهند قديما يمضغن البان حتى تُصبغ أفواههن باللون الأحمر الطبيعي، ويقال إن الملكة نورجيهان والدة شاه جيهان الذي بنى تاج محل كانت تمضغ البان، كما كان الإله كريشنا يمضغه أيضا. يعتقد الهنود أنه يساعد على الهضم وغالبا ما تُلف هذه الأوراق حول أطعمة معينة ثم تمضغ.

«حسنا، إن الأمر عائد إليَّ إذن، أليس كذلك؟». مرر يده وسط شعره وقال: «سوف ندعوك... رام. انتظر، أليس لدينا رام آخر في هذا الفصل؟ لا أريد أي ربكة بسبب تشابه الأسماء. سوف يكون اسمك بالرام. أنت تعرف من يكون بالرام، أليس كذلك؟».

« لا، يا سيدي».

«إنه كان الصاحب المقرب للإله كريشنا. هل تعرف اسمي؟».

« لا، يا سيدي».

ضحك، وقال: «كريشنا».

عدتُ إلى البيت ذلك اليوم وأخبرت والدي أن معلمي قد أطلق عليّ اسما جديدا. هز كتفيه وقال: «إن كان هذا ما يريده، فسوف نسميك ذلك».

وهكذا أصبحت بالرام منذ ذلك اليوم وصاعدا. وبعد هذا، طبعا، اخترت اسما ثالثا. سوف نأتي على هذا لاحقا.

والآن «ما هذا المكان الذي ينسى فيه الناس أن يسموا أطفالهم؟» لنرجع إلى الملصق.

المشتبه فيه يأتي من قرية لاكسمنغارا، في الـ...

كما حال كل القصص الجيدة في بانغلور، تبتدئ من مكان بعيد عن بانغلور. وكما ترى أنني الآن في دائرة الضوء. لكنني ولدت وترعرعت في «الظلام».

ولكن أنا لا أتحدث في هذه الفترة من اليوم، يا سيدي رئيس الوزراء. إنني أتحدث عن مكان في الهند، على الأقل ثلث مساحة الهند، منطقة خصبة، مملوءة بحقول الأرز والقمح، تتوسطها مستنقعات تتشابك فيها زهور اللوتس والزنبق المائي، والجواميس

المائية تتهادى في هذه المستنقعات تمضغ أزهار اللوتس والزنابق. أولئــك الذين يقطنون هذا المكان يســمونه «الظــلام». أرجوك افهمنــي يا معالي الوزير، إن الهند دولتان في واحدة: هند النور وهنــد الظلام. إن المحيط يجلب الضــوء لبلادي. كل مكان على خارطــة الهند وبالقرب من المحيط يكــون مزدهرا. ولكن النهر يجلب الظلام للهند - النهر الأسود.

أي نهر أســود هذا الــذي أعنيه، أي نهر للمــوت هذا الذي أعنيــه، ذلك الذي تمتلئ ضفافه بوحــل غزير داكن لزج، والذي تنقض قبضته على كل ما تزرع فيه، فتخنقه وتعيق نموه؟

لماذا، أنا أتكلم عن الأم غانجا[٣]، ابنة الفيداس[٤]، نهر البصيرة والحكمة، النهرالذي يحمينا، وهو ذاته الذي يوقِف دورة التناسخ. أي مكان يجري فيه هذا النهر، يكون ذلك المكان هو «الظلام».

هناك حقيقة واحدة عن الهند هي أنك تســتطيع أن تأخذ أي شــيء تســمعه من رئيس الــوزراء عن البلاد ثم تعكســه، فتحصــل علــى حقيقة ذلك الأمر. الآن، قد ســمعت أن النهر غانجا تســمى نهر العتق من العبودية، ويأتي المئات من السياح الأمريكيين إليه كل عام ليلتقطوا الصور الفوتوغرافية لمجموعة من السادو[٥] العراة في منطقة هاردوار وبيناراس، ومما لا شك

(٣) يعتبر هذا النهر مقدســا لدى أصحاب الديانة الهندوســية، ويجري فــي المناطق الجنوبية الشرقية من الهند، تعتبر سهوله من أخصب المناطق وأكثرها تلوثا في العالم.

(٤) إن الفيدا مجموعة من أربعة كتب لاهوتية أساســية. فهي تحتوي على قدر كبير ومتنوع من الأســاطير الدينية التي تتعمد المزج بين الأســطورة والدين والتاريخ. هذه الأساطير الدينية لها جذور عميقة في تاريخ وثقافة الهند حتى أن إنكار الفيدا يعتبر معارضة لكيان الهند نفسها.

(٥) جماعة من الهندوس المتصوفين الزاهدين الذين يعيشون بعيدا عن الحياة العامة، يمارسون الرياضــة الروحانية، ويكرســون جهدهم في التأمــل والتعبد حتى يصلوا إلــى المرحلة الرابعة والأخيرة من الحياة بالنسبة إلى الديانة الهندوسية.

فيه أن رئيس وزرائنا ســـوف يصفه لك بهذه الطريقة، ويحثك على أن تغطس فيه.

لا يا ســـيد جياباو، أنا أحذرك مـــن أن تغطس في نهر الغانجا، إلا إذا كنـــت تريد أن يمتلئ فمك بالوســـخ، والقش، وأجزاء متحللة من أجساد بشـــرية، وجيف الجواميس، وســـبعة أنواع مختلفة من الأحماض الصناعية التي تُصَب في هذا النهر مع نفايات المصانع.

أنـــا أعرف كل شـــيء عن الغانجا يا ســـيدي، منـــذ كنت في السادســـة أو السابعة أو الثامنة «لا أحد في قريتي يعرف عمره الحقيقـــي»، ذهبت إلى أكثر المواقع قدســـية علـــى ضفاف نهر الجانجا - مدينة بينـــاراس. أتذكر نزولي إلى طريق منحدر في مدينة باناراس المقدســـة، خلف موكـــب الجنازة الذي كان يحمل جسد أمي إلى الغانجا.

كاســـوم، جدتي، كانت فى مقدمة الموكب. جدتي تلك العجوز الخبيثة! كانت لديها عادة حك ساعديها بقوة عندما تفرح، كأنهما قطع من الزنجبيل تبْشـــرهما بشدة. كانت قد فقدت كل أسنانها ما جعل ابتسامتها أكثر مكرا. لقد ابتسمت وتمكنت من دون شك مـــن التحكم في المنزل؛ كل الكنات والأصهار كانوا يرتعبون خوفا منها.

كان أبي وأخي كيشان، يقفان خلفها، ليحملا القواعد الأمامية من الســـرير الذي عليـــه الجثة؛ أعمامي وأخوالـــي، وهم مونّو، وجيـــرام، وديفيـــرام، وأومش، وقفوا بالخلـــف، يحملون الطرف الآخر. جثمان أمي كان مغلفا من رأســـها إلـــى أخمص قدميها بقمـــاش من الحرير ذي اللون الزعفرانـــي، المغطى بأوراق الورد

وأكاليل الياسـمين. لا أعتقد أنه كان لديها شـيء ذو قيمة كهذا لتلبسه في حياتها. «جنازتها كانت مهيبة، بحيث إنني أدركتُ فورا أن حياتها كانت تعسة. إن أسرتي كانت مذنبة في شيء ما». عماتي: رابري، وشـاليني، وماليني، ولوتو، وجايديفي، وروتشي كـن يلتفتن إلى الوراء ويصفقن لي ليلفـتن انتباهي للحاق بهن. أتذكر أنني كنت ألوح بيدي وأغني، «اسم شيفا[٦] هو الحق!»

سرنا متجاوزين المعبد تلو الآخر، نصلي لإله تلو الآخر، وبعد ذلك ذهبنا فـي صف واحد بين معبد أحمر خُصص لهانومان[٧] وسـاحة رياضية حيث كان هناك ثلاثة رجال يمارسـون رياضة كمال الأجسـام ويرفعون أثقالا صدئة فوق رؤوسـهم. شـممت رائحة النهر قبـل أن أراه: رائحة اللحم المتحلل من جهة يميني. فغنيت بصوت أعلى: «.. .. هو الحقيقة الوحيدة!»

ثم كان هناك دوي هائـل، لقد انفلق الحطب المحترق. على طـرف الغات[٨] بُنيتْ منصة خشـبية فوق الماء مباشـرة؛ قطع الحطـب قد كُومـت على المنصـة، ورجال يهشـمون الحطب بفؤوسـهم. كانت هناك قطع كبيرة من الحطب، يشـكلون منها محرقـة الجنازة على عتبات الغات التي تنحدر إلى الماء، أربعة جثامـين كانت تحترق علـى عتبات الغات عندمـا وصلنا إلى هناك. انتظرنا دورنا.

على بعد مسـافة، التمعت جزيرة من الرمل الأبيض في ضوء

(٦) تقوم الديانة الهندوسية على ثالوث إلهي قوامه: خالق هو براهما، وحافظ هو فيشنو، ومدمّر مهلك هو شيفا، وأي شيء يصدر عن شيفا هو بحدّ ذاته رحمة.

(٧) هـو إله له ملامح القـرد ويعيش في الغابة. كان قدره أن يسـاعد راما ضد الملك المتوحش رافانا، فأصبح رمزا دينيا شديد القدسية.

(٨) عتبات عديدة عند الجانب الغربي من نهر الغانجا المقدس تؤدي كل منها إلى داخل النهر.

الشـــمس، وكانت قوارب ملؤها ركاب تتوجـــه إلى تلك الجزيرة. رحت أتســـاءل إن كانت روح أمي قد طارت إلى هناك، إلى ذلك المكان المضيء من النهر.

لقد ذكرت لك أن جســـد أمي لُف بقمـــاش من الحرير، هذا القمـــاش كان قد غطى الآن وجههـــا؛ وقد تكوَّمت قطع الحطب، الكثيـــر منها، بمقدار مـــا أمكننا دفع قيمته، فـــوق الجثمان. ثم أضرم الكاهن النار في أمي.

«كانت فتاة طيبة هادئة يوم أتت إلى منزلنا،». قالت كاســـوم، وهي تضع يدا على وجهي: «لم أكن أنا محبة للعراك».

أبعـــدتُ يدها عن وجهي. ورحت أراقب جثة أمي. بينما كانت النار تأكل القماش، اهتزت قدم أمي الشـــاحبة، كما لو أن الحياة بدأت تدب فيها؛ كانت الأصابع تذوب في الحرارة، وتتقلص إلى الأعلـــى، كأنها تقاوم ما يحدث لها. جدتي كاســـوم تدفع بالقدم داخل النار، ولكنها لا تحترق. وبدأ قلبي يدق بسرعة. إن أمي لن تدعهم يدمرونها.

تحت المنصة التي تكوَّم فوقها الحطب المحترق، هناك ترسبات هائلة من أكوام الطين الأسود تتجرف نحو الشاطئ. وهذه الأكوام غطتها بقايا شرائط الياسمين، وأوراق الورد، وقطع من الساتان، والعظام المتفحمة؛ وكلب شـــاحب الجلد يزحف ويتشـــمم أوراق الورد والساتان والعظام المتفحمة.

نظرت إلى الأوساخ، ونظرت إلى قدم أمي الملتوية.

هذا الطين كان يمنعها، تلك الأوساخ الهائلة الداكنة والمنتفخة. كانت أمي تحـــاول مقاومة هذا الطين الأســـود، أصابع قدميها

تقاوم وتتلوى، لكـــن الطين امتصها إلى الداخل. كان كثيفا جدا، وكثير منه يتكون في كل لحظـــة عندما يندفع النهر نحو الغات. وسرعان ما ستصبح أمي جزءا من النهر وسيبدأ الكلب ذو الجلد الشاحب في لعقها.

حينها فهمت: كان هذا الإله الحقيقي لمدينة بيناراس - الطين الأســـود من نهر غانجا الذي يفنَى فيه كل شيء، ويتحلل، ويُبعث من جديد، ثم يفنى مرة أخرى. وهذا ما سيحدث لي عندما أموت ويأتون بي إلى هنا. لن يُعتق سبيل أي شيء في هذا المكان.

توقفت عن التنفس.

كانـــت هذه المرة الأولـــى التي يغمى عليّ فيهـــا. لم أعد بعد ذلـــك الحدث لأرى نهـــر الغانجا ثانية، إنني أتركه الآن للســـياح الأمريكيين!

... يأتي من لاكسمنغارا، في مقاطعة غايا.

هذه مقاطعة مشـــهورة، لها شـــهرة عالمية. إن تاريخ بلادكم قد تشـــكّل من مقاطعتي هذه، يا سيد جياباو. من المؤكد أنك سمعت عن بوذا غايا، إنها المدينة التي جلس فيها مولانا بوذا تحت شجرة، وأوجد جوهر التنوير الذي منه نشـــأت البوذية، ومن ثم انتشـــرت إلى جميـــع أنحاء العالم، بما فيها الصين، وأين هي غايا، ســـوى هاهنا في موطني! على بعد بضعة كيلومترات من لاكسمنغارا؟

لا أدري إن كان بـــوذا قد مر على لاكســـمنغارا، بعض الناس يقولون إنه فعل ذلك. شـــعوري الشخصي أنه انطلق مسرعا من خلاله - بكل ما أُوتي من سرعة - ووصل إلى الجانب الآخر من دون أن ينظر خلفه.

ثمــة فــرع يتشــعب من نهــر غانجــا يجري فقــط أقصى لاكســمنغارا، تأتي القــوارب عبره من العالــم الخارجي، جالبة المؤن كل يوم اثنين. يوجد شــارع واحد في القرية يقسمه شريط مصقول من مياه المجاري إلى نصفين. وتوجد السوق على جانبي هذه القاذورات، على الأقل ثلاثة دكاكين متشــابهة تبيع أصنافا مماثلة مغشوشــة ومنتهية الصلاحية، مثــل الأرز وزيت الطهي، والكيروسين، والبسكويت، والســجائر، والسكر غير المكرر. في نهاية الســوق يوجد برج أبيض طويل، مخروطي الشــكل، وعلى جوانبه رُســمت ثعابين ســوداء مجدولة، إنه المعبد. داخله تجد صورة لمخلوق بلون الزعفران، نصفه إنسان والنصف الآخر قرد، إنه الإلــه هانومان، الإله المفضل لدى الجميع في «الظلام». هل تعرف شــيئا عن الإله هانومان، ســيدي؟ إنه الخادم المطيع لدى الإله رامــا، ونحن نعبده في معابدنا لأنه قدوة يقتدي به الخادم في خدمته لأسياده بالإخلاص المطلق، والمحبة، والتفاني.

توجد أنواع من الآلهة فرضت علينا فرضا، يا ســيد جياباو. إنــك تفهم كم هــو صعب على الإنســان أن يظفــر بحريته في الهند.

يكفــي هذا بالنســبة إلى المكان. والآن بالنســبة إلى الناس، يا ســعادة رئيس الوزراء، إنه لمــن دواعي اعتزازي أن أخبرك أن لاكســمنغارا هي نموذج للقرية الهندية الشــبيهة بالجنة، مزودة بشــكل جيد بالكهرباء، والمياه الجارية، والهواتف التي لا يوقفها أي عطــل؛ والأطفال في قريتي ترعرعوا على نمط غذائي غني باللحوم، والبيض، والخضراوات، والبقوليات لتتوافق قياســات

طـول قاماتهـم وأوزانهم مع تلـك المعايير التـي وضعتها الأمم المتحدة والمنظمات الأخرى التي وقّع رئيس وزرائنا باسـمه على بنودها مع حرصه الشديد أيضا لحضور منتدياتها باستمرار.

ها ها!

أعمدة الكهرباء عاطلة عن العمل.

صنابير الماء مكسورة.

الأطفال شديدو النحافة وقصار القامة بالنسبة إلى أعمارهم، بـرؤوس ضخمة تشـع منها أعين لا تتوقف عـن الحركة، كأنها تشعر بتأنيب الضمير مثل الحكومة الهندية.

نعم، هذا نموذج قرية الفردوس الهندية، يا سيد جياباو. يوما ما سـوف آتي إلى الصـين لأرى إن كان فردوس القرى الصينية أحسن منها.

في وسـط الطريق الرئيسـي، قطعان من الخنازير تشـم مياه المجاري، الجزء الأعلى من أجسـام هذه الحيوانات جاف، بشـعر طويل أشـعث صوب عموده الفقري؛ والجزء الأسفل أسود كالفحم مبلل ومصقول من كثرة ما التصق به من أوسـاخ البالوعات. وفي الجانـب الآخر تطير الديكـة صعودا ونزولا فوق أسـقف المنازل بومضان من ريشـها الأحمـر الزاهي والبني. بعـد مرورك على الخنازير والديكة، سوف تصل إلى منزلي، إن كان لايزال موجودا.

عند مدخل بيتنا، سوف ترى أهم عضو في عائلتي.

الجاموسة المائية.

كانت الأسمن في العائلة؛ وهذا صحيح بالنسبة إلى كل البيوت في القرية. تطعمها النسـاء من العشب الطازج طوال اليوم، مرة

تلو أخرى؛ كان إطعامها هو الشـــغل الأســاســـي في حياتهن. كل رجائهن كان منصبا على تسمين الجاموسة يا سيدي. إن أعطت حليبا كافيا، فالنســـاء يســـتطعن أن يبعن بعضه، وبالتالي يجنين مـــالا أكثر في آخر النهار. جاموســـتنا كانت ســـمينة، ذات جلد مصقول، لديها عـــرق نافر من منخرها المشـــعر، وبصاق كثيف وطويل لؤلئي اللون يتدلى من طرف فمها، تجلس طوال اليوم في برازها الهائل. كانت الحاكم المطلق في منزلنا.

بمجـــرد أن تدخل بيتنا، ســـترى - إن كان أحـــد منهم مازال حيـــا، بعد الذي صنعته - النســـاء يعملن في فناء المنزل. عماتي وخالاتي وبنـــات عمومتي وجدتي كاســـوم. واحدة منهن تحضّر الوجبة للجاموسة، والثانية تنخل الأرز، والثالثة جالسة القرفصاء تتفحص خصلات شعر الأخرى، تضغط على القمل بين إصبعيها حتى الموت. ومن حين إلى آخـــر يتوقفن عن عملهن، حيث يكون قـــد حان وقت العراك. وهذا يعنـــي رمي بعضهن بعضا بالأواني المعدنية، أو شـــد بعضهن شعر بعض، وبعد ذلك يتصالحن، حيث يضعن قبلات على أكفهن ويلصقنها، بعضهن على وجنات بعض. وفي الليل يخلدن إلى النوم جماعيا، سيقانهن بعضها فوق بعض كأنهن مخلوقٌ واحد، كالدودة ذات الألف رِجل.

الرجال والأولاد ينامون في ركن آخر من البيت.

فـــي الصباح الباكر يجن جنـــون الديكة في كل أرجاء القرية. تتحـــرك يد لتوقظني.. أهز ســـاق أخي كيشـــان وأبعدها عن بطني، أُبعد كف بوبا ابن عمتي عن شـــعري، وأحرر نفســـي من هؤلاء النيام.

«تعال، موناّ».

يناديني أبي من باب المنزل. أعدو وراءه. نخرج من البيت ونفك قيد الجاموســـة من عمودها. ونأخذها للاســـتحمام الصباحي، ونمضي قدما إلى البركة أسفل القلعة السوداء.

تقع القلعة الســـوداء على قمة تلـــة مطلة على القرية. يقول الذين سافروا إلى بلدان أخرى إن جمال هذه القلعة يضاهي جمال أي مكان في أوروبا. لا بد أن تكون هذه القلعة قد بناها منذ قرون، الأتراك، أو الأفغان، أو الإنجليز، أو أي أجنبي آخر كان يحكم الهند آنذاك.

«حيث إن هذه البلاد «الهند»، لم تكن قط حرة. حكمنا المسلمون أولا ثـــم البريطانيون. وفي العـــام ١٩٤٧ خرج البريطانيون، لكن الأبله وحده هو الذي يظن أننا أصبحنا أحرارا».

الآن تـــرك الأجانب القلعة الســـوداء، وراحـــت تحتلها قبيلة مـــن القردة. ولا يذهب أحد هناك ســـوى رعاة الأغنام، يأخذون قطعانهم لترعى في تلك المنطقة.

عند شـــروق الشمس، تتلألأ البركة أســـفل القلعة. صخورها تدحرجت من جدار القلعة وانهارت في البركة، واستقرت هناك، انغمـــس نصفها في الميـــاه الموحلة، مثل قطيع مـــن وحيد القرن الغافية في البركة، والذي سأشاهده بعد عدة سنوات في حديقة الحيـــوان في نيودلهي. أزهار اللوتس والزنابق تطفو على البركة كلهـــا، المياه تلمع مثل الفضة، والجاموســـة تتبختر في الماء وهي تمضـــغ أوراق الزنابق، وتخرج مـــن منخرها هواء يحدث أمواجا خفيفة على شـــكل حرف V. تشـــرق الشـــمس على الجاموسة، وعلى أبي، وعليّ، وعلى عالمي.

أتصدق أنني أحيانا أفتقد ذلك المكان.

والآن لنعد إلى الملصق.

المشتبه فيه شوهد آخر مرة بلباس أزرق اللون وقميص بوليستر ذي مربعات مختلفة الألوان، وبنطال بوليستر برتقالي اللون، وصندل قرمزي اللون...

صندل «قرمزي اللون»، وحده الشرطي هو الذي يمكنه أن يلفق تفاصيل بهذا الشكل. أنا أنكرها كلية. «قميص أزرق اللون من البوليستر ذو مربعات، وبنطال بوليستر برتقالي اللون». ...، حسنا، أود إنكار هذه الأشياء أيضا، ولكنها لسوء الحظ صحيحة. كانت تلك هي الملابس، يا سيدي، التي تروق لعين خادم. وقد كنت حينها لا أزال خادما في صباح اليوم الذي أعدوا فيه هذا الملصق.

« في المساء كنت طليقا، مرتديا ملابس مختلفة!»

الآن، هناك جملة واحدة في الملصق تزعجني، دعني أرجع إليها لحظة وأعدلها:

... ابن فيكرام حلوائي، سائق عربة الريكشو...

السيد فيكرام حلوائي، سائق عربات الريكشو شكرا لك! كان أبي رجلا فقيرا، لكنه كان ذا مروءة وشجاعة. لولاه لما كنت هنا، تحت هذه الثريا، لولا إرشاداته لي.

بعد الظهر، كنت أذهب من المدرسة إلى محل الشاي لأراه. كان هذا المكان مركز قريتنا، في مساء كل يوم تتوقف الحافلة هناك قادمة من غايا «لا تتأخر أبدا أكثر من ساعة أو ساعتين» ورجال الشرطة يوقفون سيارتهم «الجيب» هناك عندما يريدون

أن يســتهدفوا شــخصا ما من القرية. قبل الغروب بقليل، يدور رجل حــول المطعم ثلاث مرات وهو يقرع الجــرس عاليا. مثبتا خلــف دراجتــه الهوائية قطعة مــن الورق المقــوى عليها ملصق لصورةٍ تروج لفيلم إباحي، كيف للقرية الهندية أن تكتمل من دون صالة عرض للأفلام الإباحية، يا ســيدي؟ إن دارا للسينما على الجانب الآخــر من النهر تعرض تلك الأفلام كل ليلة، ســاعتان ونصف الســاعة من الفانتازيا تقضيها مع أسماء مثل: «كان حقا رجــلا»، أو «لقــد فتحنا مذكراتها»، أو «العــم فعلها»، من تمثيل نساء ذوات شعر ذهبي من أمريكا أو سيدات وحيدات من هونج كــونج، أو هذا مــا أعتقده، يا رئيس الــوزراء، فأنا لم ألتحق قط بالشباب لمشاهدة أي من هذه الأفلام!

أَوقف ســائقو الريكشــو عرباتهم في خط واحد بالقرب من المقهــي، بانتظار الحافلــة وخروج الركاب منها. لم يُســمح لهم بالجلوس على المقاعد البلاســتيكية المخصصة للزبائن الموجودة في الخارج. كان عليهم أن يجثموا في الخلف، محدودبين، جالسين القرفصــاء، مثل الخدم في كل أرجاء الهند. لم يجلس أبي قط، أتذكر هذا. كان يفضل دائما الوقوف، مهما طال انتظاره ومهما تســبب ذلك في تعبــه. كنت أراه نازعا قميصــه، وغالبا ما كان وحده، يحتسي الشاي ويغرق في التفكير.

عندئذ يأتي صوت بوق السيارة.

فتتفرق الخنازير والكلاب الضالة القريبة من محل الشــاي، وتعلــو رائحة الغبار والرمال، ورائحــة فضلات الخنازير بداخل المطعم. توقفت ســيارة بيضاء طراز إمباسيدور. وضع أبي قدح

الشاي جانبا وخرج. فُتح باب السيارة، خرج منها رجل يحمل مفكرة. استمر الزبائن في تناول الأكل، ماعدا أبي والآخرين الذين وقفوا في صف واحد. لم يكن الرجل الذي يحمل المفكرة هو «الجاموس» بل كان مساعده. كان هناك شخص آخر داخل السيارة، رجل بدين أسمر اللون أصلع ذو رأس به نقرات، على وجهه سحنة هادئة، وعلى حجره بندقية.

كان هذا هو «الجاموس».

هذا «الجاموس» هو أحد الإقطاعيين في لاكسمنغارا. هناك ثلاثة آخرون، كل منهم له اسم مستوحى من مزاجه الغريب.

كان «اللقلق» رجلا بدينا ذا شارب كث غليظ ملتو وحاد الطرفين. يمتلك النهر الذي يجري خارج القرية، يستقطع حصة لنفسه من أي صيد من السمك يقوم به الصيادون، ورسوم العبور من كل أصحاب القوارب الذين يعبرون النهر ليأتوا إلى قريتنا.

كان أخوه يُدعى «الخنزير البري» وهذا يمتلك كل الأراضي الزراعية الخصبة حول لاكسمنغارا. إن أردت العمل في هذه الأراضي فعليك الركوع تحت قدميه، وأن تلمس التراب أسفل نعليه، وأن توافق على الأجر اليومي مغصوبا. عندما تمر سيارته أمام النساء، يوقف سيارته ويُنزل زجاج النافذة لكي يظهر ضحكته لهن، اثنتان من أسنانه طويلتان ومعقوفتان مثل ناب الفيل على جانبي أنفه.

الآخر هو «الغراب»، يمتلك أسوأ الأراضي، وهي السهول الصخرية الجافة حول القلعة، كان يستقطع المال من الذين يرعون قطعان الماعز في الأعالي هناك. وإن لم يكن لديهم شيء

من المال، كان يضع منقاره في ظهورهم[٩]، لذلك أسموه «الغراب».

يعتبر الجاموس أكثرهم جشعا. لقد ابتلع عربات الريكشو والطرق أيضا. لذلك إن كنت تعمل على الريكشو، أو تستخدم الطريق، فعليك أن تدفع له حصته، ثلث كل ما تجنيه، وليس أقل من ذلك.

يعيش كل من الحيوانات الأربعة في قصور ذات جدران مرتفعة خارج لاكسمنغارا - أحياء الأسياد. لديهم معابدهم الخاصة داخل هذه القصور، وآبارهم وبركهم المائية، فليست لديهم الحاجة ليخرجوا إلى القرية إلا لالتهام نصيبهم. ذات مرة، جال أطفال هؤلاء الحيوانات في البلدة في سياراتهم؛ كاسوم جدتي تذكرت تلك الأيام وروت لنا الحادثة، ولكن بعد أن اختُطِف ابن «الجاموس» على يد الناكسال[١٠]، ربما سمعت عنهم، سيد جياباو، كونهم شيوعيين، مثلك بالضبط، يطلقون النار على الأغنياء على أساس المبدأ الشيوعي - بعدها أرسلوا أولادهم وبناتهم إلى دانباد أو دلهي.

أبناؤهم ذهبوا، ولكن الحيوانات بقيت تتغذى على كل شيء ينمو في القرية، إلى أن لم يبق شيء يتغذى عليه أي شخص. لذا رحلت بقية القرية عن لاكسمنغارا بحثا عن لقمة العيش. في كل عام، كان ينتظر جميع رجال القرية في مجموعاتٍ كبيرة خارج محل الشاي. حين تأتي الحافلات، يستقلونها - يحشرون أنفسهم داخلها، يتعلقون بقضبانها، يتسلقون إلى أسقفها -

(٩) تعبير يستخدمه الكاتب في هذه الرواية ويقصد به ممارسة الجنس.

(١٠) جماعة من الثوار الشيوعيين يهددون النظام الديموقراطي أو الإقطاعي، يعرف عنهم العنف الدموي.

ويذهبـــون إلى غايـــا ؛ وهناك يقصدون المحطـــة ويهرعون إلى داخل القطارات - يحشرون أنفسهم داخلها، يتعلقون بقضبانها، يتسلقون إلى أسقفها - ويذهبون إلى دلهي، كلكتا، ودانباد بحثا عن العمل.

قبل موســـم الأمطار بشـــهر، يعود الرجال مـــن دانباد ودلهي وكلكتا، أكثر هزالا وأكثر ســـوادا وأكثر غضبا، ولكن مع المال في جيوبهم. كانت النســـاء بانتظارهم. يختبئـــن وراء الأبواب، حالما يدخل الرجال المنزل يثبن مثل القطط المتوحشـــة على قطعة من اللحم. يتشاجرن ويصرخن ويزداد عويلهن. كان أعمامي يقاومون، وينجحون في الاحتفاظ ببعض المال، لكن أبي كان يُقشَّـــر ويُسلَّخ كل مرة يعود بها إلى البيت، كان يقول لنفســـه وهو قابعٌ في قعر زاوية من الحجرة: «لقـد اســـتطعت أن أنجو من المدينة، ولكنني لا أقـــدر أن أنجـــو من النســـاء في بيتي». وكـــن يطعمنه بعد أن يطعمن الجاموسة.

كنت آتي إليه وألعب حوله متســـلقا ظهره، وماسحا كفي على جبهته، وعينيـــه، وأنفه، وأهبط به على رقبتـــه والجزء الصغير الخفيض أســـفل رقبته وأترك إصبعي يداعـــب ذلك الجزء من نحره لفترة من الزمن - مازال ذاك الجزء من جسد الإنسان هو المفضل لدي حتى الآن.

إن جسد الرجل الغني يكون بمنزلة وسادة قطنية ذات نوعية اســـتثنائية، أبيض وناعما ومسترسلا. أجســـادنا نحن مختلفة تمامـــا. كان العمود الفقري لأبي كحبل معقـــود، من النوع الذي تســـتخدمه النســـاء في القرية لجلب الماء من البئر، ترقوته قد

برزت حول رقبته عاليا مثل طوق الكلب، وكانت الندوب والجروح مثـل علامات السـياط على الجلد، تأخذ بالنـزول إلى منطقة الصـدر والخصر، وصولا إلى الحوض حتـى المؤخرة. إن قصة حياة الرجل الفقير مكتوبة على جسده بقلم حاد.

امتهـن أعمامي أيضا المهن التي تقصم الظهر، لكنـهم عملوا مـا كان يعملـه الآخرون. كل عـام، بمجرد أن تهطـل الأمطار، يذهبون إلى الحقول مع المناجل المسودة، يتوسلون لدى رب عملٍ أو آخر. ينثرون البذور، ويجتزون الحشـائش ويحصدون القمح والأرز. كان بإمكان أبي العمل معهم، كان بإمكانه العمل في وحل الأسياد، لكنه أبى أن يعمل بمثل هذا النوع من الأعمال.

قرر أن يقاوم اختيار هذا النوع من الأعمال.

والآن، وبمـا أني أشـك أن يكون لديكم حمال الريكشـو في الصين - أو في أي بلدٍ حضاري في العالم - فلك أن ترى واحدا بنفسك.

لا يسمح لحمّالي الريكشو بدخول المناطق الراقية من دلهي، حيث من الممكن أن يسـتغرب الأجانب من منظرهم. عليك أن تصرَّ على الذهاب إلى دلهي القديمة، أو «نظام الدين»، هناك سـترى الطرقات مكتظة بهم، رجال هزلـى كالعصي، ينحنون إلى الأمام وهم على مقاعد دراجاتهم الهوائية، يُجَدفون عربة تحمـل هرما من لحوم أنـاسٍ من الطبقة الوسـطى - بعض الرجـال البدناء مـع زوجاتهمٍ وأكياس التبضع تكدسـت فيها المواد الغذائية.

وعندما ترى هؤلاء الرجال الهزلى، فكّر في أبي.

ربما يكون حمال الريكشو بهيمة آدمية لنقل الأحمال الثقيلة، لكن أبي كان رجلا لديه مشروع.

كنت أنا مشروعه.

ذات يــوم فقد أبــي أعصابه وبدأ يصرخ بالنســاء. كان هذا في اليوم الذي أخبروه بأنني توقفت عن الذهاب إلى المدرســة. وقام بفعل شــيء لم يكن يجرؤ أن يفعله من قبل، لقد نهرَ جدتي كاسوم:

«كم من مرة قلت لكِ إن «مونّا» يجب أن يقرأ ويكتب!»

ارتعبــت كاســوم، ولكن للحظــة واحدة فقــط. وردت عليه صارخة:

«هذا الولد عاد إلى البيت تاركا مدرسته، لا تلمني! إنه جبان، ويأكل بكثرة. ضعهُ في محل الشاي ليعمل ويجني بعض المال».

عماتي وبنات أعمامي التففــن حولها. زحفتُ وراء ظهر أبي بينما كن يروين له حادثة جُبني.

الآن، ربمــا تجد أنه من غير المعقــول أن صبيا قرويا يخاف من ســحلية. الفئران، الأفاعي، القــردة، والنمس. أنا لا أنزعج أبــدا من أيٍ منها. بــل على العكس، أنا أحــب الحيوانات. لكن الســحاليٍ.. في كل مــرة أرى واحدة، بغض النظر عن حجمها الصغير، كأنني أتحول إلى فتاة، ويتجمد دمي.

كانت هناك خزانة ضخمة في الفصل، وكانت أبوابها مفتوحة بعض الشيء، لا أحد كان يعلم سبب وجودها هناك. وذات صباح، فُتح الباب محدثا صريرا، وقفزت منه سحلية إلى الخارج.

كان لونها أخضر باهتا، كثمرة جوافة نصف ناضجة. ولسانها

يرفرف داخل فمها وخارجه بالتوالي. كان طولها قدمين على أقل تقديـــر. بالكاد لاحظها الآخرون فـــي الفصل. إلى أن رآني أحد الأولاد. فاجتمعوا حولي على شكل دائرة.

اثنان منهم شبكا يدي وراء ظهري وثبتا رأسي عاليا. أحدهما أمسك ذلك الشيء بيديه، وطفق يسير نحوي بخطى بطيئة بشكل مبالـــغٍ فيه. دون أن يصـــدر منه أي صوت - ترفرف الســـحلية بلســـانها الأحمر خروجا ودخولا في فمها - اقتربت الســـحلية شـــيئا فشيئا نحو وجهي. تعالت الضحكات. لم يكن باستطاعتي أن أصدر أي صوت. وكان المدرس يشـــخِّر وراء مكتبه من خلفي. وصل وجه الســـحلية تماما إلى وجهي؛ ثم فتحت فمها الأخضر الباهت، بعد ذلك أُغمي عليَّ للمرة الثانية في حياتي.

ومنذ ذلك اليوم لم أعد إلى المدرسة.

لم يضحك أبي حين استمع للحادثة. أخذ نفسا عميقا؛ شعرت بصدره يتمدد نحوي.

«لقد جعلت كيشـــان يترك المدرســـة، ولكني قلت لك إن هذا الولد يجب أن يبقى في المدرسة» والدته قالت.

صاحت كوســـوم: «أوه، لتذهـــب إلى الجحيـــم، والدته هذه! مجنونة! وهي ولله الحمد ميتة الآن. اســـتمع إليَّ الآن: دع الولد يذهب إلى محل الشاي مثل كيشان، فهذا ما أقوله أنا».

فـــي اليوم التالي أتى أبي معي إلى المدرســـة، للمرة الأُولى والأخيرة. كان الوقت فجرا والمكان خاليا. دفعنا الباب فانفتح. امتلأ الفصل الدراســـي باللـــون الأزرق الخافت. حينها، كان معلمنـــا رجل البان وبصَّاقه قد صنع من بصاقه ورق جدران

منخفضا أحمر اللون علـــى ثلاثة من الجدران حولنا. عندما يخلد إلى النوم وقت القيلولة في فترة العصر، كنا نسرق البان من جيبـــه؛ نوزعه فيما بيننا ونمضغه، ثـــم نقلد طريقته في بصق البان على الحائط: اليدان على الوركين، الظهر مقوَّس قليـــلا، يأخـــذ كل واحدٍ منا دوره فـــي البصق على الجدران الثلاثة القذرة.

كانت صورة جدارية باهتة لـ «بوذا» محاطا بالغزلان والسناجب تزيـــن الجدار الرابـــع - كان الجدار الوحيد الذي قد ســـلم من بصاق المعلم. جلست السحلية العملاقة ذات اللون الشبيه بثمرة الجوافـــة نصف الناضجة أمـــام هذا الحائـــط، متظاهرة بأنها إحدى تلك الحيوانات التي كانت عند قدمي بوذا.

استدارت برأسها نحونا، رأيت عينيها تلمعان.

«هل هذا هو الوحش؟»

أدارت السحلية رأســـها من جانب إلى آخر بحثا عن مخرج. وطفقت تضرب بأرجلها على الحائط. لم تكن تختلف عني؛ لقد كانت خائفة.

«لا تقتلها، يا أبي، ألقِ بها خارج النافذة، أرجوك!»

كان المعلـــم مســـتلقيا في زاوية من الغرفـــة، تفوح منه رائحة الخمر، يشخِّر بصوتٍ عالٍ، بجانبه إناء الخمر الذي كان قد أفرغ كل محتواه منذ الليلة الماضية، التقط أبي الإناء.

هربت السحلية، فركض وراءها أبي، يقذفها بإناء الخمر.

«لا تقتلها، ياأبي أرجوك!»

لكنه لم يستمع إليّ. ركل الخزانة، فاندفعت السحلية خارجا،

ولحق بها مرة أخرى، يكسر كل شيء في طريقه، ويصرخ، «هيا! هيا!» سحقها بإناء الخمر إلى أن حطم الإناء. وكسر رقبة السحلية مع قبضته، وداس على رأسها بكل ما أوتي من قوة.

أصبح الهواء لاذعا، انتشرت فيه رائحة نتنة من اللحم المعصور. التقط أبي السحلية الميتة وقذف بها خارج الباب. جلس أبي لاهثا أمام الجدارية لصورة بوذا محاطا بالحيوانات الوديعة.

عندما التقط أنفاسه قال: «طوال حياتي، كنت أُعامَلُ كالحمار. كل الذي كنت أتمناه هو أن يعيش أحد أبنائي - أو على الأقل واحدٌ منهم - كرجل».

ظل المقصود من «يعيش كرجل» غامضا بالنسبة لي. ظننت أنه يعني أن تكون مثل فيجاي، محصل تذاكر الحافلة. تتوقف الحافلة لمدة نصف ساعة في لاكسمنغارا، والمسافرون يغادرونها، ومحصل التذاكر يخرج منها ليشرب قدحا من الشاي. كان ذلك الرجل هو الذي يحترمه الجميع، نحن الذين نعمل في محل الشاي. كنا معجبين بزيه الرسمي الكاكي اللون، وصفارته الفضية والخيط الأحمر المدلى من جيبه. كل ما يخصه يدل على أنه قد حصل على ما يريده من هذه الحياة.

كان أفراد عائلة فيجاي رعاة خنازير، وهذا يعني أنهم كانوا في أسفل الحضيض، ولكن على الرغم من ذلك، استطاع أن يرتقي في الحياة بطريقة أو بأخرى لأنه صادقَ رجلا سياسيا. يقول الناس إنه ارتضى لنفسه أن يضع السياسي منقاره في ظهره. قام بعمل أي شيءٍ ممكن عمله، كان أول مقاول أعرفه. الآن لديه وظيفة وصفارة فضية، وعندما يصفر بها - حين مغادرة

الحافلة - كل الأولاد فــي القرية يجن جنونهم ويركضون للحاق بالحافلة، يضربون على جوانبها، ويتوسلون إليه لأجل أن يركبوا الحافلة مع الركاب. كنت أود أن أكون مثل فيجاي - بزي رسمي، وراتــب، وصفارة لامعة بصوت يخرق الأذن، والناس ينظُرون إليَّ بنظرات تقول: كم يبدو هذا الرجل مهما!

إنها الثانية صباحا، السيد رئيس الوزراء. عليَّ بعد قليل أن أتوقف لهــذه الليلة. دعني أتتبع بإصبعي على شاشـــة الكمبيوتر المحمول، لأرى إن كانت هناك أي معلومة أخرى مفيدة أو ذات أهمية.

تاركا بعض التفاصيل غير المهمة. ..

..في منطقة داولا كوان من نيو دلهي، ليلة ٢ سبتمبر، بالقرب من آي تي سي موريا فندق شيراتون. ..

الآن، هذا الفندق، الشيراتون، هو الأفخم في دلهي، لم أدخله قط، ولكنه المكان الذي كان يقضي فيه رئيســي السابق، السيد آشوك، آخر الليل للشرب. يوجد مطعم في السرداب يفترض أن يكون فاخرا. عليك أن تزوره إذا سنحت لك الفرصة.

الرجل المطلوب كان يعمل كسـائق سيارة لمركبة هوندا سيتي في وقـت الحادث المعني. سُـجِّلت في هذا الصـدد قضية رقم، أف آي آر ٠٥/٤٣٨، بـي إس داولا كـوان، دلهي. كما يُعتقَـد أن بحوزته حقيبة تحتوي على مبلغ معين من النقود.

كان عليهــم أن يقولوا حقيبة حمــراء اللون. بدون ذكر اللون، تكــون المعلومة كلها عديمة الفائدة، أليس كذلك؟ لا عجب أنه لم يستطع أي أحدٍ التعرف عليَّ.

مقــدار معين من الأمــوال النقدية. افتــح أي صحيفة يومية

في هذا البلد، فستجد هذا الهراء: «إن جماعة ما ذات مصلحة معينة قد نشرت الإشاعات»، أو «إن جماعة دينية معينة لا تؤمن بمنع الحمل». إنني أكره هذا.

سبعمائة ألف روبية.

كان هذا هو المبلغ المحشور في الحقيبة الحمراء، وثق بأن الشرطة تعلم هذا أيضا. ترى كم يكون هذا المبلغ بالنقود الصينية، أنا لا أعلم، سيد جياباو. لكنها سعر عشرة حاسبات آلية محمولة فضية اللون ماركة ماكنتوش من سنغافورة.

ليس هناك ذكرٌ لمدرستي في الملصق، سيدي، هذا هو العار بعينه. عليك دائما ذكر الحالة التعليمية للشخص عند وصفه. كان عليهم قول شيء مثل: المشتبه به قد تعلم بمدرسةٍ مع سحلية طولها قدمان ذات لون أخضر باهت كثمرة الجوافة نصف الناضجة تختبئ في خزانة الفصل...

إن تكن القرية الهندية كالجنة، فالمدرسة هي جنة داخل جنة. كان من المفترض أن يُعطى لنا طعام في المدرسة - حسب البرنامج الحكومي، يُعطى لكل تلميذ في فرصة الطعام ثلاث قطع من الخبز، والعدس الأصفر، وقطعة مخلل في فرصة الغداء. لكن لم نر هذا الخبز أو العدس الأصفر، أو المخلل، وجميعنا يعلم السبب، لقد سرق المعلم النقود المخصصة لغدائنا.

كان للمعلم عذرٌ منطقي لسرقة نقودنا، قال إنه لم يتسلم راتبه الشهري منذ ستة أشهر. وهو على وشك أن يتخذ احتجاجا على نمط غاندي لحين الحصول على أجره، كان قد نوى ألا يقوم بأي عمل في الفصل حتى تصله نقوده بالبريد. مع ذلك كان يرتعب

مـــن احتمال فقده لوظيفته، لأنه بالرغم من أن المردود المادي من أي وظيفة حكومية ضئيل، فإن مزاياها الأُخرى عديدة. ذات مرة أتت شاحنة إلى المدرســـة تحمل الزي المدرسي المرسل إلينا من قبل الحكومة؛ لم نر أيا منها قط، ولكن بعد أســـبوع واحد كانت هذه الملابس معروضة للبيع في القرية المجاورة.

لمـــاذا يلام المعلم على مـــا فعل؟ إنك لا تتوقع من رجل انغمس فـــي كومة روث أن تكون رائحته زكية. كل واحدٍ في القرية يعرف أنه ســـيفعل الشيء نفسه لو كان في وضعه. حتى إن بعضهم كان يفتخر به، كونه خرج مما فعله دون أدنى مشكلة.

في صباح يـــوم كان هناك رجل يرتدي بذلة لم أر أجمل منها فـــي حياتي، كانتً ســـفاري زرقاء مثيرة للإعجـــاب أكثر من زي قاطع تذاكر الحافلة، أتى ســـيرا على الأقدام إلى الطريق المؤدية إلى المدرســـة. تجمَّعنا عند الباب لنمعن فـــي النظر إلى بذلته. وكانـــت بيده عصا، بدأ يلوح بها عندمـــا رآنا عند الباب. هرعنا إلى داخل الفصل وجلسنا والكتب في حوزتنا.

لقد كان هذا تفتيشا مفاجئا.

أشـــار الرجل ذو البذلة السفاري الزرقاء - المفتش - بعصاه إلى الثقوب في الحائط، أو اللطخات الحمراء، بينما انكمش المعلم على نفسه من الخوف وأخذ يردد: « آسف يا سيدي، آسف يا سيدي».

« لا ممسحة سبورة في هذا الفصل، لا كراسي، لا زي مدرسيا يجب أن يلبسه الأولاد. كم من النقود قد سرقت من مصاريف المدرسة؟»

كتب المفتش أربعة جملٍ على السبورة وأشار إلى أحد الأولاد: «اقرأ»

يقف واحد بعد الآخر ويرمش بعينيه نحو الحائط.

قال المعلم: «جرب بالرام، سيدي،». إنه أكثرهم ذكاء. إنه يقرأ جيدا».

لذا وقفت، وقــرأت، « نحن نعيش في بلدٍ مجيد. اســتوحى بــوذا التنوير من هذه الأرض. نهر الغانجــا يمنح الحياة لزرعنا وحيواناتنا وشعبنا. نحن ممنونون لربنا بأننا قد ولِدنا على هذه الأرض».

«جيد،» قال المفتش. « ومن يكون بوذا؟»

«إنه رجلٌ مستنير».

«إنه إله مستنير».

«عفوا، سيد جياباو، نَسيت! ستة وثلاثون مليون وخمسة - - !»

جعلني المفتش أكتب اسمي على السبورة؛ ثم أراني ساعة يده وســألني أن أقرأ الوقت عليها، سحب محفظة نقوده، استلَّ منها صورة صغيرة، وســألني: «من يكون هذا الرجــل، ومن هو أهم إنسان في كل حياتنا؟»

كانــت الصورة لرجل ممتلئ ذي شــعرٍ أبيض شــائك متورم الخديــن، يلبس قرطين ثقيلــين من الذهبٍ؛ ووجهه يشــع ذكاء وطيبة.

« إنه الاشتراكي الكبير».

«حسنٌ، وما هي رسالة الاشتراكي الكبير للأطفال الصغار؟»

كنــت قد رأيــت الإجابة على الجدار خــارج المعبد: كان أحد رجال الشرطة قد كتبه بالصبغة الحمراء.

«أي صبي في أي قرية يمكنه أن ينشأ ليصبح رئيس وزراء الهند.

هذه هي رسالته إلى كل الأطفال الصغار على هذه الأرض».

أشـــار المفتش إليَّ بعصاه مباشرة. «أنت، أيها الصبي اليافع، ذكـــيٌّ، وصادقٌ، مفعم بالنشـــاط في وســـط هؤلاء الســـفاحين والأغبيـــاء. قل لي مـــا هو الحيوان الأكثر نـــدرة - ذلك المخلوق الذي يأتي مرة واحدة خلال جيل كامل؟»

فكرت في السؤال وقلت:

«النمر الأبيض».

«هذا ما تكونه أنت، في هذه الغابة».

وقبل أن يغادر المفتش الفصل قال: «ســـوف أكتب إلى باتنا[11] لكي يمنحوك بعثة دراســـية. أنت بحاجة للذهاب إلى مدرســـة حقيقية، في مكانٍ ما بعيدا عن هنا. أنت بحاجة إلى زيٍ مدرسـي حقيقي وتعليم حقيقي».

كان لي منه هديـــة وداع - كتاب. أتذكر عنوانه جيدا: دروس من حياة غاندي للأطفال الصغار.

هكذا إذن أصبحت النمر الأبيض. ســـوف يكون لي اســـمٌ رابع وخامس أيضا، سآتي عليه ولكن لاحقا عند سردي لبقية قصتي.

الآن، بعـــد مديح مفتش المدرســـة لي أمـــام المعلم والتلاميذ، وبعد إطلاق اســـم «النمر الأبيض» علـــيَّ، وإعطائي كتابا، ووعد بالحصول على بعثة دراســـية: كل هذا كان بمثابة أخبار ســـارة، ولكن قانون الحياة في «الظلام» والذي لا يقبل بخطأ، هو أن كل خبر سار سرعان ما يقابله خبر سيئ.

ارتبطـــت ابنـــة عمتي، رينا بفتـــى من القريـــة الأخرى. فقد

---

(١١) باتنا: عاصمة بيهار إحدى ولايات الهند، تقع في الجزء الشرقي من البلاد.

استغلتنا عائلة الفتى كوننا عائلة الفتاة. فطلبوا منا أن نمنح الفتى دراجة هوائية، ومبلغا من المال، ومعصما من الفضة، ونعدُّ حفل زفاف كبيرا، وهذا ما قمنا به. السيد رئيس الوزراء، ربما تعلم كيف نحن الهنود نستمتع بأعراسنا، أعتقد أنه في هذه الأيام صار الناس يأتون من بلدانٍ أخرى ليقيموا أعراسهم وفق النمط الهندي لحفلات الزفافٍ. أوه، كان بإمكاننا أن نعلّم الأجانب بعض الأشياء، سأخبرك عن ماهيتها فيما بعد! أما في حفل زفاف ابنة عمتي فكانت أغاني الأفلام تصدح من المسجلات الصوتية السوداء بصخب، والناس يشربون ويرقصون طوال الليل! لقد تكسّرتُ من كثرة الرقص، وكذا أخي كيشان، كما الآخرون من عائلتي، وحسب علمي، من المحتمل أنهم صبوا الخمر الرديء في جرة جاموسة الماء.

مر يومان أو ثلاثة. كنت جالسا في خلف الفصل وبيدي اللوح الأسود والطبشور الذي أحضره لي أبي حين عاد من إحدى رحلاته إلى دانباد، كنت أتعلم الحروف الأبجدية بنفسي. كان الأولاد يثرثرون أو يتعاركون. والمعلم مغمى عليه.

رأيت كيشان واقفا عند باب الفصل. أشار إليَّ بأصابعه.

«ما الأمر كيشان؟ هل سنذهب إلى مكانٍ ما؟»

ظل صامتا.

«هل آخذ كتابي معي؟ وكذلك الطبشور؟

قال: «لم لا؟» وبعد ذلك قادني إلى خارج الفصل ويده على رأسي.

لقد أخذت العائلة قرضا من «اللقلق» لكي يقيموا حفل زفاف

فخما ودفع مهر معتبر لابنة العمة. والآن يطالب «اللقلق» بسداد القرض. يريد أن يعمل جميع أفراد العائلة لديه وقد رآني هو أو مساعده في المدرسة، لذا عليهم أن يسلموني له.

أخذوني إلى محل الشاي. طوى يديه كيشان وركع أمام صاحب الدكان. وفعلت أنا الآخر الشيء ذاته.

«من يكون هذا؟» نظر إليَّ صاحب المحل شزرا.

كان جالسا تحت صورة كبيرة للمهاتما غاندي، وعرفت حينها أنني سوف أواجه مشكلة عويصة.

أجاب كيشان: «إنه أخي». لقد جاء ليعمل معي».

ثم سحب الموقد المتنقل خارج المقهى وطلب مني أن أجلس. جلست بجواره. أحضرَ كيسا من الخيش؛ بداخله كمية هائلة من الفحم. أخرجَ قطعة من الفحم، وقام بتكسيرها على قطعة آجر، ومن ثم سكب القطع المهشمة في الفرن.

«بشدة أكثر، بشدة أكثر».

وأخيرا نفَّذت المهمة بصورتها الصحيحة - كسرت الفحم على قطعة الآجر. نهض وقال: «الآن اكسر بقية الفحم بهذه الطريقة».

بعد قليل، أتى اثنان من أولاد المدرسة ليشاهداني وأنا أقوم بهذا العمل. ثم أتى اثنان آخران؛ وآخران غيرهما. سمعت ضحكات.

«ما هو المخلوق الذي يأتي مرة فقط في الجيل الواحد؟» أحد الأولاد قهقه بصوت عال.

«كاسر الفحم،» أجابه آخر.

ثم ضحك الجميع.

قال لي كيشـــان: «تجاهلهم، ســـوف يذهبون في سبيلهم من تلقاء أنفسهم».

نظـــر إليَّ: «أنـــت غاضبٌ مني لأنني أخرجتُك من المدرســـة، أليس كذلك؟».

لم أقل شيئا.

«أنت تكره مجرد فكرة كسر الفحم، أليس كذلك؟».

لم أقل شيئا.

أخـــذ أكبر قطعة من الفحم وعصرهـــا بين يديه. «تخيل إذن أن كل قطعـــة من الفحم هي جمجمتي: ســـيكون كســـرها أكثر سهولة».

لقد أُخْرِج هو أيضا من المدرســـة. حصل ذلك بعد زفاف ابنة العمة ميرا، وقد ترك هذا غصة لديه هو الآخر.

* * *

العمل في المقهى. كســـر الفحم. ومسح الطاولات. أنباءٌ غير سارة بالنسبة إليّ، أهذا ما تقوله؟

إن خرق قوانين بلاده وتحويل الأخبار غير الســـارة إلى أخبار سارة، هي الامتيازات التي بحوزة المقاول.

غدا، يا ســـيد جياباو، ســـوف أبتدئ مرة أخرى في منتصف الليل لأقول لك كيف منحتُ نفســـي تعليما أفضل في المقهى من أي تعليم آخر كنـــت ســـأحصل عليه في أي مدرســـة كـــانت. الآن، علـــى أي حال، حان الوقت للتوقـــف عن التحديق في هذه الثريا والعودة إلى العمل. إنها تقريبا الثالثة صباحا. الوقت الذي تدب فيـــه الحياة في بانغلور. فقد انتهى يـــوم العمل الأمريكي،

ويومـــي أنا يبتدئ ويجـــد. عليَّ أن أكون يقظا فـــي الوقت الذي يترك موظفو وموظفات مركز الاتصالات مكاتبهم ويتوجهون إلى بيوتهم. إنه الوقت الذي يجب أن أكون فيه بالقرب من الهاتف.

لا أحمل الهاتف النقّال، لأسبابٍ واضحة - يتلف دماغ الرجل، ويجفف حيواناته المنوية، كما يعلم جميعنا - لذا عليَّ أن أبقى في المكتب. فقد يحدث أي طارئ.

إنني الرجل الذي يهاتفه الناس في حالة الأزمات.

دعني أر بسرعة إن كان هناك أي شيء آخر. ..

... أي شـــخص لديـه أي معلومـــات أو دليـــل على هذا الرجـل المشبوه لطفـا الإدلاء بالمعلومات لدى موقع الشـبكة ســي بـي آي «http://cbi.nic.in» البريـد الالكترونـي «diccbi@cbi.nic.in»، فاكس رقم ٢٣٠١١٣٣٤ -٠١١ ، تلفون رقم ٢٣٠١٤٠٤٦ - ٠١١ «مباشر» ٢٣٠١٥٢٢٩ -٠١١ و٢٣٠١٥٢١٨ -٠١١ داخلـي ٢١٠ وقيد معلوماتك علـى العنوان التالي أو رقم الهاتف أو الهواتف كما هو مبين في الأسفل.

DP ٣٦٧٨/٠٥

إس إتش أو - داولا كوان، نيو دلهي

هاتف: ٢٨٦٥٣٢٠٠، ٢٧٦٤١٠٠٠

في الإعلان المكتوب، صورة ضبابية، مســودّة، ملطخة بسبب الطابعة القديمة المســتخدمة في مركز الشرطة، بالكاد تستطيع أن تميزهـــا حتـــى عندما كانت على جدار محطـــة القطار، لكن الآن، نُقلـــت إلى شاشـــة الكمبيوتر، ونقصت شـــيئا من نقائها، فبدت كفكرة مجردة لوجه رجـــل: مخلوق ضئيل بعينين كبيرتين

جاحظتين وشـــارب كث. يمكن أن يشـــبه صاحب الصورة نصف الرجال في الهند.

الســـيد رئيس الوزراء، سوف أتركك هذه الليلة مع تعليق على القصور في عمل الشـــرطة في الهند. الآن، لا بد أن تكون حافلة ملؤهـــا رجال في زيهم الكاكي - إنها لقضية مثيرة بأي حالٍ من الأحوال - قد اتجهوا إلى لاكسمنغارا للتحـري عن اختفــائيً. لا بد أنهم اســـتجوبوا أصحاب الدكاكين، واستعرضوا بقوتهم أمام حمّالي الريكشـــو، وأيقظوا معلم المدرســـة. هل سرق عندما كان طفلا؟ هل عاشر بائعات الهوى؟ لا بد أنهم حطموا دكانا أو اثنين من دكاكين البقالة هناك، وانتزعوا «الاعترافات» عنوة من واحد أو اثنين.

مع ذلك أنا أراهنك على أنهم فاتتهم أهم جزئية على الإطلاق لاقتفاء أثري، والذي كان أمام أعينهم:

أنا أقصد القلعة السوداء، طبعا.

توسلتُ إلى كاسوم مرات عدة أن تأخذني إلى أعلى الهضبة، إلـــى داخل القلعة عبر الممر المؤدي إلى المدخل. لكنها كانت تقول إننـــي جبان، ســـوف أمـوت من الخـوف لو ذهبـــت إلى هنـــاك: إن ســـحلية مهيبة، هي أكبر سحلية في العالم، تسكن هناك في القلعة.

لـــذا كان بمقدوري فقط أن أشـــاهدها من بُعد فقط. الحفر الطويلـــة اللولبية فـــي جدرانها كانت تتحـــول خطوطا من اللون الوردي المشـــتعل عند الشـــروق والذهبي عند الغروب؛ والسماء الزرقاء تتألق بين الفجوات وشقوق الصخور، بينما يتلألأ القمر

على نتوءات المتاريس، والقردة تركض بهياج فوق الجدران، تصيح ويهاجم بعضهـا بعضا، كأن أرواح المحاربـين الموتى تقمصتهم، ليحاربوا مرة ثانية معركتهم الأخيرة.

كنت أود أن أذهب إلى هناك أيضا.

إقبال، الذي هو أحد أفضل أربعة شعراء في العالم - والآخرون هم رومي، ميرزا غالب، والشخص الرابع، مسلمٌ أيضا، قد نسيت اسمه - كتب قصيدة يذكر فيها هذا عن العبيد:

إنهم يبقون عبيدا لأنهم لا يستطيعون رؤية الجمال في هذا العالم.

إن هذا أصدق شيء يقوله أحدٌ على الإطلاق.

شاعرٌ عظيم، هذا الشخص إقبال - حتى لو كان مسلما.

«علـى فكرة، يا سـيد رئيـس الوزراء: هل لاحظـت أن جميع الشعراء الأربعة العظام في العالم هم مسلمون؟ ومع ذلك فإن كل المسلمين الذين تقابلهم أميون؟ أو قد غطوا من رأسهم إلى أخمس قدميهم بالبراقع السوداء أو أنهم يبحثون عن مبان ليفجرونها؟ يا لـه من لغز، أليس كذلك؟ إذا فهمت في أي وقت كنه هؤلاء الناس فابعث إلي برسالة إلكترونية»

حتى عندما كنت صبيا كان باسـتطاعتي أن أرى الجمال في العالم: لقد كان قدري ألا أبقى عبدا.

ذات مرة اكتشفت كاسـوم أمري وأمر القلعة. تعقبتني طوال الطريق من منزلنا إلى البركة ذات الأحجار، ورأت ما كنت أفعله. في تلـك الليلة أخبرت أبـي عني: «لقد وقف هناك مشـدوها بالقلعـة، كمـا اعتادت أمـه أن تفعل. لن يفلح في شـيء طوال حياته. خذها مني الآن».

عندما كنت ربما في الثالثة عشـــرة من عمري قررت الذهاب إلى القلعة بمفردي. خضتُ في البركة، حتى وصلت إلى الجانب الآخر، فتسـلقت الهضبة؛ كنت على وشـك الدخول إلى القلعة، تجسَّـد أمامي شيء أسـود في طريق الممر. اسـتدرت مسرعا وعدت أدراجي أسفل الهضبة. خفتُ بشدة إلى حد البكاء.

كانت مجرد بقرة لا غير. اسـتطعت أن أرى هذا من مسـافة بعيـدة، ولكني كنت قد ارتعدت من الخوف بشـدة، لذا لم أعد ثانية إلى هناك.

حاولـت مرات عديـدة، لكنني كنت جبانا لدرجـة أنني كلما حاولت الصعود، فقدت أعصابي وعدت أدراجي.

بعد سـن الرابعة والعشـرين، عندما كنـت أعيش في دانباد وأعمل في خدمة السـيد آشوك كسـائق، عدتُ إلى لاكسمنغارا حين ذهب سيدي وزوجته إلى هناك في نزهة. كانت رحلة مهمة جدا بالنسبة إليّ، رحلة أتمنى أن أصفها لك بتفصيل أدق عندما يتسـنى لي الوقت. أما في الوقت الحاضر، فكل ما أود أن أقوله لك هو: بينما كان السـيد آشـوك وبنكي مدام يسترخيان، بعد وجبة الغداء، لم يكن لدي ما أقوم به، فقررت أن أحاول الوصول إلـى القلعة ثانية. قطعت البركة سـباحة، وصعـدتُ إلى أعلى الهضبـة، وصلتُ إلى المدخـل، ودخلت القـلعة السـوداء للمـرة الأولـى. لم يكن هناك الشـيء الكثير - بعض الجدران المهدمة وزمرة من القردة المذعـورة تراقبني من بعد. نظرت إلى القرية من فوق المكان. واضعا قدمي على طرف الحائط. لاكسـمنغارا قريتي الصغيرة. رأيت برج المعبد، السـوق، خط المجاري اللامع،

قصور ملاك الأراضي وبيتي، تحت تلك الغيمة الصغيرة السوداء في الخارج، وجاموســـة الماء. كان يبـــدو كأجمل منظر على وجه الأرض.

انحنيت خارجا من طرف القلعة باتجاه قريتي، ثم قمت بفعل شيء مقرف لا أستطيع وصفه لك.

حســـنا، في الواقع، بصقتُ. مرة تلـــو الأخرى، ثم عدت نازلا وأنـــا أصفّر وأدندن. عدتُ نازلا من الهضبة. بعد ثمانية أشـــهر قمت بجز رقبة السيد آشوك.

الليلة الثانية

إلى مكتب:

معالي وِن جياباو

قد يكونُ الآن يغط في نومٍ عميق في

مكتب رئيس الوزراء

في الصين

من مكتب:

مُعلمه لمنتصف الليل خاصته لشؤون المقاولة:

«النمر الأبيض»

سيدي رئيس الوزراء.

أما بعد.

كيف تبدو ضحكتي؟

وكيف هي رائحة إبطي؟

وهل حقا أنني عندما أبتسم - حيث ستكون قادرا على التخيل الآن - تتسع شفتاي كفم الشيطان؟

أوه، إنني أستطيع أن أستمر بالحديث عن نفسي إلى ما لا نهاية، يا سيدي. في إمكاني أن أفتخر بأنني لست أي قاتل، بل ذلك الذي يقتل مستخدمه «الذي هو بمنزلة والد ثان»، وأيضا من المحتمل أن يكون قد تسبب في قتل جميع أفراد عائلته. وبشكل ما مرتكب جريمة قتل جماعي.

ولكنني لا أود التحدث عن نفسي إلى ما لا نهاية. عليك أن تستمع إلى أولئك المقاولين من بانغلور - كالقول إن انطلاقتي كانت سببا في حصولي على عقد تلك الصفقة مع الأمريكان إكسبرس، انطلاقتي شغَّلت البرمجيات في ذلك المستشفى في

لندن، إلـــى آخره. وأقول لك إنني أكره هـــذا الموقف البانغلوري الوقح.

«لكـــن إن كان فعلا عليك أن تعرف عنـــي أكثر، افتح موقعي الإلكتروني:

www.whitetiger-technologydrivers.com. هذا صحيح! إنه العنوان الرئيسي لموقعي على الإنترنت!»

فلقـــد أصبتُ بالغثيان من التحدث عن نفســـي، يا ســـيدي. والليلة بالذات، سأحدثك عن الرجل الآخر المهم في قصتي.

مستخدمي السابق

يظهر وجه الســـيد آشـــوك الآن في عين عقلـــي كما كان كل يوم عندما كنت ســـائقه ينعكس وجهه في مـــرآة الرؤية الخلفية للسًـــيارة. كان وجها وســـيما لدرجة أنني أحيانا لم أكن أستطيع أن أغـــض بصري عنه. تصور رجلا بطول ســـت أقدام، بأكتاف عريضة، وســـاعدين قويين كما يجب أن تكون ســـواعد الأسياد، القـــادرة على فرض العقاب ولكنها رقيقة على الدوام «فيما عدا المرة التي صفع فيها وجه بنكي مدام» كان طيبا مع المحيطين به، حتى مع خدمه وسائقه.

يظهر الآن وجهٌ آخـــر إلى جانبه في مرآة ذاكرتي. مدام بنكي - زوجتـــه. كل جزء فيها جميل مثل زوجهـــا؛ كما صورة الإلهة في معبد بيرلا الهندوســـي في نيودلهي، جميلة كالإله الذي تزوَّجته. كانت تجلس في الخلف، ويتحدث الاثنان، وأنا أقود إلى أي مكان يريدانه، بإخلاص خادم الإله هانومان عند حمله لسيده وسيدته، رام وسيتا.

التفكير في السيد آشوك يثير مشاعري، أود لو كان لدي بعض المناديل الورقية هنا في مكانٍ ما.

هناك واقع غريب ينتابك: أنت تقتل رجلا، ومن ثم تشعر بالمسؤولية عن حياته أو حتى بالتملك. تعرف عنه أكثر من أمه وأبيه؛ هم يعرفون نطفته، لكن أنت تعرف جثته. أنت وحدك تستطيع أن تكمل قصة حياته، أنت فقط تعرف لماذا يجب أن تدفع جثته إلى النار قبل أوانها، ولماذا تلتوي أصابع رجليه تحارب من أجل البقاء على هذه الأرض لساعة أخرى.

الآن، على الرغم من أنني قتلته، فإنك لن تجدني أقول شيئا واحدا مشينا عنه. لقد حميت سمعته الحسنة حين كنت خادمه، والآن حيث إنني نوعا ما سيده، لن أتوقف عن حماية سمعته الحسنة. إني مدين له بالكثير. يجلس هو وبنكي مدام في المقعد الخلفي للسيارة، يتحدثان عن الحياة، عن الهند، عن أمريكا - مازجين اللغة الهندوستانية مع الإنجليزية - وعن طريق الاستماع لهم، تعلمت الكثير عن الحياة، عن الهند، وأمريكا، وقليل من الإنجليزية أيضا. «ربما أكثر بقليل مما بحت به إليك حتى الآن!» في الحقيقة لقد اقتبست الكثير من أمهات أفكاري، من مستخدمي السابق أو من أخيه أو من شخص آخر له علاقة به. «أنا أعترف، يا سيد رئيس الوزراء: لستُ مفكرا أصيلا، ولكني مستمع أصيل». صحيح، أنه في نهاية الأمر كنت أنا والسيد آشوك لا نتفق على مصطلح إنجليزي مِثل «ضريبة الدخل». وبدت الأمور تفسد فيما بيننا، ولكن ستأتي هذه الأمور المتشابكة لاحقا في القصة بشكلٍ أفضل. آنذاك، كنت والسيد

آشـوك على أفضل حال: كنا قد تقابلنا لفورنا، بعيدا عن دلهي، في مدينة تدعى دهانباد.

أتيت إلى دهانباد بعد وفاة أبي. كان أبي مريضا لبعض الوقت، لكن لم يكن هناك أي مستشفى في لاكسمنغارا لعلاجه، بالرغم من وجود ثلاثة أحجار أساس للمستشفى، وضعت بواسطة ثلاثة سياسـيين مختلفين قبل ثلاثة انتخابات مضت. عندما بدأ أبي يبصق دما ذات صباح، أخذناه أنا وكيشـان في قاربٍ عبر النهر. كنا نغسـل فمه بمياه من النهر، لكن المياه كانت ملوثة إلى درجة جعلته يبصق مزيدا من الدم.

كان هناك على الضفة الأخرى من النهر حمَّال ريكشـو تعرَّف على أبي، أخَذَنا نحن الثلاثة إلى المستشفى الحكومي بلا مقابل.

كانت هناك ثلاث عنزاتٍ سـوداء جاثمة على درجات السـلم المؤديـة إلى المبنـى الكبيرٌ الأبيض الباهت كانـت تفوح الرائحة الكريهة لفضلات العنزات عبر الباب المفتوح. معظم الزجاج على نوافذ المبنى كان مكسـورا؛ ومن خلال إحدى النوافذ المكسـورة كانت هناك قطة تحدق فينا.

على باب المبنى لافتة تقول:

مستشفى لوهيا العالمي المجاني

افتتحها بكل فخر الاشتراكي الكبير

كبرهانٍ مقدس على وفائه بوعوده

حملنا أنا وكيشـان أبـي إلى الداخل، بينمـا كنا ندوس على فضـلات العنـزات المنتشـرة على الأرض كالنجـوم السـوداء. لم يكن هناك أي طبيبٍ في المستشفى. قال حارس الجناح، بعد أن

أعطيناه عشـــر روبيات كرشوة: «ربما يأتي طبيب ما في المساء». كانت أبواب حجرات المستشفى مفتوحة على مصراعيها. الأسرة يطفر منهــا الزنبرك في كل اتجاه، والقطة بــدأت تزمجر منذ اللحظة التي وطئت فيها أقدامنا الحجرة.

«إن هذه الغرف غير آمنة، لقد تذوقت هذه القطة الدماء».

اثنان من الرجال المســلمين قد فرشــا صحيفة على الأرض. دعانا الذي كان في ســاقه جرح مفتــوح للجلوس معه وصديقه. أنزلنا أنا وكيشان أبي على أوراق الصحف. وانتظرنا هناك.

فتاتان أقبلتا وجلستا خلفنا، كانت عينا كلتيهما صفراوين.

«اليرقان. هي التي قد نقلت العدوى إليَّ».

«لا، لم أفعل. أنتِ التي أعطيتني إياه. والآن كلانا سيموت!».

أتى رجلٌ عجوز يضع قطنا على إحدى عينيه وجلس خلف الفتاتين.

اســتمر الرجلان المســلمان في إضافة أوراق الصحف على الأرض، وبدأ طابور العيــون المريضة والجروح المفتوحة والأفواه المحمومة يزداد.

«لم لا يوجد طبيب هنا يا عم؟ استفسرت. «إنه المشفى الوحيد على ضفتي النهر».

قال الرجل المســلم الأكبر عمرا: «انظر، إن الأمور تسير بهذا الشكل، هناك المشرف الطبي للحكومة الذي من المطلوب منه أن يتأكد إن كان الأطباء يزورون مشــافي القرى كهذه. وفي كل مرة يكون هذا المنصب شــاغرا، يُعْلِم الاشــتراكي الكبير كل الأطباء الكبــار بوجود مزاد علني مفتوح على هذا المنصب. إن قيمة هذا المنصب هذه الأيام هي أربعمائة ألف روبية تقريبا».

«كل هذا!» قلت هذا وقد انفتح فمي واسعا.

«لـم لا؟ هناك مقدار لا بأس به من المال في مجال الخدمات العامة! تخيَّل الآن أنني طبيب أســتجدي وأقترض المال، ومن ثم أعطيها للاشــتراكي الكبير لامســا قدميه. سيعطيني الوظيفة. سأُقســم بالله وبدســتور الهند وبعد أن يعطيني الوظيفة أضع حذائي بشموخٍ فوق مكتبي في عاصمة الدولة». رَفعَ قدميه على طاولة وهمية. بعد ذلك، أستدعي كل الأطباء الحكوميين الصغار، الذين عليَّ مراقبتهم إلى مكتبي وأُخرِج السجِل الحكومي الكبير. أنادي: «دكتور رام باندي».

أشار إليَّ بإصبعه؛ وتقمصت دور الطبيب في المسرحية.

قمت بأداء التحية: «نعم، سيدي!».

مد لي بكفه.

«الآن، أنــت - دكتــور رام باندي - هل مــن الممكن رجاء أن تضع ثلث راتبك في كفي. فتى مطيع. في المقابل ســأفعل هذا. «وضع علامة مقبول أمام الاســم في السجل الحكومي الوهمي. هكذا تســتطيع أن تحتفظ ببقية راتبك الحكومي وتذهب لتعمل في بعض المشــافي الخاصة بقية الأسبوع. دع عنك القرية. لأنه وفق هذا السجل أنت موجود في القرية. أنت قد عالجت ساقي المجروحــة. أنت قد عالجت مــرض اليرقان الــذي تعانيه تلك الفتاة».

«آه» ردد المرضــى. حتى عمال الجنــاح الذين تجمعوا حولنا ليســتمعوا، كانوا يهزون رؤوســهم بإعجاب. إن أحاديث الفساد والتعفن هي دائما أمتع الأحاديث، أليس كذلك؟

عندما وضع كيشــان بعض الطعام في فم أبــي، بصقه مع الدم. بدأ يتقيأ الدم هنا وهناك مع تشــنج جســده الأسود النحيل. وبدأت الفتاتان ذواتا العيون الصفراء تنتحبان. ابتعد بقية المرضى عن أبي.

«إنه يعاني الســل، أليس كذلك؟» ســأل الرجل المسلم الأكبر عمرا، وهو يهش الذباب عن الجرح الذي في ساقه.

«لا نعرف، يا سيدي. فهو كان يسعل منذ فترة، لكننا لم نعرف ما به».

«أوه، إنه السل. لقد رأيت هذا بين حمَّالي الريكشو. إن الوهن يصيبهم بسبب عملهم. حسنا، ربما يأتي الطبيب هذا المساء».

لم يأتِ الطبيب. نحو الساعة السادسة مساء من ذلك اليوم، وكمــا دون بكل دِقة في الســجل الحكومي، فــإن أبي قد تعافى بشــكل دائم من السل. جعلنا عمال الجناح ننظف المكان قبل أن يسمح لنا بإزالة جثة أبي. دخلت عنزة تشمشم بينما نغسل الدم مــن الأرض. لاطفها عمال الجناح وأعطوهــا جزرة كبيرة بينما نحن نمسح دم أبينا الملوث عن المكان.

كان زواج كيشان بعد شهرٍ واحد من حرق جثمان أبي.

يُعتبر زواجه من الزيجاتً الجيــدة. والعريس منا، ولذا قمنا بالضغــط على عائلة الفتاة. أتذكَّــر بالضبط المهر الذي حصلنا عليه من أســرة الفتاة. إن مجرد التفكير في المبلغ يجعل اللعاب يســيل من فمي: خمســة آلاف روبية نقدا، جميــع تلك الأوراق النقدية الغضة الجديدة لم يلمســها أحدٌ مــن قبل، طازجة قد خرجــت لفورها من البنك، بالإضافة إلــى دراجة هوائية ماركة هيرو، وأيضا قلادة ذهبية ثقيلة لكيشان.

بعد الزفاف، استولت الجدة كاسوم على الخمسة آلاف روبية، ودراجة الهيرو، والقلادة الذهبية العريضة، كان لدى كيشان أسبوعان ليغرز منقاره في ظهر زوجته، وبعدها حزم أمتعته ورحل إلى دهانباد. ابن عمي ديليب وأنا رافقناه إلى دهانباد. وهناك وجدنا نحن الثلاثة عملا في محل الشاي. كان صاحب الدكان قد سمع أخبارا طيبة عن أداء كيشان في محل الشاي في لاكشامنغهر.

لحسن حظنا، لم يكن قد سمع أي شيءٍ مشين عني.

اذهب سيدي، لأي دكان شاي على امتداد غانجا، انظر إلى الرجال الذين يعملون في دكاكين الشاي - رجال، أنا أقول رجال، الأفضل أن تقول عناكب بشرية تزحف بين الطاولات وتحتها وبأيديهم خرَق المسح، أناسٌ محطمون في زي مهلهل، تعلوهم الوساخة، بوجوه غير حليقة، في الثلاثينيات أو الأربعينيات أو الخمسينيات من أعمارهم، ولكن مازالوا «صبيان». هذا هو قدرك إن أتقنت عملك بأمانة وإخلاص، ومثابرة، بالطريقة نفسها التي كان سيقوم بها غاندي، لا شك في ذلك.

لقد قمت بعملي بالخداع والتحايل وعدم التفاني. لذلك كان محل الشاي بالنسبة إلي خبرة جد غنية.

بدلا من مسح البقع من الطاولات وكسر قطع الفحم للفرن، استخدمت وقتي في محل الشاي في لاكشامنغهر بالتجسس على الزبائن على كل طاولة، واستراق السمع لكل ما يقولونه. قررت في قرارة نفسي أن هذه هي الطريقة التي تجعلني أحافظ على استمرارية تعليمي وهذا هو الشيء الجيد الذي سأستمر

فـــي ترديده لنفســـي. لقد كنت دائما مؤمنـــا بالتعليم، خصوصا تعليمي أنا.

جلس صاحب الدكان في المقدمة، تحت صورة كبيرة لغاندي، كان يحرك قطر الســـكر الذي كان يغلي ببطء. كان يعلم ما كنت أنوي القيام به كلما رآني أتســـكع بين الطاولات أو أتظاهر بأني أنظف بقعة ما، لكي أسمع أكثر من الحديث الدائر بين الزبائن، كان يصيح بي: «أيها البلطجي!» ويقفز من مقعده ويلاحقني حول محل الشـــاي مع المغرفة التي كان يستعملها في تحريك السكر. يضربني بها على رأســـي. وكان القطر الســـاخن يوشمني أينما تلامســـني المغرفة، وتترك آثارا واضحة على أُذني فيظن الناس أنه البهاق أو أي مرض جلدي آخر؛ مازالت شـــبكة خطوطٍ من اللون الوردي على جســـمي، ومن الممكن التعرف عليَّ بواسطتها، ولكن على الرغم من ذلك فإن الشرطة لم تتنبه لها.

فـــي النهاية أُرسِـــلتُ ثانية إلى بلدتي. ولـــم يرغب أحدٌ آخر في اســـتخدامي في لاكشـــامنغهر بعد ذلك، ولا حتى كأجيرٍ في الحقل. لذا كان قرار كيشان وديليب أن يأتيا إلى دهانباد هوَ في الأغلب لأجلي أنا، لكي يعطوني الفرصة لأنطلق إلى مســـتقبلي كعنكبوتٍ بشري من جديد.

في رحلته من القرية إلى المدينة، من لاكشـــامنغهر إلى دلهي، يمر مســـار المقاول عبر عـــددٍ من البلدات القرويـــة التي تعاني التلـــوث، والأصـــوات المزعجة، والازدحام المـــروري الموجودة في المدن الكبيرة، إنها مناطق من دون أدنى شـــيء يشير إلى الحس التاريخي للمدينـــة، أو إلى التخطيط أو الفخامة. إنها من المدن

نصف المخبوزة، بُنيت لأجل أنصاف الناضجين من الرجال.

كان هنـــاك ما ينم عن الثروة في دهانبـــاد. رأيت مباني ذات زوايا مكســـوة بالكامل بالزجاج، ورجالا بأسنان يكسوها الذهب. وكل هـــذا الزجـــاج والذهب كل هذا قد أتى مـــن مناجم الفحم، كان الفحـــم موجودا بكثرة خـــارج المدينة، أكثر من أي مكان آخر فـــي «الظـــلام»، ربما أكثر حتـــى من أي مكان آخر فـــي العالم. يأتي عمَّال المناجم ليأكلوا في محل الشـــاي خاصتي، كنت دائما أخدمهم بأفضل وجـــه، لأنهم كانوا دائما يملكون أفضل الحكايا لإخباري بها.

قالوا إن مناجم الفحم قد امتدت أميالا وأميالا خارج المدينة. فـــي بعض الأماكن كانت هناك نيران تحترق تحت الأرض وتبعث بدخانها في الجو، نيران كانت تستعر باستمرار لمائة عام!

في هذه المدينة التي بُنيت بفضل وجود الفحم تغيَّرت حياتي، ومن خلال عملي في مســـح الطاولات، والتسكع لاستراق السمع إلى حديث الزبائن، سمعت:

«أنـــت تعلم، أنـــه أحيانا كنت أعتقد أننـــي اقترفت خطأ في حياتي حين أصبحت عامل منجم».

«إذن؟ مـــا الـــذي يمكـــن لأناسٍ مثلـــك ومثلـــي أن يصبحوا؟ سياسيين؟

«كل واحد لديه سيارة هذه الأيام، أتعلم ما المبلغ الذي يدفعونه لسائقيهم؟ ألف وسبعمائة روبية شهريا!

رميت خرقتي. وجريت نحو كيشـــان، الذي كان ينظف الجزء الداخلي من الفرن.

بعد موت أبي، كان كيشان هو الذي يعتني بي. أنا لا أحاول أن أخفي عنك دوره في مساعدتي كي أكون من أنا عليه اليوم. لكن لم تكن لديه مهارة المقاولة بتاتا. كان سيُسعده أن يراني غارقا في الوحل.

«ليس هناك من عمل آخر» قال كيشان. «الجدة قالت: اعمل في محل الشاي وسنبقى في محل الشاي».

ذهبت يومها إلى مواقف سيارات الأُجرة؛ ركعتُ متوسلا أمام الغرباء العابرين؛ لكن ما من أحد منهم وافق أن يعلمني القيادة من دون مقابل. كان عليَّ أن أدفع ثلاثمائة روبية لكي أتعلم قيادة السيارة.

ثلاثمائة روبية!

اليوم، في بانغلور، ليس بمقدوري الحصول على موظفين للعمل في مشروعيَ التجاري. أناسٌ يأتون ويذهبون. ولكن الناس الجيدين لا يستمرون. حتى أنني قررتُ أن أنشر إعلانا في الصحف.

رجل أعمال مقيم في بانغلور يطلب رجالا أذكياء للعمل في مشروعه التجاري

قدِّم طلبك في الحال!

رزمة من المكافآت المجزية مع عرض بالمجان لتعليم دروس في الحياة والمقاولة!

اذهب بآذان صاغية إلى حانة أو بار في بانغلور، ستسمع الشيء نفسه: لا نستطيع الحصول على كفايتنا من العاملين في مراكز الاتصال، لا يتوافر عدد كاف من مهندسي البرمجيات،

لا يمكننا الحصول على مديري مبيعات. هناك عشرون، أو خمس وعشرون صفحة من الإعلانات في الصحف كل أسبوع.

الأمور هنا في «الظلام» مختلفة. هناك عشــرات الآلاف من الشباب يجلسون صباح كل يوم في محل الشاي، يقرأون الصحف، أو يســتلقون على أرائك التشارتشــوبي[١٢] يدندنون الألحان، أو يجلسون في غُرفهم يحادثون صورة ممثلة سينمائية. ليس لديهم أي مهنــة اليوم. يعرفون تماما أنهم لن يحصلوا على عملٍ اليوم. فقد تخلَّوا عن الصراع.

إنهم الأذكياء.

الأغبياء هم الذين يجتمعون في حقلٍ وســط البلدة. بين حين وآخر تأتي شاحنة، كل الرجال في الحقل يهرعون إليها وأيديهم ممدودة، يصيحون: «خذني أنا! خذني أنا!».

كان الكل يدفعني؛ وأنا أدفعهم بدوري، لكن الشــاحنة غرفت ستة أو سبعة فقط وتركت البقية. كانوا سيذهبون للبناء أو الحفر، هؤلاء الأوغاد المحظوظون. نصف ســاعة أخــرى من الانتظار. وصلت شــاحنة أخرى. تدافع آخر، معركةٌ أخرى. بعد خمس أو ســت من هذه المعارك في اليوم، وجدت نفسي أخيرا في مقدمة المجموعة وجها لوجه مع السائق. كان من طائفة السيخ، بعمامة كبيرة زرقاء اللون.

صاح: «هيــا، كل واحد منكم! اخلعوا قمصانكم! عليَّ أن أرى صدر كل رجلٍ منكم قبل أن أُسلِّمه عمله.

---

(١٢) التشارتشــوبي: نــوع من المقاعد العريضة بأربع أرجل شــبيهة بما يســمى في الســودان بالعنقريب [المترجم].

نظر إلى صدري؛ وحدَّق في عيني، لكز فخذي بعصاةٍ ثم قال: «هزيلٌ للغاية! اغرب عن هنا!».

«أعطني الفرصة، سيدي، جسمي هزيل ولكن فيه قوة المحارب، سأحفر لك، سأحمل لك الأسمنت، سأ ...».

لوَّح بعصاه؛ ونزلت ضربة على أذني اليسرى. فوقعت، وتسارع الآخرون لأخذ مكاني.

جلست على الأرض، أحك أذني، وشاهدت الشاحنة تغادر وسط سحابة كبيرة من الغبار.

مر ظل نسر طائر فوق جسدي. أجهشت بالبكاء.

«النمر الأبيضٍ! ها أنت هنا!».

رفعني كيشان وابن عمي ديليب من الأرض، بابتسامةٍ عريضة على وجهيهما. أخبارٍ عظيمة ! وافقت جدتي أن تتركهم يستثمرون في تعليمي القيادةً. «هناك شيء واحد» قال كيشان. «تقول الجدة إنك خنزيرٌ جشع. تريدك أن تُقسم بجميع الآلهة في السماء بأنك لن تنساها عندما تصبح غنيًّا».

«إني أُقسم».

«اقرص رقبتك وأقسم أن ترسل كل روبية تجنيها شهريا إلى الجدة».

أخذني كيشان إلى المنزل الذي كان يعيش فيه سائقو سيارات الأجرة. ظهر رجلٌ عجوز بزي بني اللون يبدو كبذلة محارب قديم، كان يدخن النارجيلة الَّتي كان يجدد جمرتها مستعيناً بالجمرات الموجودة في وعاء الفحم. شرح له كيشان الموضوع.

سألني السائق العجوز: «من أي طائفة أنت؟».

«حلوائي».

«صانعو الحلوى»، قال السائق العجوز وهو يهز رأسه: «هذا ما تفعلونـــه أنتم. أنتم تصنعون الحلوى. كيف لك أن تتعلم القيادة؟» وجـــه نارجيلته نحـــو وعاء الجمر. «إنه كما لـــو أنك تأخذ جمر الفحم لتصنع لك منه الثلـــج. التضلع في القيادة - صار يحرك عمـــودا وهميا لدولاب التـــروس في الســـيارة - يكون كترويض حصانٍ فحل وحدهُ ســـليل الطوائف المحاربة يمكنه أن ينجح في مهمة القيـــادة. أما أنت فتحتاج إلى أن يكـــون العنف في دمك. المســـلمون، الراجبوت[١٣]، الســـيخ هم محاربون في إمكانهم أن يصبحوا ســـائقي ســـيارات. أتعتقد أن لصانعي الحلوى القدرة على أن يصمدوا عند الترس الرابع؟».

لقد تم تدريب تحويل الفحم كي يصبح ثلجا بدءا من الساعة السادســـة صباح اليوم التالـــي. ثلاثمائة روبيـــة بالإضافة إلى علاوة، سوف تقوم بهذا العمل. لقد تدربنا في سيارة أجرة. وكل مرة أقترف فيها خطأ في تبديل التروس، كنت أتلقى صفعة على جمجمتي. «لماذا لا تبقى مع الحلوى والشاي؟».

وفي مقابل كل ساعة أقضيها داخل السيارة، أقضي ساعتين أو ثلاثا خارج السيارة أو تحتها، لقد كنت ميكانيكيا أصلح كل السيارات مجانا، في موقف ســـيارات الأجرة؛ كل يوم في آخر المســـاء، أخرج من تحت هذه الســـيارة مثل خنزيرٍ خارجٍ من المجاري، وقد اســـودَّ وجهي من زيت الســـيارة، ويداي تلتمعان من زيوت المحركات. هكذا انغمست في غانجا السوداء وخرجتُ منها سائقا.

---

(١٣) طائفة من الهندوس العسكريين وملاك الأراضي [المترجم].

«اســمع»، قال الســائق العجوز بينما كنت أناوله المائة روبية كعلاوة مثلما وعدناه من قبل. «ليس كافيا أن تقود سيارة. عليك أن تصبح سائقا. يجب أن يكون لديك السلوك الصحيح، أتفهم؟» إذا حاول أحد الســائقين أن يتعداك علــى الطريق، قم بهذا، - أطبــق على قبضته وهزها أمامي - «واصرخ به: يا أخا الفاجرة عدة مرات. ما الطريق إلا غابة، أتفهم؟ الســائق المحنَّك عليه أن يزمجر كالأسد حتى ينتصر».

ربت على ظهري.

«أنت أفضل ممــا ظننت، إنك حزمة مفاجــآت، أيها الرفيق الصغير. أما الآن فلدي مكافأة لك».

مشــى وأنا أتبعه. كان هذا في المســاء. ذهب عبر الشــوارع المعتمة والأسواق. مشينا لمدة نصف ساعة، وكان كل شيء حولنا يتحول إلى ظلام، ثم بدا كأننا في موقع للألعاب النارية.

كان الشــارع مملوءا بالأبواب والنوافذ الملونة، ومن كل بابٍ أو نافذةٍ تطل امرأة تنظر إليَّ بابتسامة عريضة. شرائط من الورق الأحمرٍ والرقائق المعدنية الفضية تتلألأ بين أسقف ذلك الشارع؛ كان الشاي يغلي في أكشاكٍ على جانبي الطريق. هرع إلينا أربعة رجالٍ في الحال. شــرح لهم الســائق العجوز أنه يجب عليهم أن يبتعدوا حيث إنها المرة الأولى ليَّ في هذا المكان. «دعوه يستمتع بمشاهدة المناظر أولا. إنه الجزء الأفضل من اللعبة، أليس كذلك - المشاهدة!».

«بالتأكيد، بالتأكيد،» قال الرجال وانســحبوا إلى الوراء. هذا ما نريده أن يفعل، استمتع أيها الشاب !».

مشـــيت مع السائق العجوز، بفم فاغر، أشهق حين أرى أولئك النســـاء الباهرات الجمال وراء النوافذ المتشـــابكة يسخرن مني ويوبخنني باستهزاء.

شـــرح لي السائق العجوز طبيعة البضائع المعروضة. في أحد المباني، جلســـت بعض النساء على عتبة النافذة بطريقة تتيح لنا رؤية ســـيقانهن السوداء اللامعة، هؤلاء كنَّ: «الأمريكيات» فتيات بتنانير قصيـــرة وأحذية ذات كعوب عالية، يحملن حقائب وردية اللون عليها أســـماء كتبت باللغة الإنجليزية مع الترتر اللامع. كن ممشـــوقات القوام ورياضيات، هؤلاء كن للرجال الذين يفضلون النوع الغربـــي. في هذه الزاوية، تجلس علـــى عتبة بيتٍ مفتوح، «التقليديـــات» من نوع الممتلئات، القصيـــرات المكتنزات، يرتدين الساري، هن لأولئك الذين يأخذون في الاعتبار قيمة النقود التي ينفقونهـــا. كان هناك المخصيون في إحـــدى النوافذ، ومجموعة من فتيات مراهقات. في النافذة التالية ظهر وجه صبي من بين ساقي امرأة واختفى بعد ذلك.

وميضٌ من الضوء الساطع يعمي الأبصار: فُتح بابٌ لونه أزرق، وأطلَّت منه أربع نساء نيباليات ذوات بشرة فاتحة، بثيابٍ داخلية حمراء فاخرة.

«هن!» صحتُ. «هن! هن! هن!».

بعد نصف ســـاعة، عندما عدنا أنا والسائق العجوز مترنحين مخموريـــن ومســـرورين إلى منزلـــه، وضعت قطـــع الجمر في نارجيلته. أحضرت له النارجيلة وراقبته وهو يأخذ نفسا عميقا منها، يمص أُنبوبها بكل ارتواء ثم يُخرج الدخان من منخريه.

«ما الذي تبتغيه الآن؟ لقد علمتك كيف تكون سائقا ورجلا، ما الذي تريده أكثر؟».

«سيدي... هل لك أن تسأل سائقي سيارات الأجرة إن كانوا في حاجةٍ إلى أحد؟ سوف أعمل مجانا في البداية. إنني في حاجة إلى عمل».

ضحك السائق العجوز. «لم يكن لدي عمل لأربعين سنة، أيها المغفل. كيف يمكنني أن أساعدك؟ اغرب عن وجهي الآن».

لذا، في الصباح التالي، كنت أمشي من بيتٍ إلى بيت، أطرق الأبواب والبوابات الكبيرة لبيوتٍ الأغنياء، متسائلا إن كان أحدهم يحتاج إلى سائق لسيارته، سائق ماهر ذي خبرة.

جميعهم أجابوا بالنفي: لن تحصل على عمل بهذه الطريقة. عليك أن تعرف أحدا في العائلة لتحصل على عمل. وليس بالطرق على الأبواب والسؤال.

كثيرا ما تكون المقاولة من دون جدوى في معظم أرجاء الهند، يا سعادة رئيس الوزراء. إنه واقعٌ محزن.

كنت أعود كل مساءٍ إلى البيت متعبا وعلى وشك البكاء، لكن كيشان كان يقول: «استمر في البحث. أحدهم سوف يقول نعم في النهاية».

لذا ذهبت أبحث من منزلٍ إلى منزلٍ، ومن منزلٍ إلى منزلٍ، وأخيرا بعد أسبوعين من السؤال ومن طردي في كل مرةٍ، وصلت إلى منزل ذي جدران على ارتفاع عشر أقدام، وشبكة حديد وضعت حول كل نافذة في المنزل.

رجلٌ نيبالي ماكر، ذو عينين مسحوبتين، وشارب أبيض اللون، أمعن النظر إليَّ من خلال قضبان البوابة.

«ما الذي تريده؟».

لم أستسغ هذا الجزء من سؤاله لي؛ رسمت ابتسامة عريضة على وجهي.

«هل لكم حاجة إلى سائق سيدي؟ لدي خبرة أربع سنوات. رَبُّ عملي قد توفي منذ وقت قريب، لذلك أنا-».

قال النيبالي: «اغرب عن هنا. لدينا سائق»، أدار مجموعة من المفاتيح في يده وابتسم باستهزاء.

غاص قلبي في صدري، وكنت على وشك مغادرة المكان حين رأيت شكلا بشريا على دكة المنزل، شخصٌ في ملابس بيضاء طويلة وفضفاضة يجوب المكان ذهابا وإيابا وهو غارق في أفكاره. أقسم بالله، ياسيد جياباو - وأقسم بالستة والثلاثين مليونا وأربعة آلهة جميعهم - في اللحظة التي رأيت فيها وجهه، عرفت أنه هو الذي سوف يكون ربَّ عملي.

ثمة حظ أسود ربط خط حياته بخط حياتي، لأنه في تلك اللحظة نظر إلى الأسفل.

علمت حينها أنه آت لينقذني. وعليَّ أن أزيح ذلك النيبالي النذل عن طريقي بقدرٍ الإمكان.

«إنني سائقٌ جيد، سيدي. أنا لا أُدخن، أنا لا أشرب، أنا لا أسرق».

«اغرب عن هنا، ألا تفهم؟».

«أنا متدين أبجل الإله، أنا لا أقلل من احترامي لعائلتي».

«ماذا دهاك؟ اغرب عن هنا، الآن».

«أنا لا أغتاب أحدا من أسيادي، أنا لا أسرق، أنا لا أجدف».

في تلك اللحظة تماما، فُتح باب المنزل. لكنه لم يكن الرجل الذي كان على الشرفة، كان رجلا أكبر سنا، بشاربين كثين أبيضي اللون، معقوفين وطرفاهما حادان.

«ما الأمر، رام بهادور؟» وجه سؤاله إلى النيبالي.

«إنه يتسول، يتسول من أجل النقود».

طرقت البوابة. «أنا من قريتك، سيدي. أنا من لاكسامنغارا! القرية القريبة من القلعة السوداء! قريتك!».

الرجل العجوز كان «اللقلق»!

حدق فيَّ لمدةٍ طويلة، ثم قال للحارس النيبالي: «دع الولد يدخل».

منذ اللحظة التي سمعت فيها صرير الباب وهو يفتح - سوووووش! غصت رأسا تحت قدمي «اللقلق». لا يمكن لأي عدَّاءٍ أُولمبي أن يكون أسرع مني في الوصول إلى البوابة ؛ لم يكن لدى النيبالي فرصة لصدي.

كان عليك أن ترى أدائي للنحيب والدموع والقبلات ! كنت ستظن أنني أتحدر من طائفة ممثلين! وكل مرةٍ، وأنا أتشبث بقدمَي «اللقلق»، أحدق في أظافر رجله الهائلة والقذرة وغير المقلمة وأفكر ما الذي يفعله في دهانباد؟ لم لا يعود إلى القرية، يتلاعب في أرزاق الصيادين ويتطاول على بناتهم؟

«قم من هنا يا ولد،» قال هذا بينما أظافره الطويلة تخدش خدَّي. كان بجانبه - السيد آشوك - الرجل الذي كان على شرفة المنزل.

«هل أنت حقا من لاكشامنغهر؟».

«نعم سـيدي. كنت أعمل في محل الشاي، ذلك الدكان الذي فيـه صورة كبيرة لغاندي. كنت أكسّـر الفحم هناك. لقد أتيتَ، سيدي، ذات مرةٍ إلى هناك لتحتسي الشاي».

«نعـم... القرية القديمة». أغمـض عينيه. «هل مازال الناس هناك يتذكرونني؟ كان ذلك منذ ثلاث سنواتٍ مضت».

«بالطبع، سـيدي» - يقـول الناس - «أبونا قـد رحل، ثاكار رامديف قد رحل، أحسـن الأسياد قد رحل، فمن ذا الذي سوف يحمينا؟».

اسـتمتع الستورك لسماع ذلك. اسـتدار نحو السيد آشوك. «لنـر إن كان جيدا. نادِ موكيـش أيضا. لنأخذ نزهة قصيرة في السيارة».

عرفت فيما بعد كم كنت محظوظا. كان السـيد آشـوك قد وصل من أمريكا منذ يوم واحد؛ وقد اشـتروا له سـيارة، وكانوا يحتاجون إلى سائق لتلك السيارة. وفي ذلك اليوم أتيت.

الآن هناك سيارتان في المرآب. واحدة كانت ماروتي سوزوكي المعهودة - تلك السـيارة البيضاء الصغيرة التي تشاهدها في كل أنحاء الهند - والأخرى كانت هوندا سـيتي. ماروتي سـوزوكي سيارة صغيرة بسـيطة، خادمةٌ مثاليةٌ للسائق؛ في اللحظة التي تدير فيها المحرك تقوم بالضبط بما يشاء السائق. الهوندا سيتي أكبر حجما، كائنٌ راقٍ، بعقلية مسـتقلة بذاتها؛ لديها نظام المقود الهوائي، ومحركٌ متطوِّر، تقوم بما تشاء هي القيام به. وبما أنني كنـت متوترا حينـذاك، فلو أن «اللقلـق» كان قد قرر أن يمتحن

قيادتي الهوندا سيتي، لكانت تلك نهايتي، يا سيدي. لكن الحظ كان حليفي هنا أيضا.

لقد جعلوني أقود الماروتي سوزوكي.

جلس «اللقلق» والسيد آشوك في الخلف؛ ثم جلس رجلٌ داكن اللون ضئيل البنية - السيد موكيش، الابن الآخر لـ «اللقلق» - في المقعد الأمامي وصار يعطيني الأوامر. كان الحارس النيبالي وقد اسودَّ وجهه يراقبني بينما أنا أقود السيارة خارج الأسوار متجها إلى مدينة دهانباد.

جعلوني أقود لمدة نصف ساعة وبعدها طلبوا مني أن أعود.

«لا بأس»، قالها الرجل الكبير وهو يترك السيارة. «الصبي حذرٌ وجيد. ما اسمك الأخير مرة أخرى؟».

«حلوائي».

«حلوائي..». التفت إلى الرجل الضئيل البنية الداكن. «ما هذه الطائفة، في القمة أم في القاعدة؟».

وعلمت حينها أن مستقبلي سوف يتوقف على جواب هذا السؤال.

* * *

عليَّ أن أشرح لك قليلا عن الطوائف، حتى الهنود أنفسهم يختلط عليهم الأمر بالنسبة إلى هذه الكلمة، خصوصا المتعلمين في المدن. سيتخبطون في شرح المعنى الصحيح للكلمة. لكنها سهلة، حقا، صدقني!.

لنبدأ بنفسي.

لاحظ: حلوائي، اسمي هذا يعني «صانع الحلوى».

هذه طائفتي، أو بالأحرى قدري. كل من في «الظلام» أو الذي

يسمع هذا الاسم يعرف كل شيء عني.

ولذا كنا أنا وكيشان نحصل على عملٍ في دكاكين الحلوى في كل مكان. كان صاحب الدكان يظن أنهم حلوائيون، إن الحلويات والشاي تجري في دمائهم.

ولكننا لو كنا حلوائيين، فلماذا إذن لم يصنع أبي الحلوى وآثر أن يكون حمَّال الريكشو؟ لماذا إذن تربَّيت على كسر الفحم ومسح الطاولات، بدلا من أكل الغلاب جامون[١٤] والحلويات أينما وحينما يحلو لي أكلها؟ لماذا كنت هزيلا وداكنا ومراوغا، ولم أكن سمينا ذا بشرة ناعمة وبشوشا، كما يجب أن يكون أي صبي نشأ على أكل الحلوى؟

لاحظ، هذا البلد، في أيام عظمته، عندما كان من أغنى البلدان على وجه الأرض، كان يشبه حديقة الحيوان. حديقة نظيفة، منظمة، معتنى بها بشكل جيد. كان كل شخص في مكانه الصحيح، الكل سعيد. صائغ الذهب هنا، راعي الماشية هناك، مُلاّك الأراضي هناك. والرجل الذي يسمى الحلوائي يصنع الحلوى. الرجل الذي يدعى راعي البقر يعتني بالأبقار. المنبوذون يقومون بتنظيف براز ملاك الأراضي، كانوا يُحسنون إلى المؤجرين الذين يعملون في أراضيهم. النساء كن يغطين رؤوسهن بحجاب ويغضضن أبصارهن حين يتحدثن مع الرجال الغرباء.

بعد ذلك - والفضل يعود إلى السياسيين في دلهي - في الخامس عشر من أغسطس العام ١٩٤٧، في اليوم الذي

---

(١٤) حلوى تشبه لقمة القاضي أو اللقيمات [المترجم].

رحــل فيه البريطانيون، تركت الأقفــاص مفتوحة في حديقة الحيوان؛ وهاجمت الحيوانات بعضها البعض ومزقت بعضها البعض وحل قانون الغابة محل قانون حديقة الحيوان. أولئك الذيــن كانــوا أكثر ضراوة وأكثــر جوعا، التهمــوا الآخرين، وامتلأت بطونهــم وكبرت. كان هذا هو الشــيء المهم، حجم البطــن. لا يهم إن كنت امرأة أو كنت رجلا، إن كنت مســلما أو منبــوذا نهــض، أي واحد ببطن كبير. لا بــد أن والد أبي كان حلوائيــا حقيقيا، صانع حلــوى، وعندما ورث الدكان، لا بد أن شــخصا ما مــن طائفة أخرى ذا بطن كبير، اســتولى على الدكان بمســاعدة الشرطة. لم يكن لأبي بطن كبير حتى يحاربهــم. لذلك وقع أبي في الحضيض، إلى مســتوى حمال الريكشو. لذلك لم يكن قدري أن أكون سمينا ذا بشرة ناعمة وبشوشا.

باختصار، في الأيام السالفة كان في الهند ألف من الطوائف وألف من الأقدار. هذه الأيام توجد طائفتان فقط: رجال ببطون كبيرة ورجال ببطون صغيرة.

وقدران اثنان فقط: إما أن تأكل وإما أن تؤكل.

* * *

الآن، الرجــل الداكن اللون - الســيد موكيش، أخو الســيد آشــوك - لم يعرف الإجابة عن ســؤال أبيه عــن الطائفة التي أنتمــي إليها. لقد قلت لك إن الناس في المدن لا يعرفون الكثير عن نظام الطوائف، لذلك التفت إليَّ «اللقلق» وسألني مباشرة:

«هل أنت من طائفة عليا أم من طائفة دنيا، يا صبي؟».

لـم أكن أعلـم ما الذي يريدنـي أن أقوله، لـذا راجعت كلتا الإجابتـين - كان مـن المحتمـل أن يكون جوابي جيـدا في كلتا الحالتين - بعد ذلك قلت: «من الطائفة الدنيا، سيدي».

التفت الرجل الكبير إلى السـيد موكيش وقال: «كل الموظفين لدينـا هم من الطائفة العليا. لـن يضيرنا إن كان واحدٌ أو اثنان فقط من الذين يعملون لدينا من الطائفة الدنيا».

نظر السـيد موكيش إليَّ بعينين ضيقتين. لم يكن يعرف شيئا عن الأساليب القروية، غير أنه كان يملك مكر ملاك الأراضي.

«هل تحتسي الخمر؟».

«لا، سـيدي. وفق الطائفـة التي أنا منها، لا يُسـمح لنا بأن نحتسي الخمر أبدا».

«حلوائي..». قال السيد آشوك مبتسما. «هل أنت صانع حلوى؟ هل يمكنك أن تصنع لنا الحلوى عندما تنتهي من القيادة؟».

قلت: «حتما، سـيدي. أنا أطبخها بطريقـة ممتازة. حلويات لذيـذة. غلاب جامون، لادوس[١٥]، أو أي شـيءٍ ترغب فيه. لقد عملت في محل الشاي عدة سنين».

وجد السيد آشوك هذا الشيء مسليا فقال: «فقط في الهند، في إمكان سـائق سيارتك أن يصنع لك الحلوى. فقط في الهند. لنبتدئ غدا».

«ليسـت بهذه السرعة»، قال السـيد موكيش. «أولا لنسأل عن أسـرته. كم عددهم، أين يعيشـون، كل شيء. أمر آخر: كم تريد؟».

---

(١٥) حلوى تصنع من كرات من الدقيق والحليب والسـكر وتحشـى باللوز أو الفستق وتقدم في المناسبات مثل حفلات الزفاف والأعياد الدينية [المترجم].

امتحانٌ آخر.

«لا شــيء مطلقا، ســيدي. أنتم مثل أبي وأمي، فكيف أطلب مالا من والدَي؟».

قال: «ثمانمائة روبية في الشهر».

«لا، ســيدي، أرجوك، هذا كثير. أعطنــي نصف هذا المبلغ، سيكون كافيا. بل أكثر من كافٍ».

«إذا استمررت معنا أكثر من شهرين، فسوف نرفع أجرك إلى ألف وخمسمائة روبية».

بدوت مضطربا بالقدر المناسب تقبلت الأجر منه.

لم يكن السـيد موكيش مقتنعا بـي. نظر إليَّ بتفحص وقال: «إنه صغير في السن. ألا يلزمنا شخص أكبر عمرا منه؟».

هز «اللقلق» رأســه. «امسك به صغيرا، يكن في مقدورك أن تحتفظ به مدى الحياة. ســائقٌ في الأربعين من عمره، ستحصل منه على خدمة لمدة عشــرين عاما، وبعد ذلك سيضعف بصره. لكــن هذا الولد ســوف يبقى لمدة ثلاثين، خمس وثلاثين ســنة. أسنانه قوية ولديه شعر، وهيئته حسنة».

امتص من عصير البتل[16]، الذي امتلأ فمه به، أدار جســمه وبصق جانبا دفقة من السائل الأحمر.

وطلب مني أن أعود بعد يومين.

لا بد أنه هاتف أحد رجاله في لاكشــامنغهر. والرجل بدوره زار كاسوم وتحدث إليها، وتحرى عنا من الجيران، ثم عاد وهاتف «اللقلــق»: «له أســرة طيبة. لم يبدر منهم أي مشــكلة. الأب قد

(١٦) أوراق نبات يمضغه سكان جنوب شرق آسيا منذ آلاف السنين. يترك لونا أحمر على اللثة واللسان [المترجم].

توفي منذ زمن بداء السل. كان حمال ريكشو. أخوه في دهانباد أيضا، يعمل في محل الشاي. لا يوجد في تاريخهم ما يدل على تأييدهم الناكسال أو أي إرهابيين. لا يغيرون أماكنهم. نحن نعلم بالضبط أين يسكنون.

كان الجزء الأخير من المعلومات مهما جدا. عليهم أن يعرفوا أين تسكن أُسرتي في كل الأوقات.

إنني لم أُحدِثك بعد عما فعله «الجاموس» مع المنزل، أليس كذلك؟ ذاك الذي كان يحرس طفله الصغير، والذي قد اختطف على يد الناكسال وعذب ثم قتل. كان الخادم من طائفتنا، يا سيدي، كان حلوائيا. لقد رأيته مرة أو مرتين عندما كنت صبيا.

قال الخادم إنه لا دخل له بحادث الاختطاف؛ لم يصدقه «الجاموس»، فجعل أربعة من رجاله المسلحين يعذبون الخادم قبل أن يطلقوا النار على جمجمته.

إنها العدالة بعينها، كنت سأقوم بالشيء نفسه لرجلٍ ترك ابني يُختطف.

ولكن، بعد ذلك ولأن «الجاموس» كان متأكدا من أن الرجل تعمد ترك الطفل للمختطفين من أجل المال، لم يكتفِ بقتل الخادم فقط، بل لاحق حتى أسرته. أحد إخوته كان يعمل في الحقل عندما ضربوه هناك حتى الموت بينما انتهت حياة زوجته باعتداء ثلاثة رجال مجتمعين عليها. وأخت له لم تكن قد تزوجت بعد، هلكت هي أيضاً. وبعد ذلك حوِّط المنزل الذي تعيش فيه أسرته بأربعة رجال من أتباع «الجاموس» وأشعلوا فيه النيران.

الآن من ذا الذي يود أن يحصل هذا لأسـرته، يا سيدي؟ أيُ وحش دنيء عديم الإنسانية من الممكن أن يسلِّم جدته وأخاه وعمته وأبناء إخوته للموت؟

كان في إمكان «اللقلق» وأبنائه أن يثقوا بأمانتي وإخلاصي.

عندما عدتُ بعد يومين فتح النيبالي البوابة من دون أن ينبس ببنت شفة. لقد أصبحت الآن داخل المبنى. بالمقارنة بأسياد الآخرين، السيد آشوك والسيد موكيش و«اللقلق»، كانوا أحسن من غيرهم من الأسياد. كان دائما هناك طعامٌ يكفي لكل الخدم. وفي أيام الأحد من كل أسبوع تحصل على ذلك الطعام المميز، مخلوط الرز مع قطع حمراء من لحم الدجاج الخالي من العظم. لم أكن قد أكلت قبل ذلك، في كل حياتي «الدجاج بشكل منتظم إنك تشعر كأنك مَلِك وأنت تأكل الدجاج كل أحد تلو أحد، ثم تلعق أصابعك بعد ذلك. كانت لي غرفة مسقوفة للنوم، صحيح أنني كنت أشارك فيها السائق الآخر، الشخص العبوس المدعو رام بيرساد، كان له سرير أنيق كبير، بينما أنا كنت أنام على الأرض، لكن الغرفة المسقوفة هي في النهاية غرفة مسقوفة، وأحسن بكثير من النوم في الطرقات، كما كنا نفعل أنا وكيشان دائما في دهانباد. وإلى جانب هذا كله، حصلتُ على ما كنا نقدره أكثر من أي شيء آخر نحن الذين نشأنا في «الظلام»: زي رسمي، زي رسمي كاكي اللون.

في اليوم التالي ذهبت إلى البنك ذي الجدران المصنوعة من الزجاج. رأيت انعكاس صورتي على الألواح الزجاجية، كنت مغطى باللون الكاكي. طفت لعدة مرات ذهابا وإيابا أمام البنك منبهرا بنفسي.

لــو أنهم فقط أعطوني صفارة فضية، لشــعرت حينها بأنني في الجنة!

كان كيشــان يأتي مرة في الشــهر ليراني. لقد قررت جدتي كاســوم أن أحتفظ لنفســي بمبلغ تســعين روبية والباقي يذهب رأسا إلى كيشان، الذي يرسله إليها مباشرة. كنت أُسلِّمه المال من خلال القضبان السوداء للبوابة الخلفية، كنا نتحدث لعدة دقائق قبــل أن يصرخ النيبالي: «هذا يكفي، الصبي لديه عمل يجب أن ينجزه الآن!».

كان عمل الســائق رقم اثنين ســهلا. إذا كان السائق رقم واحــد، رام بيــرســاد، مشــغولا باصطحاب الأســياد إلى البلــدة بالهــوندا ســيتي، وإذا أراد شــخصٌ مــا في المنزل أن يذهب إلى الســوق، أو منجم الفحــم، أو محطة القطار، فأســتقل أنا «السائق الثاني» الماروتي سوزوكي وأقود بهم إلى حيــث يريدون. وإلا فعلــيَّ أن أمكث في المنــزل وأقوم بعملٍ مُجد.

الآن، تراني أقول إنهم اتخذوني «ســائقا» لهم. أنا لا أعلم كيف تنظمــون أعمال الخدم في الصــين. ولكن في الهند - أو علــى الأقل في «الظلام» - الأغنياء ليس لديهم ســائقون، وطباخون، وحلاقون، وخياطون.

إنهم ببساطة لديهم خدم.

إن الذي أرمي إليه، هو أنني في حال لم أكن أقود السيارة، كان عليَّ أن أنظف أرضية الفناء، أحضر الشــاي، أزيل بيوت العناكب بمكنســة طويلة، أو أطارد بقرة لإخراجها من المبنى.

هناك شـــيءٌ وحيدٌ لا يســـمح لي القيام به، وهو لمس الهوندا ســيتي: وحده رام بيرساد كان يحق له قيادتها وتنظيفها. في المســـاء، كنت أتضور حســـدا وأنا أراقبه وهو يغســـل السطح الخارجي المصقول للسيارة بقماش ناعم.

كان من الممكن من مظهرها الخارجي معرفة أنها سيارة جميلة وحديثة، مجهزة بكل مستلزمات الراحة: نظام السماعات، مكيف الهواء، مقاعد جيدة من الجلد اللامع، ومبصقة كبيرة من الفولاذ المقاوم للصدأ في الخلف. لابد أنك تشعر كأنك في الجنة وأنت تقود مثل هذه الســيارة. كل الذي كان لدي هو ماروتي سوزوكي قديم ومعطوب.

ذات مســـاء، وأنا أراقب، أتى السيد آشوك وتفحص السيارة. اكتشفت حينها أنه شخصٌ فضولي.

«فيما يستخدم هذا الشيء؟ هذا الشيء اللامع في الخلف».

«إنها مبصقة، يا سيدي».

«ماذا؟».

شـــرح له رام بيرســـاد أن البصّاقة تخص «اللقلق»، الذي كان يحـــب أن يمضغ اللبـــان، وإذا بصق البان خـــارج النافذة فربما التصق بجوانب الســيارة، لـــذا يبصق بالقرب مـــن قدميه، في البصّاقة، والتي ينظفها السائق بعد كل جولة.

قال السيد آشوك: «هذا مقرف».

كان يسأل عن شيء آخر عندما أتى روشان ابن السيد موكيش راكضا إلينا وبيده مضرب بلاستيكي وكرة.

فرقع رام بيرساد بإصبعيه مشيرا إليَّ.

«كان أحد الواجبات المفروضة على السائق رقم اثنين هو لعب الكريكيت مع طفل مدلل في المنزل وتركه يفوز في كل الأحوال».

شارك السيد آشوك اللعبة. وقف كحارس للمرمى وأنا أرشق الكرات بالمضرب.

«أنـــا أظهر الدين، كابتن الهند!» يصرخ الصبي بعد كل ضربة سداسية أو رباعية:

«أطلق على نفســك اسم كافاســكار. أظهر الدين هذا لاعب مسلم».

كان هذا «اللقلق» أتى إلى الفناء للتفرج.

قال السيد آشــوك: «أبي ما هذا الكلام السخيف! هندوسي أم مسلم، ما الفرق؟».

«أوه، أنتم الشباب وأفكاركم الجديدة!» قالها «اللقلق» واضعا يده عليَّ. «أنـــا مضطر إلى ســرقة الســائق منــك يا روشــان، أنا آسف، سوف يعود إليك بعد ساعة، موافق؟».

بالنســبة إلـــى «اللقلــق» فـــإن الســـائق رقم اثنــين كانت له اســتخدامات خاصة. بما أن ساقيه كانتا متعبتين، بعروق زرقاء، فقد نصحه الطبيب بأن يجلس في فناء المنزل ويضع قدميه في الماء الدافئ ليقوم أحد الخدم بتدليكهما له.

عليَّ أن أســخن الماء على الموقد، ثم أحمله إلى الفناء، وأرفع قدمي الرجل العجــوز واحدة بعد الأخــرى وأغمرهما في الماء الســاخن وأدلكهما برفــق؛ فيغلق عينيه ويئن فــي أثناء قيامي بهذا.

بعد نصف ســاعة، يقول: «أصبح المــاء باردا»، حينها عليَّ أن

أرفع قدميه، كل قدم على حدة، وأحمل الوعاء إلى المرحاض. كان الماء غامقا، يطفو فيه شعر ميت وبقايا من الجلد. كان علي أن أملأ الوعاء مرة أخرى بماء نظيف ساخن وأعود به إليه.

في أثناء قيامي بالتدليك، سحب ابناه الكراسي وجلسا بجوار أبيهما ليتحدثا إليه. يأتي رام بيرساد بقنينة ملؤها سائل ذهبي اللون، ويسكب منها في ثلاث كؤوس، ثم يسقط مكعبات الثلج في كل كأس، ويناول كلا منهم كأسا. ينتظر الأبناء حتى يرشف والدهما الرشفة الأولى ويقول: «آه... مشروب. كيف لنا العيش في هذا البلد من دونه»، وهكذا يبدأ الحديث. كلما تحدثوا أكثر أسرعت في التدليك. كانوا يتحدثون عن السياسة، والفحم، وعن بلدك – الصين. بشكل أو بآخر كانت هذه الأشياء: السياسة، والفحم، والصين قد ارتبطت بالثروة العائلية «اللقلق»؛ وبصورة مبهمة أدركت أن قدري أنا قد ارتبط أيضا بهذه الأشياء الثلاثة تلك، بما أنني قد أصبحت الآن جزءا من هذه العائلة. اختلط الحديث عن الفحم والصين برائحة المشروب المنبعثة من الكؤوس، ورائحة العرق النتنة الصادرة من قدمي «اللقلق» المنغمستين في الماء الدافئ، تقشر جلده، واللكمات الخفيفة من قدمي السيد آشوك، أو قدمي «النمس» المكسوة بالصندل وهي ترتطم بظهري أثناء قيامي بالتدليك. لقد قمت بامتصاص كل هذا، إن هذا هو الشيء المذهل في شخصية المقاولين. نحن كالإسفنج نمتص وننمو.

ضربة حادة نزلت على رأسي.

نظرت إلى الأعلى ورأيت «اللقلق»، كانت كفه مازالت مرفوعة

فوق جمجمتي، يحملق فيَّ.

«أتعلم ما سبب ذلك؟».

«نعم، سيدي،» قلت هذا بابتسامة عريضة على وجهي.

«جيد».

بعد دقيقة ضربني على رأسي مرة أخرى.

«قل له يا أبي ما سبب ذلك. لا أعتقد أنه يعرف لماذا ضُرب. يا صبي، إنك تضغط بقوة. إنك مفرط النشـــاط. الوالد منزعج. اعمل ببطء».

«حاضر، سيدي».

«هل عليك ضرب الخدم، يا أبي؟».

«نحـــن لســـنا هنا فـــي أمريكا، يا بنـــي. لا تســـأل مثل هذه الأسئلة».

«لماذا لا أستطيع أن أسأل تلك الأسئلة؟».

«هم يتوقعون هذا منَّا، آشوك. تذكر أنهم يحترموننا بسببه».

في تلـــك المرات، لم تكن بنكي مدام تشـــارك فـــي مثل هذه المناقشـــات. لم تكن تترك غرفتها، كانت توجد فقط للعب تنس الريشة مع رام بيرساد، وهو ما كانت تقوم به وهي تضع نظارات داكنة على عينيها. كنت أتساءل ما خطبها، هل كانت قد تشاجرت مع زوجها؟

عندما قال «اللقلق»: «أصبح الماء باردا،» للمرة الثانية، وأخرج قدميه من الوعاء، كانت مهمتي قد انتهت.

دلقت الماء البارد في الحوض.

غســـلت يديّ لمدة عشـــر دقائق، وجففتهما، وعدت أغسلهما

مــرة أخرى، ولكن لــم يحدث هذا أي فرق. مهما تغســل يديك بعد القيام بتدليك قدم رجل ما، فرائحة جلده العجوز والمتشقق سوف تبقى على يديك طوال اليوم.

* * *

هناك مهمة واحدة كان على كل من الخادم رقم واحد والخادم رقــم اثنين، أن يقوما بها معا. مرة واحدة كل أســبوع على الأقل، نحو الساعة السادسة مســاء، كنت أنا ورام بيرساد نترك المنزل متوجهين إلى الطريق الرئيسي. لنصل إلى محل عليه لافتة تقول:

«جاك بوت» دكان المشروب الإنجليزي

تباع هنا مشروبات أجنبية وهندية الصنع

علــيَّ أن أوضح لك، ســيد جياباو، أنه في هــذا البلد لدينا نوعان من الرجال: رجال المشــروب «الهندي» ورجال المشــروب الإنجليزي. المشروب «الهندي» هو لأولاد القرى مثلي، والمشروب الإنجليــزي يكون طبعا للأغنياء، «هل هناك مشــروب «صيني»، سيدي رئيس الوزراء؟ أتمنى أن أجرب منه رشفة».

كان من أهم واجبات الســائق رقم واحد أن يأتي لمحل «جاك بوت» مرة كل أسبوع ويشتري قنينة من المشروب الباهض الثمن لـ «اللقلق» وأبنائه. كــان هــذا جــزءا من بروتــوكــول الخــادم، ولا تســألني لماذا يلازمه الســائق ذو المرتبة الأدنى في مشواره هذا. ربما كان من واجبي أن أتأكد من أنه لن يهرب بالقنينة.

قناني ملونــة من كل الأحجام مرصوصــة على الأرفف في محــل «جاك بوت»، وكان شــابان صغيران يحــاولان جاهدين لتلبيــة طلبات الرجــال الذين كانوا ينهرونهــم. وعلى الحائط

الأبيض على جانب الدكان، كُتبت مئات الأسـماء من العلامات التجارية للمشـروبات بالصبغ الأحمر السائل، وقد قُسِّمت إلى خمسة أصناف.

كان محلا صغيرا، وهناك خمسـون رجلا تقريبا قد تكدسوا في مسـاحة عشر أقدام أمام المحاسـب، وهم يصرخون بأعلى صوتهـم، بينما يلوحون بـالأوراق النقديـة ذات الفئات الأعلى قيمة.

لم يكن أحد منهم سيشرب هذا المشروب بنفسه، كان واضحا مـن القمصان الممزقة والقديمة التي كانـوا يرتدونها أنهم كانوا خدما، مثلي ومثل رام بيرساد، قد أتوا لشراء المشروب الإنجليزي لأسيادهم. ولو أتينا بعد السـاعة الثامنة مساء في عطلة نهاية الأسـبوع إلى دكان جاك بوت، فإن المـكان يبدو كأن حربا أهلية قد قامت أمام المحاسب؛ كان عليَّ أن أوقف تدفق الرجال، ريثما يشق رام بيرساد طريقه إلى المحاسب.

بعد ما يحصل رام بيرسـاد على المشـروب، أضرب وأعنف الخـدم الآخرين لإيجاد مجال للخروج، بينما هو يحضن القنينة بـين ذراعيه. كانت هذه هي الفتـرة الوحيدة التي كنا نعمل فيها بروح الفريق الواحد.

فـي طريق عودتنا إلى المنزل، كان رام بيرسـاد يتوقف دائما على جانب الطريق يسـحب قنينة المشروب من عِلبتها المصنوعة من الـورق المقوى. كان يزعم أنه يعمل هذا ليتأكد أن جاك بوت لم يغشـنا. كنت أعرف أنـه يكذب. إنه يريـد أن يحمل القنينة فقط. يريد أن يحملها كاملة، قنينة مشـروب جديدة من الدرجة

الأولى بين يديه. كان يريد أن يتخيل أنه ابتاعها لنفسه. بعدها يعيد القنينة في علبتها المقواة ونعود إلى المنزل، وأنا خلفه، مازالت عيناي مأخوذتين بمنظر هذا الكم الهائل من المشروب الإنجليزي.

في الليل، وبينما كان شخير بيرساد يعلو من سريره، كنت أستلقي على الأرض وكفاي تحت رأسي.

أحدق في السقف.

كيف كان ابنا «اللقلق» مختلفين أحدهما عن الآخر تماما، كما الليل والنهار.

كان موكيش ضئيل الحجم، داكن البشرة، قبيح الصورة، وفطنا جدا. كنا نسميه في المنزل «النمس». كان قد تزوج منذ بضع سنين من امرأة بيتوتية، كان يزداد وزنها باستمرار بعد إنجابها طفلين، ذكورا. هذا الشخص «النمس» لم يكن لديه جسم والده، ولكنه كان يملك عقله. إذا رآني مرة أبدد ولو دقيقة من الوقت، يصرخ فيَّ: «أيها السائق لا تتسكع هنا! نظِّف السيارة».

«نظفتها للتو. يا سيدي».

«إذن خذ المكنسة واكنس الفناء».

أما السيد آشوك فلديه بنية أبيه؛ كان طويلا، وبمنكبين عريضين، وسيما، كما يجب أن يكون ابن ملاك الأراضي. في المساء أراه يلعب تنس الريشة مع زوجته داخل فناء المنزل. كانت ترتدي البنطال؛ كنت أشهق لرؤيتها. لم أر امرأة بالبنطال من قبل، ماعدا في دار السينما، افترضت أول مرة رأيتها أنها

أمريكية، إنها أحد تلك الأشياء التي قد جلبها معه من نيويورك، مثل لهجته وعطره ذي نكهة الفواكه الذي كان يضعه على وجهه بعد الحلاقة.

بعد يومين، رأيت رام بيرساد والنيبالي ذا العينين المسحوبتين يغتابان، فأخذت المكنسة وبدأت بكنس الفناء واقتربت رويدا رويدا منهما.

«إنها مسيحية، أتعلم ذلك؟».

«لا يمكن هذا».

«نعم!».

«وتزوجها؟».

«لقد تزوجها في أمريكا. عندما نذهب نحن الهنود هناك، نفقد احترامنا لطائفتنا»، أردف النيبالي.

«كان الرجل الكبير ضد هذه الزيجة بشدة. كما كان أهلها أيضا غير سعداء بهذه الزيجة».

«إذن كيف حدث هذا؟».

حملق فيّ النيبالي: «يا أنت، هل تسترق السمع؟».

«كلا، سيدي».

* * *

ذات صباح كان هناك طرق على باب مسكن السائقين، وعندما خرجت، كانت مدام بنكي واقفة وبيدها مضربان لكرة تنس الريشة.

هناك شبكة قد نُصِبت بين عمودين في زاوية من الفناء، أخذت هي مكانها من جانب وأخذت أنا مكاني في الجانب

الآخر. قذفت الريشة فطارت للأعلى ونزلت عند قدمي.

«يا أنت! تحرك! أعدها إليَّ !».

«آسف، مدام. أنا آسف جدا».

لم أكن قد لعبت هذه اللعبة من قبل. أعدتُ الضربة إليها، انطلقت الريشة رأسا إلى الشبكة.

«أوه، أنت عديم الفائدة. أين السائق الآخر؟».

اندفع رام بيرساد إلى الشبكة في الحال. كان يراقب هذه اللعبة مرارا. فهو يعرف بالضبط كيف يلعب تنس الريشة.

راقبته وهو يقذف الريشة بكل مهارة فوق الشبكة، ويجاري ضربتها بضربة، وأنا أشعر بحرقة في بطني.

هل هناك كراهية أشد من تلك التي لدى الخادم رقم اثنين تجاه الخادم رقم واحد؟

على الرغم من أننا ننام في الغرفة نفسها، وعلى بعد بضع أقدام أحدنا من الآخر، فإننا لم نتبادل حتى كلمة واحدة، ولا كلمة مرحبا أو كيف حال أمك، ولا شيء من هذا القبيل، بتاتا. كنت أشعر بالحرارة تصدر منه طوال الليل، كنت أعرف أنه يلعنني ويقرأ تعاويذه عليَّ في منامه. كان يبدأ يومه بالركوع أمام عشرين صورة على الأقل من مختلف الآلهة التي وضعها في زاويته من الغرفة، ويقول: «أوم، أوم، أوم». بينما هو يفعل هذا، ينظر إليَّ من زاوية عينه، كأنه يقول، ألا تصلي؟ ماذا تكون، أأنت واحد من النكسال؟

ذات مساء ذهبت إلى السوق واشتريت بعضا من أرخص التماثيل الموجودة لإله هانومن ورام، أخذتها وقمت برصها في الغرفة. هكذا لكلينا الآن العدد نفسه من الآلهة في الغرفة؛ نقوم

في الصباح ونتسابق في الاستغراق في صلواتنا أمام آلهتنا المبجلة.

كان النيبالي متعاونا مع رام بيرساد. في يوم من الأيام اندفع إلـــى الغرفة يحمل دلوا بلاســـتيكيا ووضعه أرضا محدثا صوت ارتطام.

«هل تحب الكلاب، أيها القروي؟» قالها بابتسامة عريضة.

كان في المنـــزل اثنان من الكلاب من فصيلـــة البوميراني[١٧] لونهما أبيض اســـمهما كادلز وبادلز. الأثرياء يتوقعون من الناس أن يعاملوا كلابهم كالبشر. لاحظ أنهم يتوقعون أن تُدلل كلبيهما، وتخرج بهما للنزهة وتُلاطفهما، وتغســـلهما! فكِّر الآن من الذي عليه أن يحممهما؟

كنـــت أجلس على ركبتَـــيَّ وأقوم بفرك الكلبين ثم أكســـوهما برغـــوة الصابون، وبعدها أغســـلهما، وأخيـــرا أجفف جلدهما بمجفف الشـــعر. ثم أصطحبهما معي حول المبنى وهما مطوقان بسلســـلة بينما ملك النيبال يجلس في زاوية ويصيح: «لا تشـــد السلسلة بعنف! إنهما أكثر قيمة منك!».

عند الانتهاء من مهمتي مع بادلز وكادلز، أعود أدراجي أشُـــم يديَّ، الشيء الوحيد الذي يزيل رائحة جلد الكلب من يدي الخادم هو رائحة جلد سيده.

كان السيد آشوك واقفا خارج غرفتي.

هرعت نحوه وانحنيت كثيرا أمامه. ذهب داخل الغرفة، تبعته، وأنا مازلت منحني الظهر. ثنى ظهره وهو يدخل من خلال المدخل الذي بُنِيَ للخدم الســـيئي التغذية، وليس لسيد مثله فارع الطول

---

(١٧) نوع من الكلاب الصغيرة والطويلة الشعر [المترجم].

تمتع بتغذية جيدة. نظر إلى السقف بشكل مريب.

قال: «كم هذا كريه».

إلـى تلك اللحظة، لم أكن قـد لاحظت كيف كان الصبغ على السـقف قد تقشر على شكل رقائق كبيرة، وكيف أن العناكب قد بنت بيوتها في كل زاوية. كنت حتى ذلك الوقت سعيدا جدا لأنني أعيش في تلك الغرفة.

«لماذا كل هذه الرائحة؟ افتح النوافذ».

جلس على سـرير رام بيرسـاد يدس أصابعه فيه، كان يبدو يابسا. توقفت في الحال عن الشعور بالغيرة من رام بيرساد.

«وهكذا رأيت الغرفة بعينيه هو؛ شممتها بأنفه هو، تحسستها بأصابعه هو، صار باستطاعتي أن أستوعب سيدي بسهولة!».

نظر تجاهـي، لكنه تجنـب نظراتي المحدقـة، كأنه كان قد اقترف ذنبا.

«أنت ورام بيرساد سـوف تحصلان على غرفة أفضل لتناما فيها. وسرير لكل منكما. وشيء من الخصوصية».

«أرجوك، لا يا سـيدي، لا تفعل هـذا. إن هذا المكان بمنزلة القصر بالنسبة إلينا».

جعله هذا يشعر بتحسن. نظر إليَّ.

«أنت من لاكشامنغهر، أليس كذلك؟».

«نعم، سيدي».

«إنني ولِدتُ في لاكشامنغهر. لكنني لم أرها أبدا».

«هل أنت مولود هناك؟».

«نعم، سيدي. ولِدت وترعرعت هناك».

«كيف يبدو المكان؟».

وقبل أن أجيبه، أضاف: «لابد أنه مكان جميل».

«مثل الجنة، سيدي».

أخذ يقلب نظره فيَّ من الأعلى إلى الأسفل، من رأسي إلى أخمص قدمي، بالطريقة نفسها التي كنت أنظر إليه منذ اللحظة الأولى التي أتيت فيها إلى المنزل.

بدت عيناه ملؤهما التعجب: كيف لهاتين العينين البشريتين المتناقضتين أن تخرجا من الطين نفسه، وضوء الشمس نفسه، والماء نفسه؟

«حسنا أريد أن أذهب إلى هناك اليوم»، قال وهو يهم بالنهوض من السرير. «أريد أن أرى مسقط رأسي. وأنت سوف تصحبني إلى هناك».

«حاضر، سيدي!».

أعود إلى موطني ! وبزيي الرسمي، أقود سيارة «اللقلق»، أُدردش مع ابنه وكنته!

كنت على أهبة الاستعداد أن أقع على قدميه وأقبلهما !

كان «اللقلق» يود أن يأتي معنا، وكان هذا سيصبح القدوم الكبير لي في القرية ولكنه قرر في اللحظة الأخيرة أن يبقى في المنزل. في نهاية المطاف كان السيد آشوك وبنكي مدام فقط هما اللذين عليَّ أن أقود بهما الهوندا سيتي إلى الريف متجهين إلى لاكشامنغهر.

كانت هذه المرة الأولى التي أقود فيها السيارة مصطحبا إياهما الاثنين معا، رام بيرساد هو الذي كان له هذا الامتياز قبل ذلك. لم أكن قد تعودت على قيادة الهوندا سيتي، هذه

السيارة المتقلبة المزاج، ذات الذاكرة الخاصة بها، كما أخبرتك سابقا. لقد صليت للآلهة - جميعها - لكي لا أقترف خطأ ما في هذه السيارة.

لفترة نصف ساعة لم يقولا شيئا. إنك كسائق سيارة تستطيع أحيانا أن تشعر إن كان هناك توَتُر داخل السيارة، إن درجة الحرارة ترتفع في الداخل. كانت المرأة الجالسة في السيارة مستاءة بشدة.

«لماذا نحن ذاهبان إلى ذلك المكان البعيد، آشوكي؟» كسر صوتها الصمت أخيرا.

«إنها قرية أسلافي، بنكي. ألا تودين رؤيتها؟ لقد ولِدت هناك، ولكن أبي قد أخذني بعيدا عنها حين كنت صبيا. كانت هناك في ذلك الوقت بعض المشاكل مع الثوار الشيوعيين. ظننت أنه في إمكاننا..».

«هل اتخذت قرار العودة؟» سألته فجأة. «أقصد إلى نيويورك».

«لا. ليس بعد. سوف يكون هذا قريبا».

صمتَ لدقيقة. كانت أذناي الآن مفتوحتين تماما. إذا قررا العودة إلى أمريكا فهل يعني هذا أنهما لن يكونا في حاجة إلى سائق ثان في المنزل؟

لم تقل شيئا ولكنني أقسم إنني كنت أسمع صرير أسنانها.

كان السيد آشوك يجهل هذا، وصار يدندن بلحن أغنية من أحد الأفلام، إلى أن قالت: «يا لها من مزحة داعرة».

«أي مزحة؟».

«أنــت كذبت علــيَّ فيما يخص العودة إلــى أمريكا، أليس كذلك، آشوك أنت لن تعود إلى هناك أبدا، أليس كذلك؟».

«السائق معنا في السيارة، بنكي، سوف أشرح لك كل شيء فيما بعد».

«أوه، وما شــأنه! إنه ســائق فقط. وها أنت تُغيِّر الموضوع مرة أخرى!».

امتلأت الســيارة برائحة زكية، وعرفــت أنها قد تحركت وعدَّلت من ثوبها.

«ومــا حاجتنا أساســا إلى ســائق؟ لماذا لا تقود الســيارة بنفسك، كما كنت تفعل في السابق؟».

«بنكي، كان ذلك في نيويورك، لا يمكنك القيادة في الهند، انظري إلى هذا الزحام. لا أحــد يتقيد بقواعد المرور، يعدو الناس عبر الطرقات كالمجانين، انظري، انظري إلى ذاك».

كانت شاحنة تســير على الطريق بأقصى سرعتها، تنفث خيوطا كثيفة من الديزل الأسود من أنبوب العادم.

«إنها على الجانب المعاكس للطريق! وسائق الشاحنة حتى لم يلحظ ذلك !».

أنــا أيضا لم ألحظ. حســنا، أعتقد أن عليــك القيادة على الجانب الأيســر من الطريــق، ولكن حتى تلــك اللحظة لم أكن أعرف أحدا من قبل يغتاظ لكسر القواعد.

«وانظري إلى الديزل كيف يتســرب منها. سأصاب بالجنون التام لو كنت أقود هنا، بنكي، سأصاب بالجنون التام».

كنــا نقود على امتداد النهر، وبعــد ذلك انتهى الطريق المعبد

وأخذتهمـــا عبر طريق وعر، ومن ثم مررنا وســـط ســـوقٍ محلي صغيـــر بثلاثة دكاكين متطابقـــة أو أقل، تبيـــع تقريبا البضاعة نفسها، الكيروسين، والبخور، والأرز. كان الكل يحدق فينا. بعض الأطفال بدأوا بالجري بمحاذاة السيارة. لوح السيد آشوك بيده إليهم، وحاول أن يجعل مدام بنكي تفعل ذات الشيء.

اختفـــى الأطفـــال؛ وقد عبرنا خطا لم يكن في اســـتطاعتهم اللحاق بنا بعد ذلك. صرنا في منطقة الأسياد.

كان المشـــرف في انتظارنا عند بوابة قصر «اللقلق»؛ فتح باب السيارة حتى قبل أن أوقفها تماما، ولمس قدم السيد آشوك.

«أيها الأمير الصغير، أنت هنا أخيرا! أنت هنا أخيرا!».

حضر «الخنزير البري» ليتناول الغداء مع الســـيد آشـــوك وبنكي مدام، على كل حال، كان هذا عمهما حالما رأيته يدخل المنـــزل لتنـــاول الغداء، ذهبـــت إلى المطبخ وقلت للمشـــرف: «إنني أحب الســـيد آشـــوك حبا جما، عليك أن تدعني أقدم له الغداء!» وافق الطباخ، وحصلت على الفرصة الأولى للنظر إلى «الخنزير البري»، بعد ســـنوات. كان يبدو أكبر ســـنا مما أتذكـــر، وأكثر انحناء، ولكن أســـنانه مازالت كما كانت تماما: حادة وســـوداء، واثنتان منها معقوفتان بشكل واضح، كانتا قد تقوســـتا إلى الأعلى من الجانبين. تناولـــوا الغداء في غرفة الطعام، مكان فخم، بأسقف عالية، بها قطع من الأثاث الفاخر ذي الطراز الكلاسيكي، طُرِحت هنا وهناك، وثريا ضخمة.

إنه قصر جميل ذو طابع قديم، قال الســـيد آشوك: «كل شيء هنا رائع».

«ماعدا الثريا تبدو نوعا ما مبتذلة». أردفت بنكي مدام.

«والدك يحب الثريات». قال «الخنزير البري».

«هـل كنت تعلم أنه كان يريد أن يضع واحدة هنا في الحمَّام، صدقني، أنا جاد في قولي!».

عندما أخرج المشـرف الأطباق ووضعهـا على الطاولة، نظر إليها وقال: «أليس لديكم أي طبق نباتي؟ أنا لا آكل اللحوم».

«لم أسـمع قط أن أحدا من مـلاك الأراضي كان نباتيا» قال (الخنزيـر البري). «إن هـذا ليس طبيعيا. أنـت تحتاج اللحوم لتقويتك». فتح فمه وأظهر أسنانه المعقوفة.

«أنـا لا أؤمـن بذبح الحيوانات سـدى. تعرَّفـت على بعض النباتيين في أمريكا، وأعتقد أنهم على حق».

«مـا هذه الأفكار المجنونة التي تكتسـبونها أنتم أيها الشـباب؟» تساءل الرجل العجوز. «أنت من ملاك الأراضي لا يجوز لك أن تعتنق هذه الأفكار. البراهما[١٨] هم الذين يكونون نباتيين، وليس نحن».

بعد الغداء غسـلت الأطباق، وسـاعدت المشـرف في إعداد الشاي. وكان هناك من يقوم على خدمة سيدي ؛ حان الآن الوقت لرؤية أسرتي. خرجت من القصر عن طريق الباب الخلفي.

حسـنا، لك أن تتخيل كيف اسـتقبلتني أسرتي، لقد أتت كل أسـرتي إلى القصر، أحاطوا الهوندا سيتي، يتفحصونها بفخر، على الرغم من خوفهم الشديد أن يلمسوها.

رفع كيشان يده. لم أكن قد رأيته منذ غادر دهانباد وعاد إلى

---

(١٨) هـم أرقى طبقات المجتمع الهندي ولهم خبرة واسـعة في كتـب الفيداس، وهم من الكهنة والرهبان وسدنة المعابد الهندوسية، لهم عادات غذائية صارمة [المترجم].

القريــة ليعمل في الحقول، كان هذا منذ ثلاثة أشــهر. انحنيت ولمســت قدميه، وبقيت عند قدميه لثوانٍ أكثر مما ينبغي، لأنني كنت أعلم جيدا أنه في اللحظة التي ســأنهض فيها ســيعنفني ويشتمني، فأنا لم أبعث النقود إليهم في الشهرين الماضيين.

«أوه، لقد تذكر الآن أســرته وأخيرا!» قال هذا وهزني بعيدا عن قدميه. «هل فكر فينا ولو مرة واحدة؟».

«سامحني، يا أخي».

«أنت لم تبعث أي نقود منذ أشهر. لقد نسيت اتفاقنا».

«سامحني، سامحني».

لكنهم لم يكونوا بالفعل غاضبين. إنها المرة الأولى التي أحظى فيها باهتمام أكثر من الجاموســة المائية، ومن الطبيعي أن التي كانت تبالــغ في الهرج والمرج، هي الجدة كاســوم، التي واصلت الضحك وهي تحك ساعديها.

أوه، كــم كنت معتادة على حشــو فمك بالحلويــات عندما كنت طفــلا، قالت ذلك وهي تحــاول أن تضغط على خدَّي. كان خوفها من زيي الرســمي، يمنعها من لمســي في أي مكانٍ آخر. وأؤكد لك أنهم كانوا على وشــك حملي على ظهورهم والســير بي إلى البيت القديم. كان الجيران في انتظاري ليروا الزي الرسمي الخاص بي.

قدموني للأطفــال الذين ولِدوا في غيابــي، وأجبروني على تقبيل جباههم. عمتي ليلى رُزقت بطفلين منذ رحلت عن القرية، وزوجــة ابــن عمي ليلى، رُزقــت بمولود. إن الأســرة قد كبرت، والحاجــات، طبعــا، ازدادت. وكلهــم كانوا يؤنبوننــي على عدم إرسالي النقود لهم شهريا.

ضربت كاسوم رأسها بقبضتها، وبدأت تنتحب عند الجيران. «حفيدي لديه وظيفة، ومـــازال يجبرني على العمل. هكذا يكون مصير امرأة عجوز في هذه الدنيا».

«زوِّجيه!» صـــاح الجيران. «إنها الطريقـــة الوحيدة لترويض الأشخاص الذين على شاكلته!».

«نعم» ردت كاسوم. «نعم، هذه فكرة جيدة».

ابتسمت وهي تحك ساعديها «فكرة جيدة للغاية».

كان لدى كيشـــان الكثير من الأخبـــار ليرويها لي، وبما أننا في «الظلام»، فإن كل الأخبار كانت ســـيئة. الاشتراكي الكبير كان فاســـدا كالعادة، الحروب بين الناكسال وملاك الأراضي صـــارت أكثر دموية. والناس الذين ليس لهم شـــأن كبير مثلنا ينحصـــرون بينهما. كانت هناك جيوش خاصة لدى كل طرف، تلاحق الناس الذين يشكون أنهم يتعاطفون مع الطرف الآخر فيطلقون النار عليهم أو يعذبونهم.

«أصبحت الحياة هنا كالجحيم»، قال كيشان: «نحن نغبطك على أنك خارج هذه المعمعة، لديك الآن زيٌّ رسمي، وتعمل لدى سيد طيب».

لقد تغير كيشان. أصبح أكثر هزالا، وأغمق لونا، لقد برزت أوتار رقبته بوضوح على تجويف النحر. لقد أصبح فجأة أبي.

رأيت كاسوم تضحك وتحك ساعديها وتتحدث عن زواجي. لقد قدمت لي الغداء بنفسها. كما غرفت الكاري ووضعته فوق طبقـــي - أعدت الدجاج لأجلي فقط - وقالت: «ســـوف نقوم بترتيبات الزواج فيما بعد، هذه السنة، مفهوم، لقد وجدنا لك

العروس، جميلة وممتلئة كالبطة. بمجرد أن تطمث، يمكنها أن تأتي هنا».

كان أمامي اللحم والعظام بلون أحمر من مرقة الكاري، كانت تبدو لي كأنهم قدموا لي لحما من جسد كيشان نفسه لتحضير هذه الوجبة لي.

«أعطيني وقتا أطول. لست على استعداد لأن أتزوج» قلت لجدتي. وأنا أنظر إلى قطعة كبيرة من اللحم الأحمر.

سقط فكُّها. «ماذا تقصد، ليس بعد؟ سوف تفعل ما نريد». ابتسمَتْ. «الآن تناول طعامك يا عزيزي. لقد طهوت الدجاجة لأجلك أنت فقط».

قلت: «كلا».

«كُلْها».

دفعت الطبق بالقرب مني.

كل من كان في البيت توقف لينظر إلى المشادة التي نشأت بيننا.

نظرت الجدة إليَّ شزرا: «ومن تكون أنت، من البراهما؟ كُلْ، كُلْ».

«لا!» دفعت الطبق بقوة بحيث طار إلى زاوية الغرفة واصطدم بالحائط وسال الكاري الأحمر على الأرض.

«قلت لك، لن أتزوج!»

صعقت إلى حد أنها لم تستطع الصراخ. نهض كيشان وحاول أن يوقفني وأنا أهم بالمغادرة، لكنني دفعته جانبا فوقع أرضا، وخرجت من المنزل.

جـــرى الأطفال معي إلى الخارج، أطفـــالٌ قذرون ومزعجون، هؤلاء ولدوا من عمة أو أخرى لا أود أن أعرف أسماءهم، وليس لي رغبة في لمس شـــعرهم. شيئا فشيئا وصلتهم الرسالة وعادوا أدراجهم.

تركت المعبد ورائي، والســـوق، والخنازيـــر، ومجاري الصرف الصحـــي. حتـــى أصبحت وحيدا عنـــد البركة، صـــارت القلعة السوداء فوق الهضبة أمامي.

عند طرف الماء جلست، أصر بأسناني.

لم أستطع التوقف عن التفكير في جسد كيشان. كانوا يلتهمونه حيا! ســـوف يفعلون الشيء ذاته الذي فعلوه مع أبي، يغرفونه من الداخـــل ويتركونه ضعيفا لا حول لـــه ولا قوة، حتى يصاب بداء السل ويموت على أرضية المستشـــفى الحكومي، بانتظار طبيب يأتي لمعاينته، يبصق الدم على هذا الحائط أو ذاك!

كان هناك صوت رشـــات من الماء. أخرجت الجاموسة المائية رأســـها المغطى بالزنابق المائية من البركـــة، اختلس النظر إلي. وقف طائر الكركي على ساق واحدة وأخذ يراقبني.

مشـــيت حتى وصل الماء إلى رقبتي، ثم ســـبحت عابرا أزهار اللوتس والزنابق المائية، والجاموســـة المائيـــة، وأفراخ الضفادع، والأسماك، والصخور العملاقة التي سقطت من القلعة.

وفي الأعالي عند المتاريس المكســـورة، تجمَّعت القردة لتنظر إليَّ، لقد بدأت بالتسلق على الهضبة.

* * *

أنت الآن تعرف مدى شـــغفي بقراءة الشعر، وبالأخص أشعار

الشـــعراء الأربعة المسلمين الذين يعتبرون أعظم الشعراء قاطبة. إقبال، الذي هو أحد الأربعة، قد كتب ذلك الشـــعر الاســـتثنائي الذي يتخيل فيه أنه هو الشـــيطان، يطالب بحقوقه في اللحظة التي يواجهه الله فيضعف الشـــيطان. كان الشيطان في وقت ما وفق مفهوم المســـلمين مخلصا لله ثم عصاه وخرج عن أمره. هذا ما نظمه إقبال شعرا. أنا لا أتذكر كلمات الشعر بالضبط ولكنها تقول ما معناه:

يقـــول اللـــه: أنا القـــوي، أنا الكبيـــر. عد وكـــن خادمي مرة أخرى.

يقول الشيطان: ها ها!

عندما أتذكر شيطان إقبال، وهذا ما أفعله غالبا، وأنا مستلق هنـــا تحت الثريـــا، أتذكر هيئة رجل ضئيل البنيـــة في زيٍّ كاكيٍّ اللون مبلل بالماء يتسلق مدخل القلعة السوداء.

هـــا هو الآن يقف هناك، إحدى قدميـــه على متاريس القلعة السوداء، محاطا بمجموعة من القردة المندهشة.

في أعلى الســـماوات الزرقاء، يبســـط الله كفه فوق السهول، عارضا لهذا الرجل الضئيل لاكشامنغهر ورافدها الصغير من نهر غانجا، وكل ما يمتد أبعد من ذلك: مليونان من هذه القرى، ومليار من البشر على شاكلته. والله يسأل هذا الشخص الضئيل البنية:

أليس كل هذا مذهلا؟ أليس كل هذا عظيما؟ ألســـت ممنونا أن تكون خادمي؟

وبعدها أرى هذا الرجل الضئيل البنية والأسود اللون في زيِّه الكاكـــي المبلل ينتفض من الغضب، كما لـــو أصابته لوثة عقلية،

وذلك قبل أن يُظهر لله القدير إيماءة تدل على الشكرعلى خلق العالم بهذه الطريقة بالذات، بدلا من كل الطرق الأخرى التي كان في الإمكان أن تخلق بها.

أرى الرجل الضئيل البنية في زيه الكاكي اللون يبصق على لاكشامنغهر مرة بعد أخرى، بينما أنظر إلى تلك الشفرات السوداء للمروحة الصغيرة تقسِّم النور من الثريا بالتقطيع مرة بعد أخرى.

* * *

بعد نصف ساعة، نزلت من على الهضبة، وذهبت مباشرة إلى منزل «اللقلق». السيد آشوك وبنكي مدام كانا في انتظاري بجانب الهوندا سيتي.

«في أي جهنم كنت أيها السائق؟» صرخت فيَّ بنكي مدام. «كنا في انتظارك هنا».

«آسف، مدام، قلت بابتسامة عريضة. «أنا آسف جدا».

«ليكن لديك بعض الشفقة، بنكي. كان في زيارة لأهله. أنت تدركين كم هم قريبون من أسرهم في «الظلام».

كاسوم، وعمتي لوتو، وكل النساء الأخريات قد تجمعن عند جانب الطريق عند مغادرتنا المكان. كلهن كن يشهقن بتعجب، مستغربات من عدم مجيئي للاعتذار وطلب المعذرة، رأيت كاسوم تلوح بقبضتها المرفوعة نحوي.

وضعت قدمي على دواسة السرعة وقدت السيارة متجاوزا إياهن.

مررنا من خلال ميدان السوق، وألقيت نظرة على محل الشاي: العناكب البشرية كانوا يشتغلون عند الطاولات، حمالو

الريكشو قد اصطفوا في طابور في الخلف، وعلى الجانب الآخر من النهر كان قد ظهر الرجل على الدراجة مع الملصق وقد بدأ لتوه جولته للإعلان عن فيلم إباحي.

قدتُ السيارة بين النباتات الخضراء، وخلال الشجيرات القصيرة والأشجار العالية، والجواميس التي تتبختر في البرك الموحلة، مررنا على المساحات الخضراء، على النباتات المتسلقة، وحقول الأرز، وأشجار جوز الهند، والموز، وأشجار النيم(١٩)" والبانيان(٢٠)، والحشائش البرية التي تطل منها وجوه الجواميس المائية وهي تختلس النظرات إلينا. وعلى جانب الطريق، كان هناك صبي صغير قد ركب ظهر الجاموس وهو نصف عار، وعندما رآنا حرك قبضته وصاح بمرح، وأنا أيضا كنت أود أن أفعل الشيء نفسه وأصيح، أجل، أنا أيضا أشعر بالسرور مثلك! لن أعود إلى هناك أبدا!

«هل تستطيع أن تتكلم الآن، آشوكي؟ هل تستطيع الإجابة عن سؤالي؟».

«حسنا. افهمي، عندما عدت إلى هنا، كنت فعلا أظن أنه سوف أمكث لشهرين، بنكي. لكن... الأمور قد تغيرت في الهند كثيرا. هناك العديد من الأشياء التي أستطيع القيام بها هنا أكثر بكثير من عملي في نيويورك».

«آشوكي، هذا هراء».

---

(١٩) شجرة يصل ارتفاعها إلى ثلاثين مترا ذات قشرة بنية متشققة، تتجمع الأوراق عند نهايات الأغصان، يصل طول الورقة إلى ثلاثين سنتيمترا [المترجم].

(٢٠) تنبت في البداية كشجرة عادية ثم تتحدر فروعها إلى الأرض وتكون لها جذور. أقدم شجرة من هذا النوع يبلغ عمرها ٥٠٠ سنة ويبلغ قطر جذعها نحو ٣٠ مترا ولها ١٣٠٠ فرع. ويمكن أن يجلس في ظلها ما يزيد على ١٠٠٠ شخص [المترجم].

«لا، ليس هراء. حقيقة، ليس هراء. الطريقة التي تغير الأمور في الهند الآن، ستجعل هذه المنطقة تصبح كأمريكا في غضون عشرة أعوام. بالإضافة إلى هذا، أنا أحب هذا المكان أكثر. لدينا أناس هنا يحرصون على راحتنا، السائقون والحراس والمدلكون. هل ستجدين في نيويورك أحدا يأتي بالشاي والبسكويت لك وأنت مستلقية على السرير، كما يفعل رام باهادور لنا؟ أنت تعرفين أنه يخدم أسرتي منذ ثلاثين عاما، نحن نسميه خادما ولكنه بات جزءا من العائلة. وجده أبي ذات مرة يتجول في دهانباد ومعه بندقية. توقف عن الكلام فجأة.

«هل رأيت هذا، بنكي؟».

«ماذا؟».

«هل رأيت ما فعله السائق؟».

غابت عن قلبي نبضة من نبضاته. لم تكن لدي أي فكرة إن كنت ارتكبت خطأ ما. مال السيد آشوك إلى الأمام وقال: «أيها السائق، أنت لامست عينك بأصبعك منذ هنيهة، أليس كذلك؟».

«نعم، سيدي».

«هل فهمت، بنكي، لقد مررنا على معبد»، أشار السيد آشوك إلى معبد طويل، ذي طراز مخروطي وعلى جوانبه رسمت أفاع سوداء متداخلة كنا قد تركناها خلفنا للتو، «لذلك السائق..».

لمس كتفي بيده.

«ما اسمك؟».

«بالرام».

«لذا لمس بالرام عينه كإشارة على احترام هذه المقدسات. إن هؤلاء القرويين من «الظلام» شديدو التديُّن».

كان يبدو أن هذا الشيء قد ترك في نفسهما انطباعا مؤثرا، فوضعت إصبعي على عيني مرة أخرى بعد ذلك.

«لم هذا أيها السائق؟ أنا لا أرى أي معبد بالجوار».

«... لقد مررنا على شجرة مقدسة، سيدي. كنت أقدم احترامي لها».

«أسمعت هذا؟ إنهم يعبدون الطبيعة. إنه رائع، أليس كذلك؟».

تابعا بتيقظ ملاحظة أي معبد أو شجرة نَمر عليها، فيلتفتان إليَّ بين حين وآخر يلتمسان انعكاس التقوى عليَّ ، وقد جعلت التقوى تظهر عليَّ بالطبع جلية وبإسهاب: أولا بدأتُ بلمس عيني، وبعدها لمست رقبتي، ثم لمست نحري، حتى لمست حلمتي أيضا.

كانا مقتنعين بأنني أكثر خادم متدين على وجه الأرض. «لك هذا، يا رام بيرساد!».

كان طريقنا إلى دهانباد مسدودا. كانت هناك شاحنة قد وقفت على الطريق. بها رجال يلفون رؤوسهم بشرائط حمراء يطلقون شعارات.

«انهضوا ضد الأغنياء! ادعموا الاشتراكي الكبير. اطردوا ملاك الأراضي!».

بعد قليل وصلت شاحنتان بهما رجال بعصابات رأس خضراء اللون، وبدأوا يصرخون في الرجال الموجودين بالشاحنة الأولى. كانت الحرب على وشك الاندلاع.

«ما الذي يحصل هناك؟» بنكي مدام تساءلت بنبرة من الخوف في صوتها.

«اهدئـــي» قال لها. «إنه موســـم الانتخابــات، هذا كل ما في الأمر».

الآن، لكـــي أوضح لك كل شـــيء عـــن الصـــراخ الصادر من الشـــاحنات، عليَّ أن أخبرك عن كل شـــيء فـــي الديموقراطية، الشـــيء الذي أنتـــم الصينيين، كما أعرف، لســـتم معتادين عليه تماما. لكن هذا يجب أن يؤجل إلى الغد، معاليكم.

الساعة الآن ٢:٤٤ صباحا.

إنه الوقـــت الذي يخمد فيـــه، مدمنو المخـــدرات والمقاولون المقيمون في بانغلور.

صباح اليوم الرابع

لمكتب...

لكننا لسـنا في حاجة إلى هذه الرسـميات بعد الآن، أليس كذلك، يا سيد جياباو؟

إن كلا منا يعرف الآخر وأخشـى أنه إلى جانب ذلـك فـإنه لاوقت لدينا لهذه الرسميات.

سوف تكون جلسة مقتضبة اليوم، يا سيد رئيس الوزراء، كنت أستمع من المذياع إلى برنامج عن هذا الرجل الذي يدعى كاسترو الذي رمى الأغنياء خارج بلده وحرر شـعبه. أحب الاستماع إلى البرامج التي تتحدث عن الرجال العظماء، وقبل أن أنتبه، قاربت السـاعة الثانية صباحا! أردت أن أسـمع أكثر عن كاسترو هذا، لكن لأجلك أنت، أغلقت المذياع. سوف نتابع القصة بالضبط من حيث توقفنا.

نعم، الديموقراطية!

الآن، يا سـيد جياباو، إن الكتيب الذي سـيعطيك إياه رئيس الـوزراء لتأخذه معك لا شـك أنه سـيحتوي على جزء كبير عن عظمة الديموقراطية في الهند، منظر مذهل لبليون هندي وهم يدلون بأصواتهم ليحددوا مسـتقبلهم، بحرية تامة وفقا لحقهم الدستوري، وهلم جرا وهلم جرا.

أعتقـد أنكم أنتـم ذوو البشـرة الصفـراء، علـى الرغم مـن نجاحكم في مجـاري الصرف الصحي، ومياه الشـرب، والميداليات الأولمبية الذهبية، فإنكم لا تملكون الديموقراطية. أحد السياسيين قال على المذياع إنه لهذا السبب سوف يتغلب الهنود على الصينيين: ربما لا نملك مجاري الصرف الصحي،

ولا مياها صالحة للشـــرب، ولا الميداليـــات الأولمبية الذهبية، لكننا نملك الديموقراطية.

لو كنت أنا الـــذي يريد أن يبني بلدا، لكنت أتولى أمر أنابيب المجاري أولا، ثـــم الديموقراطية، وبعدها أوزع الكتيبات وتماثيل غاندي على الآخرين، ولكن ما الذي أعرفه أنا؟ إني مجرد قاتل!

لا مشـــكلة لدي مع الديموقراطية، سيد جياباو. حـــاشا، أنا مدينٌ للديموقراطية بالكثير، في الواقع، حتى تحديد يوم ميلادي كان راجعا للديموقراطية. إن هذا يعود الى يوم كنت أكسر الفحم وأمســـح الطاولات في محل الشـــاي في لاكسمنغارا. كان صوت تصفيق يأتي من الناحية التي علقت فيها صورة غاندي، صاحب محل الشاي العجوز بدأ يصرخ في جميع العمال في دكانه ليتركوا ما بأيديهم ويتجهوا إلى المدرسة.

كان يجلس على مكتب المدرس رجلٌ بالزي الحكومي، مع دفترٍ طويل وقلم أسود، وصار يسأل كل واحدٍ منا سؤالين:

«الاسم».

«بالرام حلوائي».

«العمر».

«لا عمر».

«أليس لديك تاريخ ميلاد؟».

«كلا، يا سيدي، والداي لم يدونا التاريخ».

نظـــر إليَّ وقال: «أعتقد أنك في الثامنة عشـــرة من عمرك. إني أرى أنك أصبحت اليوم في الثامنة عشـــرة من عمرك. لقد غاب عن ذهنك تاريخ ميلادك ليس إلا، أليس كذلك؟».

انحنيت له: «هذا صحيح، سيدي. لقد نسيت، إن يوم ميلادي هو اليوم».

«ولدٌ نبيه».

وبعدها دوَّن التاريخ في دفتره وطلب مني أن أرحل. هكذا صار عندي يوم ميلاد من قبل الحكومة.

كان لا بد أن أكون في الثامنة عشرة من عمري. بل كل الذين كانوا معي في محل الشاي يجب أن يكونوا في الثامنة عشرة، وهو العمر القانوني للانتخاب. هناك انتخابات قادمة، وصاحب محل الشاي قد باعنا لهم. باع بصمات أصابعنا - تلك البصمات التي تصبغ بالحبر والتي يضعها الأمي على ورقة الاقتراع كدليل على تصويته - لقد عرفت ذلك حين كنت أسترق السمع لحديث أحد الزبائن. كان من المفترض أن يكون هذا انتخابا مغلقا؛ وقد حصل مقابل صوت كل واحدٍ منا على سعرٍ مجز من حزب الاشتراكي الكبير.

في وقت إجراء تلك الانتخابات كان قد مر عقد واحد على رئاسة الاشتراكي الكبير لـ «الظلام».

كان شعار حزبه، زوجان من الأيدي يكسران الأغلال - ويرمز هذا إلى أن الفقراء يتغلبون على الأغنياء - كان قد طُبع باللون الأسود على أوراق ووضِع على كل جدران المكاتب الحكومية في «الظلام». بعض الزبائن في محل الشاي يقولون إن الاشتراكي الكبير بدأ بداية طيبة. لقد أتى لتحسين الأوضاع، لكن طين الأم غانجا قد سحبه إلى الأعماق. وآخرون يقولون إنه كان قذرا منذ البداية، لكنه قد غشنا والآن فقط

عرفناه على حقيقته. مهما كانت القضية، فإنه من الواضح أن أحدا لا يستطيع الآن أن ينحيه عن السلطة. لقد سيطر على «الظلام» بفوزه في الانتخابات مرة تلو الأخرى، ولكن الآن ضعفت سيطرته.

لنأخذ على سبيل المثال، مجموع ثلاث وتسعين قضية إجرامية، للقتل، والاعتداء، والسرقات الكبرى، وتهريب الأسلحة، والكثير غير ذلك من الاتهامات الأقل خطورة، كلها موجهة للاشتراكي الكبير ووزرائه وتنتظر البت فيها في الوقت الراهن. ليس من السهل إدانتهم عندما تصدر الأحكام من القضاة في «الظلام»، مع ذلك فإن ثلاثا من الإدانات قد حررت بشأن ثلاثة من الوزراء هم حاليا مودعون في السجون، ولكنهم مازالوا وزراء. الاشتراكي الكبير نفسه يقال إنه اختلس بليون روبية من «الظلام»، وحوَّل الأموال في حسابٍ مصرفي ببلدٍ جميل وصغير في أوروبا مملوء بأناس ذوي بشرة بيضاء وبأموال سوداء.

الآن، وقد حُدد تاريخ الانتخابات وأذيع على المذياع، بدأت حُمَّى الانتخابات تنتشر مرة أخرى. هذه هي الأنواع الثلاثة من الحمى في هذا البلد، يا سيدي: حمى التيفوئيد، والكوليرا، والانتخابات. وهذه الأخيرة هي أسوؤها على الإطلاق؛ هذه الحمى تجعل الناس يتكلمون بكثرة عن أشياء ليس لهم فيها أي قرار. يبدو أن أعداء الاشتراكي الكبير في هذه الانتخابات أقوى مما كانوا عليه في الانتخابات السابقة. لقد صمموا الكتيبات، واستقلوا الحافلات والشاحنات مع مكبرات الصوت، وقد أعلنوا

أنهم سيسـقطونه ويسـحبون نهر الغانجا وكل مـن يعيش على ضفافه خارج «الظلام»، إلى النور.

عند محل الشاي، اندلعت الإشاعات بهياج شديد. كان الناس يرتشفون الشاي ويناقشون الأمور نفسها المرة تلو الأخرى.

هل سـينجحون هذه المرة؟ هل سـيهزمون الاشتراكي الكبير وينجحـون في الانتخابات؟ هل تمكنوا مـن جمع ما يكفيهم من المال ليرشوا الشرطة، ويشتروا البصمات ليفوزوا؟ الناخبون في لكسمانغارا يناقشون الانتخابات مثلما يناقش المخصيون الكاما سوترا[٢١].

ذات صباح رأيت شـرطيا يكتب شـعارا علـى الحائط خارج المعبد بفرشاة صبغ أحمر.

هل تريد طرقا معبدة، مياها نظيفة، مستشفيات جيدة؟ إذن أعط صوتك للاشتراكي الكبير!

لعدة سـنوات كان هناك اتفاق بين الاشتراكي الكبير ومُلاك الأراضـي - كل من فـي القرية يعرف هذا - لكن هذه السـنة طـرأ ما عكر صفو هذا الاتفاق، لـذا اجتمع الحيوانات الأربعة واستحدثوا حزبا لأنفسهم.

وفي الأسفل تجد الشعار الذي كتبه الشرطي:

الجبهة التقدمية الاشتراكية لعموم الهند.

«الجناح اللينيني»

كان هذا هو الاسم الجديد لحزب مُلاك الأراضي.

قبل أسابيع من الانتخابات، كانت شاحنات تتخبط في شوارع

(٢١) نصوص من الهندوسية القديمة حول الجنس [المترجم].

لاكســمنغارا القذرة، تغص بأعداد كثيرة من الشــباب ممسكين بمكبرات الصوت: « تصدُّوا للأغنياء!».

فيجــاي، قاطع تذاكــر الحافلة، كان دائمــا على إحدى هذه الشــاحنات. كان الآن قــد تخلى عن وظيفتــه القديمة والتحق بالسياســة. لم يكن هذا الشيء بالغريب عن طبيعة فيجاي. في كل مرة تراه، يكون قد أحرز تقدما لنفســه. لقد وِلدَ سياســيا. ربط رأســه بشــريط أحمر اللون ليظهر نفسه كأحد المناصرين للاشــتراكي العظيــم، وكان يلقــي خُطبا كل صبــاح أمام محل الشــاي. للانتقام منهــم كان ملاك الأراضي يأتون بشــاحنات مملوءة بالرجال. ومن على تلك الشاحنات كان رجال يصرخون: «الطرق! الماء! المستشفيات! انتخب الاشتراكي الكبير!»

توقف إرســال الشــاحنات مــن قِبَل الجانبين قبل أســبوع من الانتخابات. سمعت بما حدث في أثناء قيامي بتنظيف الطاولات.

خدعة الحيوانات قد نجحت. توصل الاشــتراكي الكبير إلى اتفاق مع الأهالي.

انحنى فيجاي ولمس قدمي «اللقلق» في تظاهرة حاشدة أمام محل الشــاي. يبدو أن كل الخلافات قد حسمت الآن، وقد عين «اللقلق» رئيسا لفرع لاكســمنغارا، في حزب الاشتراكي الكبير. وكان فيجاي سيصبح نائبه.

انتهت التجمعات. واحتفل الكاهن عن طريق البوجا(٢٢) لصلاة الشــكر للآلهة على النجاح الذي أحرزه الاشتراكي الكبير؛ ووزع

---

(٢٢) طقس ديني يمارســه الهندوس في مناســبات عديدة من أجل الصــلاة أو إظهار الاحترام للآلهة [المترجم].

برياني اللحم في صحون ورقية أمام المعبد؛ وفي المساء، قدم الخمر بالمجان للجميع. في صباح اليوم التالي جاءت الشرطة إلى القرية وسط زوبعة من الغبار. وفي السوق قرأ أحد الضباط تعليمات بخصوص التصويت.

بغض النظر عن الشيء الذي رتب لنا الآن، فهو لا بد أن يكون لمصلحتنا. سيحاول أعداء الاشتراكي العظيم سرقة الانتخابات منا نحن الفقراء، ونزع السلطة منا، وإعادة الأغلال إلينا، تلك الأغلال التي أتى الاشتراكي العظيم لينزعها بكل حب من أيدينا نحن الفقراء. هل فهمنا ؟ وبعد ذلك، ووسط زوبعة أخرى من الغبار، غادرت سيارات الشرطة.

«هكذا كانت الأمور تجري دائما»، قالها لي أبي تلك الليلة. «لقد واكبت اثنتي عشرة جولة من الانتخابات - خمس عامة، وخمس على مستوى الولاية، واثنتان محليتان - وفي اثنتي عشرة مرة كان هناك شخص آخر يقوم بالتصويت نيابة عني. لقد سمعت أن الناس في الأماكن الأخرى من الهند يصوتون بأنفسهم، أليس هذا أمرا رائعا؟».

في يوم الانتخابات، فقد رجلٌ عقله.

هذا يحدث كل مرة، وفي كل الانتخابات في «الظلام».

أحد زملاء أبي، وهو رجلٌ ضئيل البنية ذو بشرة داكنة والذي لم يعره أحدٌ أي اهتمام حتى تلك اللحظة، كان قد تجمع حوله حمالو الريكشو في محاولة ضعيفة منهم ليثنوه عن عمله. لقد رأوا هذا يحدث في السابق. ولكن لن يكون الآن باستطاعتهم وقف الرجل.

بين تارة وأخرى، حتى في مكانٍ مثل لاكسمنغارا، هناك

بصيص من شعاع الشمس يسطع من حين لآخر.

ربما كل هذه الشعارات والملصقات على الجدران قد تغلغلت إلى رأس الرجل. فيعتبر نفسه ربيب الديموقراطية في الهند، فيرغب في الإدلاء بصوته. هذا هو الحد الذي وصل إليه حمال الريكشو هذا. أعلن نفسه شخصا مارقا في منطقة «الظلام»، وهكذا صنع لنفسه نهايتها في ذلك اليوم.

بدأ بالتوجه مباشرة إلى صندوق الاقتراع في المدرسة. وصاح: «المفروض أن أقف في وجه الأغنياء، أليس كذلك؟». استمر يصيح بأعلى صوته: «أليس هذا ما يكررون قوله لنا؟».

عندما وصل إلى هناك، كان مناصرو الاشتراكي الكبير قد نصبوا سجلا يُبين أعداد الناخبين على سبورة سوداء، وقد حسبوا أعداد الناخبين ٢٣٤١ ناخبا في ذلك الصندوق. الكل انتخب الاشتراكي الكبير. فيجاي قاطع التذاكر في الحافلة كان على السلم يثبت بالمطرقة لوحة على الحائط عليها رمز الاشتراكي الكبير «الأيدي تكسر الأغلال». يقول الشعار:

نبارك للاشتراكي العظيم فوزه بالإجماع في لاكشامنغهر!

أسقط فيجاي المطرقة، والمسامير، واللوحة حين رأى حمال الريكشو.

«ما الذي تفعله هنا؟».

« أدلي بصوتي،» رد عليه بصوت عال: «أليس اليوم يوم الانتخابات؟».

لا أستطيع أن أتثبت من الذي حدث بعد ذلك، على الرغم من أنني كنت خلفه ببضع أقدام. تجمع حشدٌ كبير على بعد مسافة

لمشاهدة ما سـيحدث له، ولكن عندما بدأت الشرطة بتفريقنا، اندفعنا نجري مذعورين. لذا لم أر ما فعلوه بهذا الرجل الشجاع المجنون.

سمعت عما حدث في اليوم التالي، عندما كنت أتظاهر بإزالة بقعة من سطح طاولة ما.

فيجاي والشرطي طرحا حمال الريكشو أرضا وبدآ يضربانه بالعصـي، وعندما كان يحاول ضربهما أخذا يرفسـانه وتناوب الاثنان، فيجاي يضربه والشـرطي يرفس وجهـه بعنف، ويعود فيجاي يكرر العملية. فيجاي يضربه والشرطي يدوس على وجهه. وبعد فترةٍ توقف جسـد حمال الريكشـو عن الالتواء والمقاومة، ولكنهما استمرا يدوسان جسده حتى التصق بالأرض.

لو سـمحت لي بأن أعـود دقيقة لذاك الملصـق « مطلوب»، معاليكـم. لا بأس أن أدعـى مجرما، ليس لدي أي احتجاج على هذا. إنها الحقيقة: أنا مذنب، أنا ساقط. ولكن أن أُدعى مجرما من قِبَل الشرطة!

إنها فعلا مزحة داعرة.

إليـك هذا التذكار الصغير للاحتفاظ به عند زيارتك للهند. بالـرام حلوائي رجلٌ مختفٍ، هارب، شـخصٌ مجهول السـكن بالنسبة إلى الشرطة، صحيح؟

ها!

إن الشـرطة تعرف بالضبط أين تجدني. سـوف تراني عند صندوق الاقتراع أُدلي بصوتي بكل إخلاص في يوم الانتخابات في لاكشـامنغهر في مقاطعة غايا، كما كنت أفعل في كل الانتخابات

العامة، والانتخابات المحلية منذ بلوغي الثامنة عشرة.

أنـــا أكثر الناخبين إخلاصا فـــي الهند، ولكنني لم أر صندوق الاقتراع حتى الآن.

* * *

الآن، مـــع أن موعد الانتخابات كان قريبـــا في دهانباد، فإن الحيـــاة كانت تســـير كالمعتاد داخل جدران منـــزل «اللقلق». كان يتهـــد في أثناء تدليك ســـاقيه فـــي الماء الدافـــئ؛ كانت ألعاب الكريكيت وتنس الريشـــة مازالت تقام حوله؛ وأنا مازلت أغسل وأنظف الكلبتين البوميرانيتين بكل إخلاص.

وفي يـــوم من الأيام ظهر وجه مألوف عنـــد البوابة. فيجاي، قاطع التذاكرً في الحافلة من لاكســـمنغارا. بطل طفولتي، وهذه المـــرة كان يرتدي زيا جديدا، ملابس بيضاء، وعلى رأســـه قبعة نهرو بيضاء اللون أيضا، وفي أصابعه الثماني خواتم من الذهب الخالص!

كانت الخدمة الحكومية مجزية بالنسبة إليه.

انتظـــرت عند الباب وبـــدأت أراقب. خرج «اللقلق» بنفســـه ليقابل فيجاي، وانحنى أمامـــه، مالك الأراضي ينحني أمام ابن راعي الخنازير! إنها أعجوبة الديموقراطية!

بعد يومين، أتى الاشـــتراكي الكبير إلى المنزل. جميع من في المنزل كانوا في حالة اســـتنفار بسبب الزيارة. السيد آشوك عند البوابـــة، بانتظاره مـــع إكليلٍ من أزهار الياســـمين. والده وأخوه يقفان بجانبه.

وصلت سيارة عند البوابة، فُتح الباب، والوجه الذي كنت أراه

علـــى مليونٍ من الملصقـــات مذ كنت طفلا قد بـــرز منها، رأيت الوجنتين المنتفختين، والشعر الأبيض الشائك، والقرطين الثقيلين من الذهب.

كان فيجاي في ذلك اليوم، يلف رأســـه بشريط أحمر، ويرفع العلم ذا شـــعار الأغلال المكســـورة. وصاح: «يعيش الاشـــتراكي الكبير!».

طوى الرجل العظيم راحتيه وانحنى لمن حوله. وهو ذو وجهين ككل السياســـيين العظمـــاء من الهنود. وجه يقـــول لك إنه وقت الســـلام، وأنت يمكنك أن تنعم بالســـلام إذا اتبعت صاحب ذلك الوجـــه. ولكن الوجه ذاته يقول أيضـــا، بقليل من الامتعاض في الملامح، والذي يصبح عكس السلام: حينها يمكنه أن يرسم تلك التعابير على وجهك أنت، إن هو شاء ذلك.

وضع السيد آشوك الإكليل حول رقبة الرجل العظيم المكتنزة كمثل رقبة ثور.

قال «اللقلق»: «هذا ابني. لقد عاد منذ وقت قريب من أمريكا».

قرصَ الاشتراكي الكبير وجنتي السيد آشوك بين يديه.

«جميـــل. نحن نحتـــاج إلى مزيد من الشـــباب ليعودوا ويبنوا الهند، كي تصبح دولة عظمى».

وبعدها دخلوا المنزل، وأغلقت جميع الأبواب والنوافذ.

بعـــد برهةٍ خرج الاشـــتراكي الكبير إلى الفنـــاء يتبعه الرجل العجوز و«النمس» والسيد آشوك.

حاولت أن أســـترق السمع، لذا تظاهرت بأنني أكنس الأرض، بينما أقترب منهم ببطء. تقدمت إلى مســـافة كافية لســـماعهم،

عندئذٍ ربت الاشتراكي الكبير على ظهري وسأل:

«ماً اسمك يا بني؟».

ثم قال: «سـيدك يا بالرام يحاول أن يسـتخف بي. ما قولك في هذا ؟».

صُعِق السيد آشوك. وابتسم «اللقلق» بشيء من التكلف.

«مليون ونصف يعتبر كثيرا، يا سيد. يسعدنا أن نتوصل معك إلى تسوية ما».

أشاح الاشتراكي الكبير بيده كأنما يرفض هذا الالتماس.

«هراء. صارت لديك حيلة جيدة هنا، تأخذ الفحم من مناجم الحكومة بالمجـان. تحصل عليه أنت لأنني سـمحت لك بذلك، عندمـا وجدتكم كنتم ملاك أراض صغار فـي القرية، أنا الذي أتيت بكم إلى هنا، وأنا الذي صنعت منكم ما أنتم عليه اليوم، يا إلهي، أنتم الآن تغضبونني، وسوف تذهبون ثانية إلى تلك القرية. قلت لكم مليون ونصف وأنا أعني مليونا و..».

كان عليه أن يتوقف، كان يمضغ البان، والآن قد امتلأ فمه باللعاب الأحمر، الذي كان على وشـك أن يسـيل من فمه. التفت إليَّ ورسم شكل الوعاء بيده. أسرعت إلى الهوندا سيتي لأجلب البصاقة.

عندما عـدت إليه بالمبصقة، التفت إلـى «النمس» بكل برود وقال له: «بني، هلا أمسكت المبصقة لي؟».

أبى «النمس» أن يتحرك، لذا أخذ الاشتراكي الكبير البصاقة من يدي وحملها إليه.

«خذها، يا بني».

أخذها «النمس».

وبصق الاشتراكي الكبير في البصاقة ثلاث مرات.

كانت يد «النمس» ترتجف ؛ وقد تحول وجهه إلى اللون الأسود من شدة الخزي.

«شـكرا لك يا بني علـى هذا،» قال الاشـتراكي الكبير وهو يمسح شـفتيه. التفت إليَّ وهو يتحسس جبهته. « ما الذي كنت أقوله ؟».

ها هـو ذا. كان هـذا هو الجانـب الإيجابي في شـخصية الاشـتراكي الكبير. إنه يذل أسيادنا المتعجرفين، ولهذا نعود إلى التصويت له في كل مرة.

فـي تلك الليلة، ومرة أخرى بحجة كنـس الفناء، اقتربت من «اللقلق» وابنيه؛ كانوا يجلسـون على الدكة ويحملون أقداحا بها ذلك الشـراب الذهبـي وهم يتحدثون. كان السـيد موكيش قد انتهى من حديثه للتو؛ هز الرجل العجوز رأسه.

«لا يمكننا أن نفعل هذا، موكيش، نحن في حاجة إليه».

«إننـي أقول لـك، يا أبي. لم نعد في حاجـة إليه. يمكننا أن نذهب رأسا إلى دلهي. إن لدينا معارف هناك الآن».

«أنـا أتفق مع موكيش، يا أبي. علينـا ألا نجعله يعاملنا بهذا الأسلوب مرة أخرى وكأننا عبيده».

« اصمت آشوك. دعني وموكيش نناقش هذا الموضوع».

كنسـت الساحة مرتين بينما كنت أستمع. ورحتُ أثبِّت شبكة تنس الريشة الراخية لبنكي مدام، حتى أستطيع أن أكون بالقرب منهم.

ولكن عينَي النيبالي المرتابتين أمسـكت بي: «لا تتسـكع في

الفناء. اذهب واجلس في غرفتك وانتظر حتى يناديك الأسياد».
«حاضر».
حدَّق بي رام بهادور، لذا قلت: «حاضر، سيدي».
«فــي الواقع لدى الخدم، هــوس لمناداتهم بســيدي من قبل الخدم الآخرين».
فــي صباح اليوم التالي، في أثناء تجفيف فراء الكلبتين بودلز وكودلــز بعد غســلهما بالصابون، أتى رام بهادور إليَّ وســألني قائلا: «هل زرت دلهي ذات مرة؟».
أجبته بهزة من رأسي.
«سيذهبان إلى دلهي خلال أسبوع. السيد آشوك وبنكي مدام. سوف يمكثان هناك لمدة ثلاثة أشهر».
نزلت على ركبتَي ووضعت مجفف الشعر تحت سيقان كودلز، متظاهرا بعدم الاكتراث، وسألت بنبرة عادية: «لماذا؟».
هــز كتفيه غير مبالٍ. «من يعرف؟ نحن خدم فقط». مع ذلك، فإن هناك شيئا ما يعرفه.
«ســيأخذون ســائقا واحدا فقط معهم. وهذا السائق سوف يحصل على ثلاثة آلاف روبية في الشــهر، هذا ما سوف يعطونه كراتب في دلهي».
سقط مجفف الشعر من يدي: «هل هذا صحيح؟ ثلاثة آلاف؟».
«أجل».
«هل ســيأخذونني معهم، سيدي؟» نهضت من مكاني وسألته ملتمسا: «هل لك أن تجعلهم يأخذونني معهم؟».
«ســيأخذون رام بيرســاد»، قال وعلــى شــفتيه النيباليتين

استهزاء. «إلا إذا..».

«إلا إذا؟».

صار يعد النقود بين أصابعه.

خمسة آلاف روبية، وسوف يقنع «اللقلق» بأنني الرجل المناسب للاصطحاب إلى دلهي.

«خمسة آلاف روبية، من أين أحصل على هذا المبلغ من المال؟ فها هي أسرتي تسرق كل راتبي!».

«حسنا. في هذه الحالة، سيكون رام بيرساد. أما بالنسبة إليك» - أشار إلى الكلبتين كودلز وبودلز - «ستقوم بتنظيف الكلاب طوال حياتك، على ما أظن».

* * *

صحوت من النوم وأنا أشعر بحرقة في فتحتي منخري.

مازال الظلام مخيما. كان رام بيرساد قد استيقظ. كان جالسا على سريره، يقطع البصل على لوح خشبي، سمعت صوت تاك، تاك، تاك للسكينة وهي ترتطم باللوح.

لماذا يقطع البصل في هذا الوقت الباكر؟ فكرت، انقلبت على جنبي الآخر وأغلقت عيني مرة أخرى. كنت على وشك النوم غير أن صوت تاك تاك تاك للسكينة تضرب في اللوح يستمر بإلحاح.

إن هذا الرجل لديه سر ما.

مكثت في الفراش مستيقظا بينما كان الرجل على السرير يقطع البصل. أحاول أن أفك هذا السر.

ماالذي لاحظته على رام بيرساد في الأيام القليلة الماضية؟ لسبب ما كانت رائحة أنفاسه كريهة في الأيام القليلة الماضية.

حتى بنكى مدام اشتكت منه. توقف فجأة عن الأكل معنا، داخل المنــزل أو خارجه. حتى أيام الآحاد، حيــث يكون دجاج كان رام بيرساد يرفض الأكل معنا قائلا بأنه سبقنا وأكل، أو أنه لا يشعر بالجوع، أو أنه...

اســتمر تقطيع البصل، وأنا مســتمر فــي إضافة أفكار على أفكار في الظلام.

راقبتــه طوال اليوم. عندما اقترب المســاء، وكما توقعت، بدأ يتحرك صوب البوابة. من خلال حديثي مع الطباخ علمت أن رام بيرساد يخرج من المنزل كل مساء في الوقت نفسه. تبعته لمسافة. ذهب إلى مكان في المدينة لم أكن قد رأيته من قبل، ودخل عددا من الأزقة. وفي لحظة ما، رأيته يلتفت، كأنه يريد التأكد من أنه لا أحد يتبعه؛ ومن ثم أسرع كالسهم.

توقف عند مبنى ذي طابقين. كانت الجدران مسوّرة بنوافذ معدنية شبكية تتقسم إلى وحدات مربعة، سلسلة من الحنفيات الصغيرة الســوداء اللون قد نتأت من القضبان الحديد أسفل الجــدار. انحنى على الحنفية، غســل وجهــه، وتمضمض ثم بصــق. وبعد ذلك خلع نعليه وطواهمــا ثم وضعهما في مكان مخصص للنعل والأحذية بــين القضبان الحديد. دخل المبنى وأغلق الباب.

ضربت جبهتي.

يا لي من أحمق! « إنه شهر رمضان! لايمكنهم الأكل والشرب طوال النهار».

ركضت إلى المنزل ووجدت النيبالي. كان واقفا عند البوابة،

يفرك أســـنانه بعودٍ مكســـور من شـــجر النيم، وهذا ما يفعله الفقراء في بلدنا، ياً سيد رئيس الوزراء، عندما يريدون تنظيف أسنانهم.

«لقد شاهدت فيلما سينمائيا، يا سيدي».

«اغرب عن هنا».

«فيلم عظيم، ســـيدي. كثير من الرقص. كان البطل مســـلما. باسم محمد محمد».

«لا تضيِّـــع وقتي يا ولد. اذهب ونظف الســـيارة إن كان ليس لديك عمل تعمله».

«هذا الشـــخص محمد محمد هو رجل فـقير، أمـين، مسـلم لا يعرف الكلل، يعمل بجد، لكنه كان يريد العمل في بيت إنســـان شـــرير، متكبـــر من ملاك الأراضـــي الذين يكرهون المســـلمين، ليســـتحوذ على وظيفة لكي يطعم أســـرته الجائعـــة، ادعى أنه هندوسي! واتخذ لنفسه اسم رام بيرساد».

سقط العود من فم النيبالي.

«وأنت تعرف كيف نجح في هذا؟!».

وحيـــث إن النيبالي كان حـــارس هذا المنـــزل، والذي يأتمنه الأسياد أمانة مطلقة، كان عليه أن يتحرى عن خلفية رام بيرساد، لقد صار هو الآن غشاشا!

قبل أن يتمكن من الجري أمسكت به من ياقته.

عمليا، في الأمـــور التي يصير الخادم ضد الخادم الآخر، يكفي أن يمســـكه من ياقته ليـوحي للآخـــر: «لقـــد غلبـتك». ولكنك إن أردت أن تقـــوم بمثل هذه الأمور، يفضل أن تؤديها

بالأسلوب الصحيح، أليس كذلك؟ لذا صفعته على وجهه أيضا.

من الآن فصاعدا أنا الخادم رقم واحد في هذا المنزل.

وعدت مسرعا إلى المسجد. لا بد أن الصلاة قد انتهت الآن. فعلا، سيكون رام بيرساد – أو محمد أو أي اسم حقيقي آخر – قد خرج من المسجد، أخذ نعليه من النافذة، قرعهما بالأرض، لوى قدميه فيهما، وهمَّ بالخروج. رآني – غمزت له بعيني – وعرف أن اللعبة أتت على نهايتها.

تحدثت معه باقتضاب وبالتحديد بما هو ضروري أن يسمعه.

مضيت عائدا إلى المنزل. كان النيبالي يراقبني من وراء قضبان البوابة. أخذت سلسلة مفاتيحه ووضعتها في جيبي. «أحضر لي بعض الشاي. والبسكويت». قرصت قميصه. «أريد أيضا زيك هذا. لقد أصبح زيي قديما».

ونمت على السرير في تلك الليلة.

في الصباح دخل شخص الغرفة. كان السائق رقم واحد السابق. من دون أن ينبس ببنت شفة، بدأ يجمع أمتعته. جميع أغراضه قد ملأت حقيبة صغيرة فقط.

فكرت، يا لحياة بائسة تلك التي عاشها هذا الرجل، يخفي دينه، واسمه الحقيقي، لأجل أن يحصل على وظيفة سائق، وهو حقا سائق ماهر، هذا لا غبار عليه، إنه حتى أحسن مما يمكن أن أكون عليه في يوم من الأيام. جزء مني أراد أن أنهض وأعتذر إليه وأقول له: اذهب وكن السائق لهم في دلهي. لم تفعل أي شيء يؤذيني. سامحني يا أخي.

انقلبت على جنبي الآخر وأطلقت ريح بطني، وعدت إلى النوم مرة أخرى.

عندما استيقظت، كان قد رحل، تاركا مجسمات الآلهة وراءه، وأنا غرفتها كلها في كيس. من يعلم متى يمكن لتلك الأشـياء أن تكون ذات فائدة وفي متناول اليد.

في المسـاء، أتى إليَّ النيبالي وتعلو وجهه ابتسامة، الابتسامة نفسـها التي يتصنعهـا الخادم في وجه «اللقلـق». أخبرني، بما أن رام بيرسـاد قد تـرك الخدمة لديهم مـن دون كلمة واحدة، فسـوف أقود أنا السيارة للسيد آشـوك وبنكي مدام إلى دلهي. فقد أوصى هو بذلك شخصيا وبإلحاح عند «اللقلق».

عدت إلى سريري الذي أصبح ملكي الآن، تمددت عليه قائلا: «عظيـم، الآن عليـك بتنظيف بيوت العناكب هذه من السـقف، هيا؟».

حدق بي، لكنه لم يقل شـيئا، وذهب ليأتي بمكنسـة. صحت بأعلى صوتي:

«سيدي!».

منـذ تلك اللحظة، في كل صباح، كان هناك الشـاي النيبالي الساخن وبعض البسكويت المحلى، على صينية من البورسلان.

أتى كيشـان عند البوابة يوم الأحد وسـمع الأخبار مني. كنت أظن أنه سـوف يوبخني بسـبب تركي القرية على نحو مفاجئ، لكنه كان مفعما بالسعادة، امتلأت عيناه بالدموع. إن واحدا من الأسـرة سوف ينجح في الخروج من «الظلام» إلى نيودلهي!

«هذا ما كانت دائما تقوله أُمنا. كانت على يقين بأنك ستنجح يوما ما».

بعد يومين، كنت أقود الهوندا سيتي ومعي السيد آشوك، و«النمس»، وبنكي مدام في دلهي. لم يكن من العسير أن تجد طريقك إلى هناك، عليَّ أن أتبع الحافلات فقط. لأنه كان هناك عدد من الحافلات وسيارات الجيب على طول الطريق، وكانت على وشك الانفجار لكثرة ما كانت تحمل من الركاب، والمتعلقين بالأبواب، وحتى على الأسطح. جميعهم كانوا يتوجهون من «الظلام» إلى دلهي. تخال كأن الناس في هجرة جماعية.

في كل مرة تمر حافلة بجانبنا، عليَّ رسم ابتسامة على وجهي؛ كنت أتمنى لو أستطيع أن أخفض زجاج النافذة وأصرخ فيهم: أنا ذاهبٌ إلى دلهي في سيارة، سيارة مزودة بمكيف الهواء!

لكنني على يقين بأنهم رأوا الكلمات في عيوني.

نحو المساء، ربتَ السيد آشوك على كتفي.

منذ البداية، يا سيدي، كان هناك الأسلوب الذي أستطيع أن أفهم به ما يريد أن يقول، كما الكلاب تفهم أصحابها. أوقفت السيارة، وتحركت إلى يساري، وهو بدوره تحرك إلى يمينه، وجسمانا تخطى أحدهما الآخر «قريبان من بعضنا جدا لدرجة أن الشعر النابت في وجهه حك وجنتي مثل فرشاة الحلاقة التي أستخدمها في الصباح، ورائحة الكولونيا المنبعثة من بشرته - لطيفة، ومفعمة، بنكهة الفاكهة - تسارعت إلى منخري لوهلة، بينما رائحتي، رائحة عرق الخدم، مسحت وجهه»، ومن ثم أصبح هو السائق وأصبحت أنا الراكب.

شغَّل السيارة.

رأى «النمس» الذي كان يقرأ الجريدة طوال الوقت، ما قد جرى.

«لا تفعل هذا، آشوك».

كان ناظر مدرسة عجوزا، يعرف الخطأ من الصواب.

قال السيد آشوك: «أنت على حق، يبدو هذا غير مألوف هنا».

توقفت السيارة وأجسامنا تخطت بعضها البعض مرة أخرى، وروائحنا تبودلت مرة أخرى، وأصبحت السائق والخادم، والسيد آشوك عاد كعهده الراكب والسيد. ووصلنا إلى دلهي آخر الليل.

لم يجتز الوقت الساعة الثالثة حتى الآن، في إمكاني أن أطيل قليلا. ولكني أريد أن أتوقف، لأنه من هنا فصاعدا عليَّ أن أحكي لك قصة من نوع جديد.

أتذكُر، يا سيد رئيس الوزراء، المرة الأولى حين كنت صبيا صغيرا، عندما فتحت غطاء محرك السيارة ونظرت إلى أحشائها؟ أتذكُر الأسلاك الملونة والملتوية على قطعة من المحرك وقد اتصلت هذه بقطعة أخرى، الصندوق الأسود ملؤهُ أغطية صفراء اللون، أنابيب مبهمة تهسهس بالبخار والزيت ودهن المحرك في كل الأنحاء، أتذكر كم كان يبدو هذا مبهما كما السحر، عندما أطل على الجزء المكشوف من قصتي في نيودلهي، أشعر بنفس الشعور. لو تسألني كيف يرتبط حدث بآخر، أو كيف سببت نزعة ما قوة أو ضعفا للتي تليها، أو كيف ظننتُ هذا بسيدي ولم أظن ذاك، سأقول لك إنني لا أحسن فهم

هــذه الأشــياء مثــل الصــبي الذي ينــظر إلى أحــشاء السيارة ولا يفهــم. لا يمكنني أن أجزم بأن القصة، كما سأســردها لك، هي القصة الحقيقية. لا يمكنني أن أكون متأكدا لمعرفة الســبب الذي مات من أجله السيد آشوك.

سيكون أحسن لي أن أتوقف هنا.

عندما نتقابل ثانية، فــي منتصف الليل، ذكِّرني بأن أزيد من نور الثريا قليلا. فالقصة ستصبح أكثر ظلمة من هنا.

الليلة الرابعة

لابد أن أتحدث أكثر عن هذه الثريا.

لم لا؟ لم تعد لدي أسرة. كل الذي عندي هي هذه الثريات.

لدي ثريا هنا، فوق رأســي في المكتب، ولدي اثنتان في شقتي فــي فلل راج محل المرحلة الثانية. واحدة في غرفة الاســتقبال، وأخرى صغيــرة في المرحــاض أيضا. قد يكون هــو المرحاض الوحيد في بانغلور المزود بثريا.

لقد رأيــت كل هذه الثريات ذات يوم، مربوطة بغصن شــجرة بانيان كبيرة بالقرب من حدائق لال باغ؛ كان يبيعها فتى من القرية، اشــتريتها جميعها فورا. ودفعت مالا لصاحب عربة يجرها عجل نقلهــا إلى منزلي. وذهبنا إلى البيت مارين من وســط بانغلور أنا وصاحب العربة مع أربع ثريات في ليموزين تجرها أربعة ثيران!

رؤية الثريات تجعلني ســعيدا. لم لا، أنــا رجلٌ طليق، دعني أشتر كل الثريات التي أريدها. لسببٍ واحد، أنها تبعد السحالي عن هذه الغرفة. هذا هو الواقع، يا ســيدي. الســحالي لا تحب النور، ولذلك فهي تبتعد بمجرد أن ترى ثريا.

أنا لا أفهم لم لا يشــتري بقيــة الناس الثريات دائما لتعليقها في كل مكان؟ يبدو أن الأحرار لا يفهمون قيمة الحرية، تلك هي المشكلة.

أحيانا، في شقتي، أضيء كلتا الثريتين، ثم أستلقي وسط كل هذا النور، وأبدأ في الضحك. رجلٌ يختبئ عن الأنظار، مع ذلك فهو محاط بالثريات!

ها أنا أفشــي سر الهروب الناجح. كانت الشرطة تبحث عني في «الظلام» ولكنني خبأت نفسي في النور.

في بانغلور!

الآن، من بين الاستخدامات الكثيرة للثريا، ذلك الشيء الذي لم يتغن به ولم يغرم به أحدٌ من قبل، هو أنك عندما تنسى أمرا، كل ما عليك فعله هو أن تحدِّق فقط في قطع الزجاج البرَّاقة في السقف لبعض الوقت، بعدها ستتذكر بالضبط ما كنت تحاول أن تتذكره في خمس دقائق.

هل تلاحظ، لقد نسيتُ إلى أين وصلنا في قصتنا ليلة البارحة، لذلك عليَّ أن أعود مرة أخرى إلى الثريات، لإلهائك، لكن الآن تذكرت أين كنا.

دلهي - لقد وصلنا إلى دلهي حين توقفت عن السرد ليلة البارحة.

عاصمة موطننا المجيد. مقر البرلمان، الرئيس، كل الوزراء ورؤساء الوزارة. فخر تخطيطنا الحضري وواجهة الجمهورية.

هذا ما يطلقونه عليها.

دع سائقا يحكي لك الحقيقة. والحقيقة أن دلهي مدينة مجنونة.

لاحظ، إن الأغنياء يعيشون في مستعمرات سكنية كبيرة مثل مستعمرة الدفاع أو «كايلاش الكبرى» أو «فاسانت كونج»، وفي داخل هذه المستعمرات تحمل المنازل أرقاما وحروفا، ولكن نظام الترقيم ووضع الحروف لا يتبع أي منطق حرفي أو رقمي. مثلا، في الأبجدية الإنجليزية، A تكون بجانب B، وهذا ما يعرفه الجميع، حتى أناسٌ مثلي ممن لا يعرفون الإنجليزية. ولكن في إحدى المستعمرات، هناك منزل يكتب عليه A231، ومنزل بجانبه

يكتب عليه F378. لذلــك في مرة أرادت بنكي مدام أن آخذها إلى كايلاش الكبرى E231، تبعت المنازل إلى الرقم E200، وفي اللحظة التي ظننت فيها أني قريبٌ من هناك، اختفت القطعة E تماما. المنزل التالي كان S أو شيئا من هذا القبيل.

صاحــت بنكي مدام: «لقد قلت لك ألا تصطحب هذا القروي معك!».

وهناك شيءٌ آخر. كل طريق في دلهي له اسم ما، مثل طريق «أورانغزب»، أو طريق «همايون»، أو طريق «الأسقف ماكاريوس». ولا أحد، خادما كان أو ســيدا يمكنه أن يعـرف اسـم الطـريق. إذا سألت أحدا ما: «أين طريق نيكولاي كوبرنيكوس مارغ؟».

وقد يكون هذا الشخص يعيش في نيكولاي كوبرنيكوس مارغ طوال حياته، سيفتح فمه ويقول، «هيه؟». أو يقول، «مباشرة إلى الأمام، ثم در إلى اليسار»، حتى لو كان لا يعلم شيئا.

وكل الطــرق تبدو مماثلة بعضها لبعض، كلها تدور حول طرقٍ دائرية مكسوة بالعشب والتي يقصدها الرجال إما للنوم أو الأكلٍ أو للعــب الورق، وبعــد ذلك تذهب إلى طريقٍ ما وتجد نفســك في طريقٍ آخر بدوارٍ مكســو بالعشــب أيضاً فيــه رجال نائمون أو يلعبــون الورق، وكذلك أربعة طرقٍ أخــرى تتفرع منه. وهكذا تستمر تضل طريقك في دلهي، وتضلٍ، وتضل.

آلاف من البشــر يعيشون على قارعة الطريق في دلهي. لقد أتــوا من (الظلام) أيضا، تســتطيع أن تعرفهم من أجســادهم الضئيلــة، ووجوههم المتســخة، ومن هيئتهم الحيوانية بســبب معيشتهم تحت الجسور والمعابر المعلقة، يشعلون النار، يغتسلون،

يلقطون القمل من شـــعرهم بينما تزأر السيارات مارة بجانبهم. هؤلاء المشــــردون أصبحوا مشكلة للســـائقين. لا يتوقفون عند إشارة المرور الحمراء، ببساطة يهرعون عبر الطريق مندفعين. وفي كل مرة أضطر إلى أن أضع رجلي بقوة على كابح السرعة لكي أتجنب الاصطدام بهم، فيعلو الصراخ من المقاعد الخلفية للسيارة التي أقودها.

لكني أســـألك، من بنى دلهي بهذا الأســلوب الواهن؟ أي من العباقرة مســـؤولٌ عن وضـــع قطعة F لتأتي بعدهـــا قطعة A، والمنــــزل رقـــم ٦٩ ليأتـــي وراء المنزل رقم ١٢؟ من كان مشـــغولا يحتفل بشــــرب المشـــروب الإنجليزي ويأخذ الكلاب من فصيلة «البوميرانين» للمشي وغسلها حتى يعطي أسماء للطرقات بهذا الشكل لكيلا يستطيع أحد تذكرها؟

«هل ضللت الطريق أيها السائق؟».

«لا تؤاخذه مرة أخرى».

«لماذا تدافع عنه دائما، آشوك؟».

«أليست لدينا أمور أكثر جدية لنناقشها؟ لماذا دائما نتكلم عن هذا السائق؟».

«حسنا، فلنناقش أمورا أخرى إذن، أولا لنناقش أمر زوجتك، ونوبات الغضب التي تنتابها».

«هل حقـــا ترى أن هذا أهم من موضوع الضرائب؟ أســـألك مـــرارا: ما الـــذي علينا أن نفعله إزاء هـــذا الموضوع، وأنت تغير الموضـــوع. أعتقد أن هـــذا جنون، ذلك المبلغ الـــذي يريدوننا أن ندفعه لهم».

«قلت لك إنها لعبة سياسية. إنهم يضايقوننا لأن الوالد يحاول أن يُبعد نفسه عن الاشتراكي الكبير».

«أنا لا أعلم كيف ورط نفسه مع هؤلاء الأشرار».

«لقد انخرط في السياسة لأنه أمرٌ لا مناص منه، آشوك، في «الظلام» ليس لك خيار آخر. لا تخف، نحن في إمكاننا حل مطلب الضريبة هذه. إنها الهند وليست أمريكا. هناك دائما مخرج. لقد قلت لك لدينا شخص يعمل لحسابنا، راماناثان. إنه في إمكانه ترتيب الأمور.

«راماناثان رجلٌ عديم الأخلاق، مداهن، قميء. نحن نحتاج إلى محامي ضرائب جديد، موكيش! علينا أن نذهب إلى دور الصحافة ونخبرهم بأننا قد تعرضنا للاغتصاب بواسطة أولئك السياسيين!».

«اسمع» - رفع «النمس» نبرة صوته - «أنت قد وصلت لتوك من أمريكا. حتى هذا الرجل الذي يقود سيارتنا يعرف الآن عن الهند أكثر منك. نحتاج إلى منظم. سوف يحصل لنا على مقابلة مع الوزير الذي نحتاج إليه. إن الأمور تُدار بهذا الشكل في دلهي.

انحنى «النمس» إلى الأمام ووضع يده على كتفي. «تهتَ مرة أخرى؟ أتظن أنك قادرٌ على الوصول إلى المنزل هذه المرة من دون أن تضيع لاثنتي عشرة مرة؟».

تتهد وعاد إلى مقعده. «لم يكن من المفروض أن نأتي به إلى هنا، لا أمل يرجى منه. أخطأ رام بهادور بشأن هذا الشخص. آشوك».

«هيه؟».

«دع هاتفك النقال لدقيقة وانظر هنا. هل أخبرت بنكي بأنك ستبقى هنا إلى الأبد؟».

«هيه. نعم».

«وما قول الملكة؟».

«لا تنعتهـا بهذه الكلمات. إنها زوجة أخيك، موكيش. سـوف تكون سـعيدة في غورغاون، إنها أكبر جـزء أمريكي في مدينة دلهي».

الآن، كان تفكير آشـوك ذكيا. منذ عشـر سـنوات، يقولون، لم يكن هناك شـيء يذكـر في غورغاون، سـوى جواميس الماء ومزارعـين بنجابيـين بدناء. اليوم أصبحـت غورغاون من أكثر الضواحي حداثة. أميركان إكسـبرس، ميكروسوفت، جميع تلك الشـركات الأمريكية المرموقة لديها مكاتب هناك. يمتلئ الشارع الرئيسي بمراكز الأسواق التجارية، كل سوق يضم دارا للسينما! لذا إن كانت بنكي مـدام تفتقد أمريكا، فهذا هو المكان الأفضل لاستقطابها.

«هذا الأبله»، قال «النمس»، «انظر ماذا فعل. لقد ضل طريقه مرة أخرى».

مد يده وضربني على رأسي.

«خذ يسارك من ناحية النافورة، أيها المغفل! ألا تعرف طريقك من هنا إلى المنزل؟».

بدأت بالاعتذار، ولكن صوتا من خلفي قال: «لا بأس، بالرام. عد بنا إلى المنزل فقط».

«لاحظ، أنت مازلت تدافع عنه».

«ضع نفسك مكانه، يا موكيش. لك أن تتصور كيف تبدو دلهي غير منظمة بالنسبة إليه؟ إن وضعه بالضبط مثل وضعي يوم وصولي إلى نيويورك لأول مرة».

تحول «النمس» إلى التحدث باللغة الإنجليزية - ولم أتمكن من فهم ما قال - بينما أجاب السيد آشوك بالهندي: «بنكي كذلك تعتقد الشيء نفسه. هذا الشيء الوحيد الذي تتفقان عليه أنتما الاثنان، ولكنني لن أوافق عليه، موكيش. نحن لا نستطيع أن نميز الناس هنا في دلهي. يمكننا أن نثق في هذا الشخص. إنه من بلدتنا».

في تلك اللحظة نظرت في مرآة الرؤية الخلفية، لمحت عيون السيد آشوك تنظر إليَّ: وفي تلك العيون رأيت عاطفة غير متوقعة. الشفقة.

* * *

«كم يدفعون لك، يا فأر الريف؟».

«ما يكفيني. أنا سعيدٌ بذلك».

«لن تخبرني، هيه، يا فأر الريف؟ يالك من ولد كُفء. خادم مخلص حتى النهاية. أتحب دلهي؟».

«نعم».

«ها! لا تكذب عليَّ، يا أخا العاهرة. أنا أعلم أنك تائه هنا تماما. لا بد أنك تكره هذا!».

حاول أن يضع يده عليَّ، تضايقت وتراجعت إلى الوراء. كان مصابا بمرضٍ جلدي «البهاق»، حوَّل شفتيه إلى لون وردي فاقع في

وسط وجه أسـود كالح. الأفضل أن أشرح عن هذا المرض الجلدي الذي يصاب به كثيرٌ من الفقراء في بلادنا. لا أعلم كيف تصاب به، لكن إن أصبت به فإن لون بشرتك سيتغير من اللون البني إلى اللون الوردي. تسع حالات من عشر، تتكون بقع وردية فاقعة اللون على أنف الصبي ووجنتيه وكأنها نجوم انفجرت في وجهه، أو طفح جلدي وردي اللون على جبهته كأن أحدا ما قد أحرق جبهته، ولكن أحيانا يتغير لون الجلد في كل أنحاء جسم الشخص المصاب، وعندما تمر بجانبه تحسبه أمريكيا! تتوقف وتشهق؛ تود أن تذهب وتلمسه. ثم تكتشف أنه واحدٌ منا لا غير، مصاب بتلك الحالة الرهيبة.

بالنسبة إلى هذا السائق، بما أن اللون الوردي قد أزال اللون الحقيقي لشفتيه - ولا شيء آخر - فإنه يشبه المهرج الذي صبغ شفتيه في السيرك. أشعر بالغثيان عندما أرى وجهه. مع هذا، فقد كان السائق هو الشخص الوحيد اللطيف معي، لذا آثرت أن أبقى قريبا منه.

كنا ما يقارب اثني عشر سائقا ننتظر أسيادنا خارج المركز التجاري للتسوق حتى يفرغوا من التسوق. لم يكن يُسمح لنا بالدخول إلى هناك، طبعا، ولا نحتاج إلى أحد أن يذكرنا بهذا. تحلَّقنا في جانب من مواقف السيارات، ندخن السجائر وندردش، وبين لحظة وأخرى يقذف أحدنا رشة حمراء من البان من فمه.

بما أنه كان قادما من «الظلام» - بالطبع خمن أصولي فورا- أعطاني دروسا هذا السائق ذو الشفتين المصابتين في كيفية النجاة بنفسي في مكان مثل دلهي، والتيقن من عدم إرسالي إلى «الظلام» ثانية، وعلى ظهر حافلة.

«أهم شيء لك أن تعرفه هو أن الطرق في دلهي جيدة، وأن الناس هم السيئون. الشرطة فاسدة كليا. إذا رأوا أنك لا تربط حزام الأمان، فسيكون عليك أن ترشوهم بمائة روبية. وأسيادنا ليسوا أحسن منهم. عندما يذهبون إلى حفلاتهم الليلية المتأخرة، فهو الجحيم بالنسبة إلينا. تنام في السيارة، والبعوض يلتهمك حيا. إذا كان بعوض ملاريا فلا بأس، سوف تهذي لمدة أسبوعين، ولكن إذا كان بعوض الضنك(٢٣)، فأنت حتما ميت. في الثانية صباحا، سيعود ويطرق على نافذة السيارة ويصرخ فيك ورائحة البيرة تفوح منه، وفي طريقنا للعودة إلى المنزل يُخرج رياح بطنه في السيارة. في شهر يناير يكون البرد قارسا. إذا كنت تعرف أنه سيذهب إلى حفلة ليلية متأخرة، خذ معك بطانية لتلتحف داخل السيارة. إن هذا يبعد البعوض أيضا. الآن - سيصيبك الضجر من الجلوس داخل السيارة منتظرا إياه لينتهي من حفلاته - أنا أعرف سائقا فقد عقله وهو ينتظر داخل السيارة، لذا تحتاج إلى شيء تقرأه. تستطيع القراءة، أليس كذلك؟ حسنا. هذا الشيء هو الأفضل إطلاقا لتقرأه داخل السيارة».

ناوَلَني السائق مجلة بغلاف جذاب، امرأة بملابسها الداخلية مستلقية على السرير منكمشة على نفسها تحت ظل رجل.

مجلة الجريمة الأسبوعية

٤,٥٠ روبية

قصصٌ حقيقية حصرية

«الجسد الجميل لا يذهب إلى القمامة».

قتل. اغتصاب. انتقام.

---

(٢٣) حمى الضنك: من أنواع الحمى المنقولة بواسطة البعوض، تسبب مضاعفات مميتة.

الآن علـــيَّ أن أخبرك بشـــأن هـــذه المجلة، مجلـــة الجريمة الأسبوعية، بما أن رئيس وزرائنا لن يخبرك عنها شيئا حتما. إنها تباع في جميع أكشاك الصحف والمحلات في المدينة، إلى جانب الروايات الرخيصة، وهي تشـــتهر بين الخدم في المدينة، ســـواء كانوا طباخين، مربيات أطفال، بســـتانيين. السائقون لا يختلفون عنهم. كل أســـبوع عندما تظهر هذه المجلة، وعلى غلافها امرأة تداري نفســـها خوفا من قاتلها المرتقب، يشتري بعض السائقين هذه المجلات ويتبادلونها فيما بينهم.

الآن، لا تفزع من هذه المعلومة، يا سيد رئيس الوزراء، لا حاجة إلـــى تكون حبيبات العرق البـــارد على جبينك الأصفر. إن قراءة الســـائقين والطباخين هذه المجلة، مجلة الجريمة، لا تعني أنهم سيجزون رقاب أســـيادهم. طبعا، هم يتمنون ذلك. طبعا، بليون من الخدم يتخيلون ســـرا أنهم يخنقون أســـيادهم، ولهذا السبب تســـمح حكومة الهند بنشـــر هذه المجلة، وتبيعها على الأرصفة بهذا المبلغ الزهيد فقط بأربع روبيات ونصف روبية حتى يتمكن الفقراء من شرائها.

لاحظ، فالقاتل في هذه المجلة يعتبر مشوشا عقليا ومهووسا جنسيا لدرجة أنه لا أحد من القراء يود أن يكون في مكانه، وفي النهاية فإن هذا القاتل يمسك به دائما عن طريق ضابط شرطة «هاا» أمين ودؤوب في عمله، أو أنه يصاب بلوثة عقلية فيشـــنق نفســـه بواســـطة أغطية الســـرير بعد أن يكون قد كتب رســـالة عاطفية لأمه أو معلمه في المدرســـة الابتدائية، وربما يلاحق من قِبَل شـــقيق القتيلة، يُضرب، ويُهان، ثم يخنق. فلا تخف إن رأيت

سائقك يتصفح مجلة الجريمة الأسبوعية، اهدأ. لا خطر عليك. بل على العكس.

فقــط عندما يقرأ ســـائقك عن غاندي وبــوذا، عندها فقط سيكون قد حان وقت تبليل سروالك، يا سيد جياباو.

بعد أن عرض الســـائق ذو الشــفتين المصابتــين بالبهاق المجلة عليَّ، طواها ورماها في وسط حلقة السائقين حيث كانوا يجلسون، التقطوها مثل الكلاب التي تهرع نحو العظام. تثاءب ونظر إليَّ.

«ما الذي يعمله سيدك لكسب رزقه، يا فأر الريف؟».

«لا أعلم ».

«هل أنت مخلصٌ له إلى هذا الحد أم أنك غبي، يا فأر الريف؟ من أين هو؟».

«دهانباد».

«إذن فهو يكسب من الفحم. ربما هو الآن هنا ليرشو الوزراء. إنهــا تجارة فاســدة، العمل في مجال الفحم هــذا». تثاءب مرة أخرى. «كنت ســائقا سابقا لرجل يبيع الفحم. إنها تجارة فاسدةٌ جدا. لكن سيدي الحالي يتاجر في الفولاذ، ويجعل الرجال الذين يعملون في الفحم يبدون كالقديسين. أين يعيش؟».

أعطيتهُ اسم المجمع الذي فيه شقتنا.

«سيدي يعيش هناك أيضا! نحن جيران!».

مــال عليَّ؛ وبقي بجانبــي من دون أن يتحــرك - كانت هذه وقاحة - أبعدت جسدي عن شفتيه بقدر الإمكان.

«يا فأر الريف هل ســيدك - نظر حوله، وخفض صوته حتى أصبح همسا - يحتاج إلى أي شيء؟».

«ماذا تقصد؟».

«هل سـيدك يحب الخمر الأجنبي»؟ لدي صديقٌ يعمل سائقا في سفارة أجنبية. لديه معارف هناك. أنت تعرف الخمر الأجنبي وحيل السفارات الأجنبية ؟».

هززت رأسي بالنفي.

«الخدعة هي يا فأر الريف أن الخمر الأجنبي «باهظ» الثمن في دلهي، لأنها تشـمل الضريبة. لكن السـفارات تحصل عليها مجانا. المفروض أن يشربوا خمرهم هذه، غير أنهم يبيعونها في السـوق السـوداء. يمكنني أن أحصل له على أشياء أخرى. هل يريد كـرات الجولف؟ لدي أناس من قنصليـة الولايات المتحدة الأمريكية يبيعونني إياها إن شـئت. هل يريد نسـاء؟ يمكنني أن أحصـل على هذا أيضا. حتى إذا كان ميَّـالا للصبيان، لا توجد عندي مشكلة».

«لا يفعل سيدي هذه الأشياء. إنه رجلٌ رصين».

الشـفتان المصابتان بالبهاق كشـفتا عن ابتسـامة. «أليسوا جميعهم كذلك؟».

راح يصفِّر لحن أغنيةٍ هندوسـتانية. بدأ أحد السائقين يقرأ جهـرا قصة ما من المجلةً؛ وصمت الآخـرون. نظرت إلى مركز الأسواق التجارية لبرهة.

التفت إلى السـائق ذي الشـفتين الورديتين الرهيبتين وقلت: «لدي سؤال أود أن أوجهه إليك».

«حسنا. اسـأل. أنت تعلم أنني سأفعل أي شـيءٍ من أجلك، يا فأر الريف».

«هذا المبنى الذي يسمونه مركز الأسواق التجارية، والذي قد عُلقت عليه ملصقات بصور النساء هو للتسوق، صحيح؟».

«صحيح».

«وهذا» - أشــرت إلى مبنى زجاجي براق على يسارنا - «هل هذا أيضا مركز الأسواق التجارية؟ أنا لا أرى أي ملصقاتٍ لصور النساء عليه».

«هذا ليس مركز تســوق، يا فأر الريف. هذا مبنى للمكاتب. من هنا يجرون المكالمات إلى أمريكا».

«أي نوع من المكالمات؟».

«لا أدريً. ابنة ســيدي تعمل في واحدة من هذه المباني أيضا. أوصلها فــي الثامنة وأعود بها إلى المنــزل عند الثانية صباحا. أعــرف أنها تكســب الكثير الكثير من المال مــن عملها في هذا المبنى، لأنها تصرفه في مركز الأســواق التجارية طوال النهار». اتكأ عليَّ حتى صارت شفتاه الورديتان قريبتين من شفتي ببضعة سنتيمترات. «دع هذا بيني وبينك فقط، أظن أنه أمر غريب، أن تدخل الفتيات مباني من هذا النوع ليلا ويخرجن مع تلك الكمية الكبيرة من المال في الصباح».

غمــز لــي بعينه. «مــاذا بعد، يا فــأر الريف؟ إنك شــخصٌ فضولي».

أشرتُ إلى واحدة من الفتيات وهي خارجة من مركز الأسواق التجارية.

«ماذا تريد أن تعرف عنها، يا فأر الريف؟ هل تروق لك؟».

تصاعد الدم إلى وجهي خجلا. قل لي، ســألته: «هل النساء

في المدينة – مثلها – لديهن شعر تحت آباطهن وعلى سيقانهن، مثل النساء في قريتنا؟».

* * *

بعد نصف ساعة، خرج السيد موكيش، والسيد آشوك، وبنكي مدام من مركز التسوق وبأيديهم أكياس التسوق؛ انطلقت نحوهم لأحمل الأكياس وأضعها في صندوق السيارة وأغلقها ثم أثب إلى مقعد السائق لسيارة هوندا سيتي وأصطحبهم إلى منزلهم الجديد، الذي كان في الدور الثالث عشر في مبنى سكني هائل. كان اسم المبنى أبراج بكنغهام. قطعة ب. وهو بجانب مبنى آخر ضخم يعرف بأبراج بكنغهام قطعة أ. وقد بُنيَا بواسطة شركة الإسكان نفسها. وإلى جانبهما كان مبنى آخر اسمه وندسور مانور قطعة أ. وكانت هناك مبانٍ سكنية على هذه الشاكلة كلها جميلة وبراقة وبأسماء إنجليزيةٍ جميلة وكبيرة، على امتداد البصر. كانت بكنغهام قطعة ب أفضلها جميعا، لها قاعة استقبال كبيرة، ومصعد استوعبنا جميعا وأخذنا إلى الدور الثالث عشر.

أنا شخصيا، لم أكن أحب الشقة كثيرا، كان المكان بأكمله بحجم المطبخ في دهانباد. كانت فيها أرائك ناعمة، لطيفة، بيضاء، وعلى الحائط فوق الأرائك صورة كبيرة لـ «كودلز» و«بودلز» داخل برواز، حيث لم يسمح لهما «اللقلق» بأن يأخذا الكلبين إلى المدينة.

أنا لا أحتمل النظر إلى هذه المخلوقات، ولو في الصورة. وأبقيت نظري مثبتا على السجاد طوال الوقت في أثناء وجودي في الغرفة، وهذا في حد ذاته كان يضفي على مظهري صورة الخادم الأصيل.

«اترك الأكياس في أي مكان تريده، بالرام».

قـــال «النمـــس» «لا، ضعهـــا بقـــرب الطاولة. ضعهـــا هناك بالتحديد».

بعد أن وضعت الأكياس أرضـــا، ذهبت إلى المطبخ للتنظيف، ولأرى إن كان هنـــاك ما يحتاج إلى التنظيـــف، كان هناك خادمٌ يعتني بالشـــقة، لكنه كان شـــخصا منفرا، وكما قلت لك، لم يكن لديهم في الواقع «ســـائق»، بل خادم يقود لهم السيارة في بعض الأوقات. كنت أعرف من دون أن يُقال لي، أنه كان عليَّ أن أعتني بالشقة أيضا، أي تنظيف يلزم الشقة، كان من واجبي أن أقوم به، وبعد ذلك أعود أنتظر الأوامر واقفا عند الباب معقود الذراعين إلى أن يقول لي الســـيد موكيش: «تســـتطيع أن تذهب الآن. وكن مســـتعدا في الثامنة صباحا. لا تقم بأي عمل مشين فقط لأنك الآن في المدينة. أتفهم؟».

أخذت المصعد ونزلت إلى الدور الأرضي، خرجت من المبنى، وهبطت إلى الطابق السفلي حيث سكن الخدم.

أنـــا لا أعرف كيف تصمَم المباني في بلدك، ولكن في الهند كل مجمع ســـكني، وكل منزل، وكل فندق يُبنى معه ملحق سكن للخدم - أحيانا في خلف المبنى، وأحيانا في الطابق الســـفلي «كمـــا الحال في أبراج بكنغهام قطعة ب» - حجرات كالجحور متصـــل بعضها ببعض حيث يســـتريح أو ينـــام أو ينتظر فيها كل الطباخين، والســـائقين، والكناســـين، والخادمات، ورؤساء الطهاة. وفي حالة اســـتدعائنا من قِبل أســـيادنا، يرن جرس كهربائي في كل أرجاء المكان، نهرع جميعنا إلى اللوحة لنعرف

أي رقم شقة يشير إليه وميض من النور الأحمر اللون، فيصعد الخادم المعني إلى هناك.

نزلت من مجموعتين من درجات السلم ودفعت باب سكن الخدم.

في اللحظة التي دخلت فيها إلى هناك بدأ الخدم بالصراخ والعويل وانفجروا بالضحك.

كان السائق ذو الشفتين المصابتين بالبهاق جالسا معهم، وكان أعلاهم صوتا. لقد أخبرهم عن السؤال الذي طرحته عليه. لم يستطيعوا التوقف عن السخرية؛ كان كل واحدٍ منهم يقترب مني يمرر أصابعه بين شعري عنوة، ويناديني «معتوه القرية»، ثم يضربني على ظهري أيضا.

لابد أن يسيء الخدم معاملة بعضهم البعض. لقد تربينا على هذا الطبع، مثلما تربت الكلاب الإلزاسية على مهاجمة الغريب. نحن نهاجم القريب.

منذ ذلك الوقت، وعدت نفسي ألا أخبر أحدا في دلهي بأي شيء عما يدور في خلدي. خصوصا إذا كان خادما.

لقد أصبح كل شيء يثير سخريتهم، وجهي، أنفي، أسناني، إلى آخره، حتى زيي لم يسلم منهم. لاحظ، في المدينة السائقون لا يلبسون الزي الخاص بالسائق. قالوا لي إنني أبدو مثل قردٍ في ذلك الزي. لذا غيَّرت ملابسي وارتديت قميصا قذرا وبنطالاً مثلهم، لكن المضايقات استمرت طوال الليل.

في الصباح كان هناك رجل يكنس المهجع، سألته: «هل يوجد هنا مكان يستطيع فيه الشخص أن يبقى وحده؟».

«هنـــاك غرفة خالية على الطرف الآخر من الملحق الســكني للخدم، ولكن لا أحد يرغب فيها، سـألني الرجل: «من الذي يريد أن يسكن وحده؟».

كانت مقرفة، تلك الغرفــة. لم يكتمل وضع أرضية لها، وكان هناك جص أبيض اللون رخيص يكسو الجدران، ويمكنك أن ترى عليها آثار يد الشــخص الذي وضع الجبس. بها ســرير صغير مهلهل، بالكاد كافٍ لجسدي الضئيل، وفي أعلاه ناموسية.

هذه الغرفة تفي بالغرض بالنسبة إلي.

في الليلة التالية، لم أنم في المهجع، ذهبت إلى الغرفة. كنست الأرض، وربطت الناموســية بأربعة مسامير في الحائط، ونمت. في جنح الليل، أدركت حينها لماذا تركت شبكة الناموسية هناك. اســتيقظت على أصوات. الحائط كان مغطى بالصراصير، التي أتت لتتغذى على بقايا الجير والمعادن في الجص. استمر صوتها وهــي تعلك الجــص بينما كانت قرون استشــعارها تهتز في كل الاتجاهات على الحائط. بعض الصراصير هبطت على الشبكة؛ ومن داخل الناموســية اســتطعت أن أرى أجسامها الداكنة على النسيج الأبيض للشــبكة. طويت قماش الشبكة وسحقت واحدة منها؛ لــم تتنبه الصراصير الأخرى لذلــك هبطت الواحدة بعد الأخرى لتسحق. ربما كان لابد أن يكون كل من يعيش في المدينة بليــدا وأحمق مثل هــذه الصراصير، فكرت بيني وبين نفســي، وابتسمت، ثم عدت للنوم.

«هل كانت ليلة جيدة وسط الصراصير؟» سخروا مني عندما ذهبت لاستخدم المرحاض العمومي.

كل فكــرة كانت لدي للعــودة إلى المهجع، قُضـــي عليها عند هذه النقطة. كانــت الغرفة مملوءة بالصراصير ولكنها كانت لي وحدي، ولم يسخر مني أي شخص. لكن من مساوئ هذه الغرفة أن صوت الجرس الكهربائي لا يصلها، لكن هذه كانت حسنة في حد ذاتها، هذا ما اكتشفته مع الوقت.

فـــي الصبـــاح، بعد انتظـــار دوري عند المرحـــاض العمومي، ودوري عنـــد المغســـلة العمومية، ودوري عنـــد الحمَّام العمومي، صعدت عدة درجات من السلم، ودفعت الباب المؤدي إلى موقف السـيارات، ومشـيت إلى حيث كانت الهوندا سيتي قد أوقفت. كان عليَّ أن أمســح الســيارة بخرقة ناعمة ومبللة، من الداخل والخارج؛ وأن أشــعل عــودا من البخــور وأن أضعها عند تمثال الإلهة لاكشمي، إلهة الثروة، التي قد جلست على مقدمة السيارة مــن الداخل، وكان لهذا ميزتان، أولا طرد البعوض الذي تســلل إلـــى داخل الســيارة في الليل، وثانيا إعطاء أجــواء دينية داخل السيارة. مسحت المقاعد، نسيجٌ من جلدٍ مخملي جميل؛ مسحت العدادات، رفعت قطع الســجاد الخاصةً بالأرجل ونفضت الغبار عنها. كانت هناك ثلاثة ملصقاتٍ مغناطيســية بصور الإلهة الأم (كالي)[٢٤] على مقدمة السيارة من الداخل، لقد كنت قد وضعتها سابقا ورميت الملصق المغناطيسي الخاص برام بيرساد؛ مسحتها جميعا وأعدتها إلى مكانها. كان هناك أيضا مجسمٌ لغولٍ صغير مغطى بالزغب يبرز لســانه الأحمر خارج فمه معَلقا بسلسلةٍ من مرآة الرؤية الخلفية. يفترض أن يكون هذا أيقونة لحسن الطالع.

(٢٤) إلهة سوداء ترمز إلى الطاقة الأبدية. على الرغم من شكلها المخيف فإنها تعتبر الأم التي ترعى مصلحة أبنائها فيصبح المتعبد لها كالطفل.

كان «اللقلق» يحب أن يراه يتأرجح حين نكون في السيارة. سددت ضربة إلى فمه ثم قمت بتنظيفه. والمهمة التالية هي فحص علبة المناديل الورقية خلف السيارة، كانت العلبة منحوتة بدقة ومموهة بالزخـــارف، مثل مقتنيات الأُســـر الحاكمة، مـــع أن العلبة كانت مصنوعة من الـــورق المقوى. تأكدت من وجـــود المناديل الورقية النظيفة في العلبة. تستعمل بنكي مدام عشرات المناديل كل مرة نخـــرج فيها، كانت تقـــول إن التلوث في دلهي ســـيئ جدا. لقد تركت مناديلها المســـتعملة تتكوم بالقرب من العلبة، وكان عليَّ أن ألتقطها وأرمي بها في الخارج.

دق الجـــرس الكهربائي في موقف الســـيارات. ارتفع صوت مـــن قاعة الاســـتقبال خلال مكبـــر الصوت: «الســـائق بالرام. الرجاء التوجه إلى البوابة الرئيســـية لمبنـــى بيكنجهام قطعة ب مع الســـيارة». لذا ركبت سيارة الهوندا ســـيتي، عبرت المنحدر، وخرجت لأرى أول ضياء النهار.

كان الأخوان يلبســـان بذلات رسمية، وقد وقفا يتحادثان عند باب المبنى، وعندما دخلا السيارة، قال «النمس»: «المقر الرئيسي لحزب الكونجـــرس، بالرام. لقد ذهبنا إلى هناك بالأمس أتمنى أن تتذكر المكان وألا تضل الطريق مرة أخرى».

لن أُخيب ظنك اليوم، يا سيدي.

ســـاعة الذروة فـــي دلهي. ســـيارات، دراجـــات نارية من كل الأنواع، عربات الريكشـــو، التاكسي الأسود، تتصارع جميعها من أجل مكان على الطريق. التلوث شديد إلى درجة أن الرجال على الدراجـــات النارية قد غطوا وجوههم بالمناديل، في كل مرة تقف

عند إشارة المرور الحمراء، تجد رجالا يضعون النظارات السوداء والأقنعـــة على وجوههم، كما لـــو أن كل رجال المدينة قد خرجوا للسطو على بنك في ذلك الصباح.

هناك ســـبب مقنع للبس الأقنعة؛ يقولون إن الهواء رديء في دلهي لدرجة أنه يُنقِص عشـــر ســـنين من عمر الإنســـان. طبعا، أولئك الذين داخل الســـيارات لا يستنشـــقون الهواء الخارجي، إن الهواء عندنا داخل الســـيارة مكيـــف، نظيف، وبارد، ولطيف. ســـيارات الأغنياء بزجاج نوافذها المعتم تســـير في شوارع دلهي كالبيض الأســـود. وبين حينٍ وآخر تفقس بيضة وتخرج منها يد امرأةٍ، مكسوة بأســـاور من الذهب البرَّاق، تمدها خارج النافذة تقذفُ قنينة المياه المعدنيـــة على الطريق، ثم يرفع زجاج النافذة وتلتحم البيضة ثانية.

كنت أقود بيضتي الاســـتثنائية الداكنة في قلب المدينة. على يســـاري رأيت قبـــاب منزل الرئيـــس، المكان الذي تتـــم فيه كل الإنجازات المهمة في البلد. عندما يكون الجو ملوثا جدا، يختفي المبنى من الطريق تماما، لكن اليوم كان يلمع بشكل جميل.

في عشـــر دقائق، كنت في المقر الرئيسي لحزب الكونجرس. الآن، من السهل الوصول إلى هذا المكان لأن هناك دائما اثنتين أو ثلاثا من لوحات الإعلانات الورقية عليها وجه سونيا غاندي.

أوقفت السيارة، ركضت، أفتح الباب للسيد آشوك «النمس»؛ قال الســـيد آشوك وبينما هو يترجل من الســـيارة، «سنعود في غضون نصف ساعة».

هذا الشيء أربكني؛ لم يخبراني قط عن موعد عودتهما عندما

كنا في دهانباد. طبعا هذا لا يعني شـيئا البتة. في إمكانهما أن يأخـذا وقتهما كيفما أرادا ليعودا بعد سـاعتين أو ثلاث. ولكن الظاهر أن هـذا كان نوعا من اللطف يمارسـانه معي لأننا في دلهي.

جاءت مجموعة من الفلاحين إلى مركز القيادة، ولم يسـمح لهم بالدخول، رفعوا أصواتهم بشيءٍ لم أفهمه، ثم غادروا. بعدها وصلت سـيارة خاصة بالتلفزيون وأطلقت بوقهـا؛ هذه أُدخِلت فورا.

تثاءبت. وسـددت ضربة فـي الفم الأحمر للغـول الصغير. فتأرجـح إلى الأمـام وإلى الخلف. أدرت رأسـي من جانب إلى آخر.

نظرت إلى الملصق الكبير لصورة سـونيا غاندي. كانت ترفع يدا في الصورة، كأنها تلوح لي، وأنا بدوري لوَّحت بيدي.

تثاءبت، أغمضت عيني، وانزلقت أسفل مقعدي. وبعينٍ واحدة نظرت إلى الملصق المغناطيسـي للإلهة كالـي. والتي كانت إلهة شرسـة ذات بشرة سوداء تحمل سـيفا معقوفا وتلبس طوقا من الجماجم. دونت ملاحظة لإزالة هذا الملصق في أقرب وقت. إنها تشبه جدتي إلى حدٍ كبير.

بعد ساعتين، عادً الأخوان إلى السيارة.

«سـنذهب إلى منزل الرئيس، بالـرام. فوق التلة. أنت تعرف المكان؟».

«نعم، سيدي، رأيته من قبل».

الآن، لقد رأيت أغلب المشـاهِد المشهورة في دلهي، البرلمان،

وجانتار مانتار[٢٥]، وقطب[٢٦]، لكنني لم أطأ هذا المكان إلى الآن، إنهــا من أهم الأماكن قاطبة. قدت الســيارة نحو تلة ريزينا[٢٧]، ومــن ثم أخذت طريقي إلى أعلــى التلة، أتوقف في كل مرة يمد فيها حارس الأمن يده ليتفحص داخل السيارة، وبعد ذلك توقفنا قبالة أحد المباني ذات القباب الكبيرة والمحيطة بمنزل الرئيس.

«انتظر في السيارة، بالرام. سنعود بعد نصف ساعة».

لنصــف الســاعة الأولى، كنت خائفا أن أخرج من الســيارة. فتحــت الباب، وابتعــدت عنها قليلا، ألقيت نظــرة على المكان. فــي مكان ما داخل هــذه القباب وهذه الأبــراج التي تحيط بي الآن، هنــاك كبار الرجال من هذا البلــد، رئيس الوزراء، رئيس الجمهورية، نخبة من الوزراء والبيروقراطيين، يناقشــون الأمور، يدونونهــا، ويختمون الأوراق. أحدهم يقول: «ها هي خمســمائة مليون روبية لبناء الســد!» وآخر يقول: «حسنا، لنهاجم باكستان إذن!».

كنــت أود أن أجري وأصرخ فيهم: «بالــرام أيضا هنا! بالرام أيضا هنا!».

عــدت إلى الســيارة للتأكد من أنني لم أقــم بأي فعل أخرق يستدعي القبض عليَّ.

كان قد حل الظلام عندما خرج الأخَوان من المبنى؛ كان رجلٌ

(٢٥) مرصــد يتكون مــن عدة آلات فلكية لقياس الوقت وتوقع الكســوف، وتتبــع موقع النجوم ومدارات الأرض حول الشــمس، والتقويمات، وتعتبر مــن الإنجازات التكنولوجية في زمن ملوك راجبوت.

(٢٦) عبارة عن مئذنة أو برج يعد من أعلى الأبراج المشهورة في العالم.

(٢٧) تلة تحيط بها معظم المباني الحكومية المهمة، مثل القصر الرئاســي والمقر الرسمي لرئيس جمهورية الهند ومبنى الأمانة العامة والإسكان، ومكتب رئيس الوزراء، وغير ذلك.

بدين يصطحبهما إلى الخارج، وتكلم معهما خارج السيارة لفترة من الزمن، وبعدها صافحهما ولوَّح لنا بيده مودعا.

بدا السيد آشوك داكنا ومتجهما عند دخوله السيارة. طلب مني «النمس» أن أعود بهما إلى الشقة، «من دون اقتراف أي خطأ مرة أخرى، أفهمت؟».

«نعم، سيدي».

جلسا صامتين، الشيء الذي جعلني مرتبكا. لو أنه قد أُتيح لي دخول منزل الرئيس، لخفضت زجاج نافذة السيارة وصحت عاليا في وجه كل من كان في الطريق بأنني كنت في منزل الرئيس!

«انظر إلى هذا».

«ماذا؟».

«هذا التمثال».

نظرت من النافذة إلى تمثال ضخم من البرونز لمجموعة من الرجال، إنه تمثال مشهور، والذي ستشاهده بلا شك في دلهي: في الأعلى يقف مهاتما غاندي، مع عصاه، ومن ورائه الشعب الهندي، يقودهم إلى إخراجهم من الظلام إلى النور.

نظر «النمس» بحقد إلى التمثال.

«ماذا عنه؟ لقد رأيته من قبل».

«نحن نمُر على غاندي، بعد أن سلمنا الرشوة إلى الوزير. يا لها من مزحة عاهرة، أليست كذلك؟».

«أنت تبدو كزوجتك الآن»، قال «النمس». «أنا لا أحب الشتم، إنه ليس من عاداتنا هنا».

لكن وجه السيد آشوك تشوبه حمرة شديدة ما يجعله لا يقوى على حفظ لسانه.

«إنها مزحة عاهرة، هذا النظام السياسي، سأظل أقولها متى شئت».

«الأمور معقدة هنا في الهند، يا آشوك. إنها ليست مثل أمريكا. أرجوك وفِّر أحكامك لنفسك».

* * *

كان هناك ازدحام شديد في الطريق إلى «غورغاون». كل خمس دقائق يتوقف المرور، فنتحرك لمسافة قدم فقط، يتصاعد الأمل في الاستمرار في السير، ولكن تضيء إشارة المرور الحمراء للسيارات التي أمامي، فنُحتجز في الزحام مرة أخرى. وتعلو أبواق السيارات من حين إلى آخر، كل بوق بنبرة معينة خاصة به فتختلط الأصوات وتصبح كخوار عجل صغير قد اختطف من أمه. الأدخنة تملأ الجو. مخلفات من ذرات القش والأوراق تبدو كوهج أزرق أمام الأضواء الأمامية للسيارات؛ تلك المخلفات ازدادت كثافة لدرجة أنها لا يمكنها أن تتصاعد وتتلاشى، فانتشرت بشكل أفقي وازدادت توهجا، وأحاطتنا بنوع من الضباب. أعواد الكبريت تشتعل باستمرار، يشعل سائقو الريكشو ذات العجلتين سجائرهم، ليضيفوا تلوث التبغ إلى التلوث الناجم من عادم السيارات في الجو.

وقف أمامنا رجلٌ بعربة يجرها جاموس؛ ربط عليها بحبل كومة من العلب الفارغة لزيت السيارات بارتفاع خمس عشرة

قدمـــا. هذا الجاموس المائي المســكين عليــه أن يحمل كل هذا الحمل وهو يستنشق هذا الهواء الملوث.

بجانبي كان ســائق عربة الريكشـــو الأوتوماتيكية يســعل بعنف، التفتَ جانبا وبصــق، ثلاث مرات متكررة. بعض رذاذ بصاقه رشق بجانب الهوندا سيتي. حدَّقتُ فيه، رفعتُ قبضتي في وجهه. انكمش خوفا، وألقى عليَّ تحية الناماستا معتذرا.

«كأننا في حفلة لجوقة البصَّاقين!» قال السيد آشوك وهو ينظر إلى سائق عربة الريكشو الأوتوماتيكية.

حســنا، لو كنت أنت في خارج السيارة وتتنفس هذا الهواء الملوث بغازات الأحماض، لكنت تبصق مثله أيضا، فكرت بيني وبين نفسي.

تحركـت السيارات مـرة أخـرى، كســبنا ثـلاث أقـدام، مــــرة أخــرى تضـيء الإشـــارات الحمـراء وكــل شـــيءٍ يتوقف مجددا.

«في بكين، من الواضح أن لديهم عشرات الطرق الدائرية. أما هنـــا فلدينا واحدة فقط. لا عجــب أن الازدحام المروري يســتمر عندنا. لا تخطيط لدينـــا. فكيف يمكننا في أي وقت من الأوقات أن نصل إلى مستوى الصينيين؟».

«على فكـرة، يا سيد جيــاباو، عشرات الطـرق الدائــرية؟ يا للعجب!».

تعكس أضواء الشـــارع نورهـــا الخافت على الأرصفة عند جانبي الطريق، ومن خـــلال بصيص الضوء البرتقالي اللون، هناك حشــد من الناس ذوي الأجســـاد الضئيلــة، والهزيلة،

المكتسية بوسخ الشوارع قد تجمعت تنتظر الحافلات لتأخذهم إلى مكانٍ ما أو حتى لا مكان فيبسطون حصيرة وينامون هناك. هؤلاءً الفقراء الأوغاد قد أتوا من «الظلام» إلى دلهي ليجدوا بعض النور، لكنهم مازالوا في «الظلام». كان المئات منهم على جانبي الطريق المزدحم بالسيارات، ويبدو أن حياتهم لم تتأثر بالازدحام المروري. فهل هم أصلا مدركون أن هناك ازدحاما مروريا؟ لقد كنا كمدينتين منفصلتين داخل وخارج البيضة الداكنة. كنت أعلم أنني في المدينة الصحيحة. لكن لو كان أبي حيا، كان سيجلس على ذلك الرصيف ويطبخ عصيدة الأرز لعشائه، ويستعد لنومه تحت نور الشارع، لم أستطع أن أتوقف عن التفكير في ذلك وكنت أرى ملامحه من بين هذا الحشد من المتسولين. كنت بشكلٍ أو بآخر خارج السيارة حتى حين كنت أقودها.

بعد ساعة من الزمان وأنا أقطع طريقي من خلال الازدحام المروري، وصلنا أخيرا إلى الشقة في بكنغهام قطعة ب. ولكن لم ينته التعذيب بعد.

وهو خارجٌ من السيارة، تحسس «النمس» جيبه، وبدا مرتبكا بعض الوقت، وقال: «لقد فقدت روبية».

فرقع إصبعيه نحوي.

«انزل على ركبتيك. ابحث عنها في أرضية السيارة».

نزلت على ركبتَي. بدأت أتشمم السجادات الخاصة للأرجل مثل كلبٍ، كل ذلك للبحث عن هذه الروبية.

«ماذا تعني بأنها ليست هناك؟ لا تتوهم أن في إمكانك سرقتنا لمجرد أنك في المدينة. أنا أريد هذه الروبية».

«لقد دفعنا للتو نصف مليون روبية رشـوة، يا موكيش، والآن أنـت تهدد هذا الرجل من أجل روبية واحـدة. لنصعد إلى فوق ونشرب كأسا».

«هذه هي الطريقة التي تُفسـد بها الخـدم. إنها تبدأ دائما بروبية واحدة. لا تأتي بأساليبك الأمريكية إلى هنا».

بقي سـر اختفاء هذه الروبية غامضا بالنسبة إليَّ إلى يومنا هذا، يا سـيد رئيس الـوزراء. في النهاية، أخرجـت روبية من جيب قميصي، أسـقطتها على أرضية السيارة، والتقطتها ثانية، وأعطيتها لـ «النمس».

«ها هي يا سيدي. اعذرني لأخذ وقتٍ طويل كي أجدها».

علت وجهه الداكن المستبد بهجة طفولية.

وضـع الروبيـة في يده وهو يمتص أسـنانه كمـا لو أن هذا الحدث كان أفضل ما حصل له طوال هذا اليوم.

دخلـت المصعد مع الأخوين للصعود إلى الشـقة لأرى إن كان هناك عملٌ يجب عليَّ أن أنجزه.

عندما دخلنا الشـقة كانت بنكي مدام جالسـة على الأريكة تشـاهد التلفاز، قالت: «لقد سـبقتكم وأكلـت»، أطفأت جهاز التلفـاز، وذهبـت للغرفة الأخرى. قال «النمـس» إنه لا يريد أن يأكل هو أيضا، لذا سيأكل السيد آشوك وحده على طاولة الأكل، طلب مني أن أسخِّن له بعض الخضراوات الموجودة في الثلاجة، وذهبت إلى المطبخ لأنفذ ما طلب مني.

ألقيت نظرة سريعة عليه بينما كنت أفتح الثلاجة، فرأيته على وشك البكاء.

* * *

عندما تكون سائقا، فأنت لا ترى الصورة بأكملها بل ومضات، أو لمحات، أو نذر من الأحاديث، وسرعان ما يصل الأسياد فيها إلى صلب الموضوع.

بعض المعتوهين في سيارة دفع رباعي بيضاء يكون على وشك الاصطدام بسيارتك وهي تحاول أن تجتاز سيارة على الجانب الخطأ من الطريق، فتحدق في وجه هذا المعتوه، تشتمه «بصمت»، ريثما تعود لاستراق السمع مرة أخرى، يكون الحديث الدائر في المقاعد الخلفية قد انتقل إلى موضوع آخر، ولا يمكنك أن تعرف كيف انتهت الجملة.

عرفت أن هناك شيئا ما ليس على ما يرام، لكنني لم أفهم بوضوح إلى أي حد من السوء قد وصل الوضع حتى ذلك الصباح حين قال لي السيد آشوك: «اليوم ستقل السيد موكيش إلى محطة القطار، بالرام».

«حاضر، سيدي». ترددت، وكان بودي أن أسأل، هو فقط؟

هل كان هذا يعني أنه ذاهب ولن يعود؟ هل هذا يعني أن بنكي مدام قد تخلَّصت منه أخيرا عن طريق قرعها باب الغرفة في وجهه وتعليقاتها اللاذعة؟

في الساعة السادسة. انتظرت في السيارة خارج المدخل. اصطحبت الأخوين إلى محطة القطار. لم تأت بنكي مدام معنا.

حملت حقيبة «النمس» إلى العربة التي سيسافر عليها في القطار، ثم ذهبت إلى كشك واشتريت له دوسا[٢٨] ملفوفة في ورق. كان هذا بالذات ما يحب أن يأكله عندما يستقل القطار. لكنني نزعت عنها الورق وفتحتها وأزلت قطع البطاطس منها راميا إياها على سكة الحديد للقطار، لأن البطاطس تسبب له الغازات، ولم يكن يحب هذا. على الخادم أن يعرف مسار أمعاء سيده من الأول إلى الآخر، من الشفتين إلى الشرج.

قال لي «النمس»: «توقف. لدي تعليمات لك».

جلست القرفصاء في زاوية عربة القطار.

«بالرام، أنت لم تعد في الظلام».

«أجل، سيدي».

«هناك قانون في دلهي».

«أجل، سيدي».

أنت تعرف تلك التماثيل لغاندي ونهرو التي توجد في كل مكان؟ وضعت الشرطة كاميرات خفية داخل عيونها لمراقبة السيارات. في إمكانهم أن يروا أيَّ شيءٍ تفعله، أفهمت؟».

«أجل، سيدي».

قطب جبينه وكأنه في حيرة أي شيءٍ آخر يود أن يقوله. ثم أردف: «عليك أن تطفئ مكيف السيارة عندما تكون وحدك في السيارة».

---

(٢٨) غذاء من المطبخ الهندي الجنوبي، عبارة عن عجينة دائرية رقيقة من الأرز والعدس وتحشى وفق الطلب. تؤكل في الإفطار أو الغداء، غنية بالكربوهيدرات والبروتين.

«حاضر، سيدي».

«عليك ألا تشغل الموسيقى عندما تكون لوحدك في السيارة».

«حاضر، سيدي».

«في نهاية كل يوم عليك أن تعطينا قراءة العداد حتى نعرف أنك لم تستخدم السيارة لغرضك الشخصي».

«حاضر، سيدي».

التفت «النمس» إلى السيد آشوك ولمسه على ذراعه. «أعط أهمية لما سأقوله لك، يا أخي آشوك، عليك أن تحقق في أمر هذا السائق عندما أرحل».

لكن السيد آشوك كان يلهو بأزرار هاتفه النقال. وضع هاتفه وقال: «هذا السائق أمين. إنه من لاكسمنغارا. لقد رأيت أسرته عندما ذهبت هناك. وعاد يلهو بهاتفه من جديد.

قال «النمس»: «لا تتكلم بهذه الطريقة. لا تستخف بما أقوله لك».

لكنه لم يعر أخاه أي انتباه، ظل يضغط على أزرار الهاتف: «دقيقة، دقيقة واحدة، إني أتحدث إلى صديق في نيويورك».

يحب السائقون أن يقولوا إن بعض الرجال كالتحويلة الأولى لتروس محرك السيارة. السيد آشوك كان النوع التقليدي من الرجال التعشيقة الأولى للتروس. كان يحب أن يبدأ الأشياء، ولكن لا شيء كان يسترعي انتباهه لفترة طويلة.

بالنظر إليه، اكتشفت شيئين، في الوقت نفسه تقريبا. كلاهما مفعم بالدهشة. أولا، يمكنك أن «تتكلم» من الهاتف النقال، مع

شـخص في نيويـورك، فـقط بواسـطة الضغـط على الأزرار. لا تتوقف عجائب العلم الحديث عن إثارة دهشتي!

ثانيا، أدركت أن هذا الرجل الطويل ذا المنكبين العريضين، والمتعلـم تعليما أجنبيا، والذي سـيكون سـيدي الوحيد بعد دقائـق معدودة، عندمـا يعلو الصفير ليعلن مغـادرة القطار متجها إلى دهـانبـاد، يصبـح ضعيف الشـخصية، عاجـزا، شـارد الذهـن، لا يتمـتع بالغـرائـز العادية التي تجري في دماء الأسياد.

لو تعود إلى لاكسمنغارا سيطلقون عليك الحمل الوديع.

«لماذا تبتسم كاشفا عن أسنانك مثل الحمار؟» قاطع «النمس» حبل أفكاري، وكنت على وشك أن أسقط أمامه معتذرا.

في ذلك المسـاء، السـاعة الثامنة، بعث السيد آشوك رسالة إليّ عن طريق خادم آخر «كن مسـتعدا في غضون نصف ساعة، بالرام. أنا وبنكي مدام سوف نخرج».

الاثنان نزلا، بعد ساعتين وثلاثة أرباع الساعة.

أُقسم إنه بعد أن غادر «النمس»، أصبحت تنانيرها أقصر.

عندمـا تجلس في الخلـف، كان في إمكانـي أن أرى ثدييها نصف مكشـوفين، معلقين خارج فسـتانها في كل مرةٍ أنظر في مرآة الرؤية الخلفية.

كان هـذا الأمر يحرجني جدا، يا سـيدي. وكان هذا يثيرني، والذي هو وضعٌ طبيعي بالنسبة إلى شاب مثلي. ومن جانب آخر، كما تعلم، السـيد والسيدة هما بمنزلة الأب والأم بالنسبة إليك، فكيف تثار بواسطة سيدتك؟

ببساطة كنت أتجنب النظر إلى المرآة. وإذا كان سيقع أي حادث، فهو ليس ذنبي.

سيدي رئيس الوزراء، ربما وأنت تقود سيارتك، وسط الزحام الشديد، عليك أن تتوقف قليلا وأن تُخفض زجاج النافذة، ومن ثم تشعر بالهواء الساخن ينفث من أنبوب العادم لسيارة شحن تسير بجانبك. والآن انتبه، يا سيد رئيس الوزراء، إن هناك سخونة تنفث من محرك ديزل في قبالة أنفك بالضبط.

أنا.

كل مرةٍ تأتي مرتدية ذلك الثوب الأسود الفاضح، كنت أزداد إثارة. كنت أكرهها لارتدائها ذلك الثوب. كنت أكره نفسي أكثر لأنني أفقد السيطرة عليها.

* * *

في نهاية الشهر، صعدت إلى الشقة. كان يجلس هناك بمفرده، على الأريكة التي تحت الصورة ذات البرواز لكلاب البوميرانين.

«سيدي؟».

«إمم. ما الخبر، بالرام؟».

«مر شهرٌ».

«وبالتالي؟».

«سيدي... راتبي».

«صحيح، نعم. ثلاثة آلاف، أليس كذلك؟» استل محفظته - كانت منتفخة ملؤها الأوراق النقدية - نفض منها ثلاث أوراق ووضعها على الطاولة. التقطتها وانحنيت. لابد أن أخاه قد أخبره شيئا عني، لذا قال: «أنت تبعث بعضها إلى أسرتك، أليس كذلك؟».

«كله، سيدي. فقط أبقي بعضه لاحتياجاتي من الأكل والشرب هنا والباقي إلى أسرتي».

«حسنا تفعل، بالرام. الارتباط بالأسرة أمرٌ جيد».

في العاشــرة ليلا، خرجت أمشي إلى السوق على ناصية من مبنى أبراج بكنغهام قطعة ب. كان آخر دكان في السوق، كان فوق الدكان لوحة إعلانات كُتب عليها بالهندوستانية بحروف ضخمة وباللون الأسود:

«أكشن» دكان المشروبات الإنجليزية

تباع هنا مشروبات أجنبية صناعة هندية

كالعــادة كانت هناك حربٌ أهلية كالتي تراها في محلات بيع المشــروبات في وقت المســاء: رجال يتدافعون ويتضاغطون عند طاولة المحصل يمدون أيديهم ويصرخون بأعلى صوتهم. لم يكن الصبية وراء الطاولة يســتطيعون ســماع كلمــة واحدة مما كان يقال وسط هذا الصخب، وكانوا يتلقون الطلبات بصورة خاطئة وهذا بدوره تسبب في مزيد من العراك والصراخ. دفعت جسمي من خلال الحشــد، وضربت بقبضتي علــى الطاولة، وصرخت: «مشــروب! أرخص نوع! فـورا وإلا ســـوف يصــاب أحدٌ بأذى، أنا أقسم!».

اســتغرق مني الأمر خمس عشــرة دقيقة لكــي أحصل على قنينة. حشــوتها داخل بنطالي، لأنه لا يوجد مكانٌ آخر لأخفيها، وعدت إلى بكنغهام.

* * *

«بالرام. لقد أخذت وقتا طويلا».

«اعذريني، مدام».

«تبدو مريضا، بالرام. هل أنت على ما يرام؟».

«نعم، مدام. أشعر بصداع. لم أنم جيدا ليلة البارحة».

«جهِّز الآن الشاي. أتمنى أن يكون طهيك أفضل من قيادتك».

«نعم، مدام».

«لقد سمعت أنك حلوائي، وأسرتك من الطهاة. هل تعرف بعض الأنواع التقليدية من شاي الزنجبيل؟».

«نعم، مدام».

«إذن جهِّزه لي».

لم تكن لدي أدنى فكرة عما تريده مدام بنكي، لكن على الأقل كانت قد غطت صدرها، لقد كان هذا مبعثا للارتياح.

حضَّرت غلاية الشاي ورحت أجهز الشاي. كنت قد وضعت الماء ليغلي، عندما امتلأ المطبخ بالعطر. كانت تراقبني من عتبة المطبخ.

كان رأسي مازال يدور من أثر المشروب منذ ليلة البارحة. كنت أمضغ حبوب الينسون منذ الصباح حتى لا يلحظ أحدٌ رائحة الشراب النتنة في أنفاسي، لكنني مازلت خائفا، تنحيت عنها جانبا وأنا أغسل قطعة من الزنجبيل تحت صنبور الماء.

«ما الذي تفعله؟» صاحت في.

«أغسل الزنجبيل، مدام».

«هذا مع يدك اليمنى. ما الذي تفعله يدك اليسرى؟».

«مدام؟».

نظرت إلى الأسفل.

«توقف عن حك أعلى فخذك بيدك اليسرى!».

«لا تغضبي مدام. سأتوقف».

لا فائدة. إنها لا تتوقف عن الصياح.

«أنت وسخ جداً! انظر كيف تبدو، انظر إلى أسنانك، انظر إلى ملابسك! هناك بان أحمر على أسنانك، وهناك بقعٌ حمراء على قميصك. هذا مقرف! انصرف، نظِّف الفوضى التي صنعتها في المطبخ وانصرف».

أعدت قطعة الزنجبيل إلى الثلاجة، أغلقت الماء المغلي، ونزلت من الشقة.

نظرت إلى نفسي في المرآة العمومية، فتحت فمي. كانت أسناني حمراء، داكنة، متآكلة من فرط مضغ البان. فركت أسناني، لكن شفتي مازالت حمراء.

كانت على حق. البان – الذي صرت أمضغه لسنوات، مثل أبي وكيشان وكل شخص آخر أعرفه – قد غيَّر لون أسناني وأتلف لثتي.

في المساء التالي، نزل السيد آشوك ومعه بنكي مدام إلى بوابة المدخل يتعاركان، دخلا السيارة وهما مازالا يتعاركان، بينما كنت أقود الهوندا سيتي من أبراج بكنغهام، قطعة ب إلى الطريق الرئيسي.

«أأذهب إلى مركز التسوق، سيدي؟» سألته في اللحظة التي سكتا فيها.

بنكي مدام أطلقت ضحكة قصيرة عالية.

كنـــت أتوقع منها هذه التصرفـــات، لكن لم أكن أتوقع منه مع ذلك أن يشاركها الضحك.

«لا تنطقها هكذا، مال[٢٩]، إنها مول،» قال لي: «رددها ثانية».

اســـتمررت في قول مال، واســـتمرا يطلبان مني أن أعيدها، ويستمران في الضحك عليَّ ضحكات هستيرية في كل مرة. في النهاية أمســـك كل منهما بيد الآخر من جديد. إذن كانت هناك جدوى من إذلالي، كنت سعيدا بذلك، على الأقل.

خرجا من السيارة وأغلقا الباب خلفهما، دخلا مركز التسوق التجاري، حياهما حارس بينما اقتربا من الأبواب الزجاجية التي فُتحت من تلقاء نفسها وابتلعتهما.

لم أخرج من الســـيارة ما ساعدني على التركيز أكثر. أغلقت عيني.

مووول.

لا. ليس هذا هو.

موولل.

مالا.

«يا فأر الريف! اخرج من السيارة وتعال إلى هنا!».

مجموعة من السائقين تجمعوا جاثمين في دائرة خارج موقف السيارات لمركز التسوق. أحدهم بدأ يصرخ فيّ وهو يلوح بنسخة من مجلة في يده.

كان السائق ذو الشفتين المصابتين بالبهاق. ابتسمت ابتسامة عريضة وسرت نحوه.

---

(٢٩) كلمة «mall» التي تعني مركز الأسواق التجارية.

«أي أسئلة أخرى عن الحياة في المدينة، يا فأر الريف؟» سأل وسط قذائف من الضحك من كل صوب.

وضع يده عليَّ وهمس في أذني: «هل فكرت فيما قلته لك، يا قطعة الحلوى؟ هل سيدك يحتاج إلى شيء؟ غانجا؟[٣٠] فتيات؟ أولاد؟ كرات الجولف - نوعية جيدة - من كرات الجولف الأمريكية بدون ضرائب؟».

«لا تعرض عليه كل هذه الأشياء الآن» قال سائق آخر. كان هذا جاثما على ركبتيه، يهز سلسلة مفاتيح سيارة سيده مثل صبي يلعب بلعبته. «إنه آتٍ من القرية، مازال غضا. دع حياة المدينة تفسده أولا». التقطَ المجلة - مجلة الجريمة الأسبوعية، طبعا - وبدأ يقرأ بصوتٍ عالٍ. توقفت النميمة. واقترب السائقون بعضهم من بعض.

«كانت ليلة ممطرة. كان فيشال مستلقيا على السرير، تفوح من أنفاسه رائحة المشروب، وعيناه شاخصتان إلى النافذة. وصلت المرأة التي تسكن في الحجرة المجاورة، وكانت على وشك أن تنزع ملابسها».

صاح الرجل ذو الشفتين المصابتين بالبهاق، «انظر إلى هناك! إنه يحدث مرة أخرى اليوم أيضا».

تضايق السائق الذي معه المجلة من هذه المقاطعة، واستمر يقرأ، لكن الجميع قد وقفوا ينظرون في اتجاه مركز التسوق.

إن الذي كان يحدث هناك، سيدي رئيس الوزراء، هو إحدى تلك الحوادث الاعتيادية التي كان يتكرر وقوعها في الأيام الأولى

---

(٣٠) نوع من النبات المخدر مثل القنب أو الماريجوانا.

لافتتاح مراكز التسوق التي غالبا ما كان ينشر عنها في الصحف تحت عنوان «ألا يوجد مكان للفقراء في مراكز التسوق في الهند الحديثة ؟».

فتح الباب الزجاجي، ولكن الرجل الذي أراد الدخول لم يستطع الولوج إلى الداخل. لقد أوقفه الحراس عند الباب. أشار الحارس إلى رجله بعصاه وهزَّ رأسه. كان الرجل ينتعل صندلا، فكلنا نحن السائقين ننتعل الصنادل في أقدامنا. ولكن كل من كان يسمح له بدخول ذلك المكان عليه أن يرتدي الحذاء لا الصندل.

بدلا من الإذعان للحراس والابتعاد عن المكان - كما يفعل كل تسعة من عشرة من هؤلاء غير المسموح لهم بالدخول - انفجر الرجل ذو الصندل: «ألست أنا من البشر أيضا؟».

صرخ بأعلى صوته إلى درجة أن رذاذا من لعابه اندفع من فمه كما النافورة، وأصبحت ركبتاه ترتجفان. أطلق أحد السائقين صفيرا عاليا. وضع الكَنَّاس الذي كان يكنس الجهة الخارجية من المجمع مكنسته جانبا ووقف يراقب.

للحظة ما، كان الرجل الذي عند الباب على أهبة الاستعداد لضرب الحارس، ولكنه استدار إلى الخلف ومشى.

«هذا الرجل كامل الرجولة، لو أننا جميعا كنا مثله، لحكمنا الهند الآن. وجعلنا هؤلاء الرجال الذين يتحكمون فينا اليوم يمسحون أحذيتنا».

ثم عاد السائقون إلى حلقتهم، وتابعوا الاستماع لبقية القصة التي كان يقرأها السائق من المجلة.

راقبت المفاتيح التي تدور في السلسلة، راقبت الدخان الذي يتصاعد من السجائر، راقبت البان الذي كان يرتطم بالأرض في خطوط مائلة.

أسوأ شيء في كونك سائقا هو أن لديك وقت فراغ طويلا، عندما تكون في انتظار سيدك ليعود. يمكنك أن تقضيه في الدردشة، يمكنك أن تقرأ مجلات الاغتصاب والقتل، يمكنك أيضا أن تنمي عادة خاصة بالسائق - وهي نوع من اليوجا، أنا لا أمزح - عبارة عن وضع إصبع في أنفك وتترك فكرك يسبح في فراغ لساعات من الزمن «عليهم أن يسموه وضعية اليوغا الخاصة بالسائق». يمكنك أن تدخل خلسة قنينة من المشروب الهندي إلى السيارة، فالضجر يجعل كثيرا من السائقين المخلصين يعاقرون الخمر. لكن إذا استغل السائق وقت فراغه كفرصة للتفكير، فسيصبح أسوأ جزء من عمله أحسنه على الإطلاق.

ذلك المساء، بينما كنا عائدين إلى الشقة، نظرت في المرآة للرؤية الخلفية. وجدت السيد آشوك مرتديا قميصا قصير الكمين. لم يكن أبدا كالقميص الذي كنت سأشتريه لنفسي من المعرض. الجزء الأكبر منه كان فارغا أبيض اللون بتصميم بسيط وصغير في وسطه. كنت سأشترى واحدا بألوان مختلفة، وعليه كثير من الكتابات والرسومات. إنه شيء ذو قيمة أعلى من السعر الذي سأدفعه.

وذات ليلة، بعد أن صعد السيد آشوك وبنكي مدام إلى الشقة، ذهبت إلى السوق المحلي. وتحت الأضواء الصفراء المشعة للمصابيح، كان الرجال جاثمين على الطريق يبيعون في

سـلالهم الأسـاور الزجاجية والمعدنية، الألعاب والدمى، مناديل الرأس، الأقلام، وسلاسـل المفاتيح. وجدت الشخص الذي يبيع القمصان ذات الأكمام القصيرة.

واظبـت على قـول «لا» عند عرضه علـيَّ أي قميص إلى أن رأيت واحدا أبيض وفي وسطه كلمات صغيرة باللغة الإنجليزية. وذهبت إلى الرجل الذي يبيع الأحذية السـوداء. واشتريت لأول مرة معجون أسـنان. حصلت عليه من الرجل نفسه الذي يبيعني البان.

المبيض شاكتي
بالفحم والقرنفل
لتنظيف الأسنان
روبية واحدة ونصف فقط!

بينما كنت أنظف أسـناني بإصبعي، لاحظـت ما كانت يدي اليسـرى تعمل: زحفـت إلى أعلـى فخذي مـن دون أن أدري، الطريقة نفسـها التي تزحف بها السـحلية خلسة على الحائط، وكنت على وشك أن أحك.

انتظـرت. وفي اللحظـة التي تحركت، قبضـت عليها بيدي اليمنى.

قرصـت الجلد السـميك بين إبهامي وسـبابتي، حيث يكون الوجع على أشـده، ومسـكت جلد يدي لمدة دقيقة كاملة. عندما تركته، كانت قد تشكّلت آثار حمراء على جلد الكف.

لكِ هذا.

إنه العقاب لهذه الفعلة من الآن فصاعدا.

تكثَّف معجون الأسنان في فمي وتحول إلى رغوة حليبية، وسال على طرفي شفتيَّ.

بصقته.

فرَكت أسناني. فركت وفركت. وبصقت.

فركت وفركت. وبصقت.

لماذا لم ينهني أبي عن هذه الفعلة؟ لماذا لم يعلمني أن أنظف أسناني بمعجون الأسنان؟ لماذا رباني كالحيوان؟ لماذا يعيش الفقراء في مثل هذه القذارة، ومثل هذا القبح؟

فركت وفركت. وبصقت.

فركت وفركت. وبصقت.

ليت الإنسان يستطيع أن يبصق ماضيه بهذه البساطة.

* * *

في الصباح التالي، بينما كنت أقود السيارة لأُقلَّ بنكي مدام إلى مركز التسوق، شعرت بصرة صغيرة من القطن تضغطها قدمي المحشورة في الحذاء. خرجت بنكي مدام من السيارة، وهي تغلق الباب بقوة. انتظرت لمدة ربع ساعة. وداخل السيارة غيَّرت ملابسي.

اتجهت إلى الممر المؤدي إلى مركز التسوق مرتديا قميصي الجديد. ولكن هناك، بمجرد رؤيتي الحارس استدرت وعدت أدراجي إلى السيارة الهوندا سيتي. دخلتُ السيارة وسددت ثلاث ضربات من قبضتي إلى ذلك الغول. لمست الملصق الذي عليه صورة الإلهة كالي مع لسانها الأحمر الطويل، لتمنحني الحظ السعيد.

هذه المرة ذهبت ناحية الباب الخلفي.

كنت واثقا بأن الحارس سيتحداني ويقول: «لا، ليس مسموحا لــك بأن تدخل»، حتى بعد أن ارتديتُ زوجا من الحذاء الأســود وقميصــا أبيض عليه بعض الكلمات الإنجليزية، كنت واثقا حتى اللحظة الأخيرة، بأنه سيتم هناك الإمساك بي وطردي، وصفعي وإهانتي.

حتى وأنا داخل مركز التسوق، كان ينتابني شعورٌ بأن أحدهم ســيقول: يا ناس هذا الرجل ســائقٌ مأجور! ما الذي يفعله هنا؟ وكان هناك في كل دور من أدوار الســوق حرَّاس في ملابســهم الرســمية الرمادية اللون، يبدو لــي أن جميعهم يراقبونني. كان هذا هو طعم جرعتي الأولى من حياة الهارب.

صــرت مدركا للعطر فــي الجو، والأضــواء الذهبية، وهواء المكيفات المنعش والناس في قمصان ذات أكمام قصيرة والجينز، كانوا يرمقونني باستغراب. رأيت مصعدا يصعد وينزل وبدا كأنه مصنــوع من زجاج من ذهب خالــص. رأيت محلات تجارية ذات جدران زجاجية وقد علِّقت فوقها صور لرجال ونســاء أوروبيات حسناوات المظهر. ليت السائقين الآخرين يرونني وأنا أمشي هنا الآن!

كان الخــروج من هنــاك بحاجة إلى التحايــل مثل الدخول، والحراس لم ينبســوا ببنت شفة، ســرعان ما وصلت إلى موقف الســيارات، دخلت السيارة، واستبدلت ملابســي بتلك المألوفة، كالقميص ذي الألوان الصارخة، ووضعت قميص الرجال الأغنياء الأبيض اللون داخل صرة بالقرب من قدمَي.

تركت السـيارة جريا إلى حيث يتجمع السائقون. لم يلاحظ أي منهـم دخولي وخروجي من المركز. لقد كانوا منشـغلين جدا بشيء آخر. أحد السائقين - ذلك الذي كان يدوِّر سلسلة المفاتيح فـي يده طوال الوقـت - كان لديه هاتف نقال. أجبرني أن ألقي نظرة على هاتفه النقال.

«هل تتصل بزوجتك عن طريق هذا الشيء؟».

«لا يمكنك أن تتكلم مع من تشـاء عن طريق هذا الشيء، أيها الغبي، إن هذا الهاتف يستقبل المكالمات فقط!».

«إذن مـا جـدوى هاتف لا تسـتطيع أن تتكلم بواسـطته مع أسرتك؟».

«إنه لأجل أن يهاتفني سـيدي ويعطيني الإرشادات عن المكان الـذي هو فيه وبالتالي أذهب لآخذه. فقط عليَّ أن أضعه هنا - في جيبي - أينما أذهب».

اسـترد الهاتف النقال مني، مسحه ونظفه، ثم وضعه في جيبه. حتى ذلك المسـاء، كانت مكانته بين السائقين متدنية، كان سـيده يسـوق سـيارة ماروتي - سـوزوكي زِن، سيارة صغيرة. اليوم أصبح هو الذي يترأسـنا كما كان يتمنى. والآن هاتفـه النقال ينتقل مـن يد إلى أخـرى. يحملقون فيه مثل القردة التي تحملق في شـيء براق التقطته. شـممتُ رائحة الأمونيـا في الجو؛ كان أحد السـائقين يتبوَّل في مكان ليس ببعيد عنا.

من الجانـب الآخر رمقني السـائق ذو الشـفتين المصابتين بالبهاق.

قال: «يا فأر الريف، إنك تبدو كأنك تريد قول شيء ما».
أومأت برأسي

* * *

ازداد الاختنــاق المروري في النهار. يبدو أن كل مســاء تزداد أعداد السيارات. كلما ازداد الازدحام المروري، ازداد مزاج بنكي مدام سوءا. ذات مساء، بينما كنا نزحف نحو طريق م. ج. لندخل غورغاون، فقدت أعصابها تماما وطفقت تصرخ.

«لم لا نعود، آشوكي؟ انظر إلى هذا الازدحام الكريه. إن هذا يتكرر كل يومين الآن».

«أرجوكِ لا تبدئي بهذا الآن. أرجوكِ».

«لم لا؟ أنت وعدتني، آشوكي، إننا سنبقى في دلهي لمدة ثلاثة أشــهر فقط للانتهاء من بعض الأعمال ونعود. لكن الظاهر أنك هنا لكي تعالج مشــكلة ضريبة الدخل هذه. هل كنت تكذب عليَّ طول الوقت؟».

لــم يكن الذي يحصــل بينهما ذنبه، أنا أصــر على ما أقوله حتــى لو كنت في محاكمة قانونية. كان زوجا صالحا، لديه دائما خطط لإســعادها. في عيد ميلادها، مثلا، جعلني ألبس ملابس المهراجا، بعمامة حمراء، ونظارات سوداء، أقدم لها الطعام بهذا الزي. أنا لا أعني الطعــام التقليدي، فقد كان يجعلني أقدم لها ذلك الطعام ذا الرائحة النفاذة الذي يأتي في علب الورق المقوى، والذي يثير جنون الأغنياء تماما.

ضحكَــتْ كثيرا وظلتْ تضحك عندما رأتني في زي المهراجا. انحنيت لها بأقصى ما اســتطعت وبيــدي العلبة، وبعد التقديم،

وقفت تحت صورة كودلــز وبودلز طاويا يدي أنتظر أي تعليمات أخرى كما طلب مني السيد آشوك.

«آشــوك»، قالت له «اســتمع الآن إلى هذا. بالــرام، ما هذا الشيء الذي نأكله؟».

كنت أعرف جيدا أنني أمام مصيدة، ولكن لم يكن بيدي حيلة. فأجبت، انفجر الاثنان في الضحك.

«قلها ثانية، بالرام».

ضحكا مرة أخرى.

«إنهــا ليســت بيججــا. هــي بيــززا. الفظها علــى النحو الصحيح».

«انتظــري، أنت أيضـــا تلفظينها خطأ. هناك تاء في وســط الكلمة: بيت زا».

«لا تصحح لي لغتي الإنجليزية، آشــوك. لا يوجد حرف «ت» في الوسط. انظر إلى العلبة».

كان عليَّ أن أحبس أنفاســي وأنا واقف أنتظرهما لينتهيا من الأكل. فلهذا الطعام رائحة كريهة.

«لقد قطع البيتزا على نحو رديء. أنا لا أفهم كيف يكون هذا الشخص قد أتى من عائلة مشهورة بالطهو».

«لقد طردت الطباخ منذ قليل. أرجوكِ لا تطردي هذا الشخص أيضا، إنه رجل أمين».

حينمــا انتهيا مــن الأكل، نظفت بقايا الطعــام من الأطباق وغســلتها. من خـــلال نافذة المطبــخ، كان في إمكانــي أن أرى الطريق الرئيسية لغورغاون، تغرق في أضواء الأسواق التجارية،

وقــد افتُتح مركز للتســوق في نهاية الطريق، وكانت الســيارات تجري كالسيل نحو بواباته.

سحبت ستارة المطبخ إلى الأسفل وعدت إلى غسل الأطباق.

«بيجحا».

«بيزجحا».

«زيبجا».

«بيزجا».

مسحت المغسلة بكفي وأطفأت الأنوار.

دخــل الاثنان إلى غرفة النوم. ســمعت صراخا من الداخل. مشيت على أطراف أصابعي. ذهبت إلى الباب الموصود. وضعت أُذني غلى خشب الباب.

عــلا الصراخ من الطرفين، وتبعــه زعيق ثم صوت لحم رجل يصفع لحم امرأة.

حان الوقت الذي تكون فيه مسؤولا، أيها الحمل الذي ولد من صلب الأسياد. قفلت الباب خلفي وأخذت المصعد إلى الأسفل.

بعد نصف ســاعة، بالضبط في الوقت الذي كنت سأنام فيه، جاء خادم آخر وصاح فيَّ. لقد دق الجرس لي! لبســت بنطالي، غســلت يدي مرة بعد أخرى تحت الصنبور العام، وقدت السيارة إلى مدخل المبنى.

«خذنا إلى المدينة».

«حاضر، سيدي. وأي مكان في المدينة؟».

«هل تريدين الذهاب إلى مكان محدد، بنكي؟».

لم تتفوه بكلمة.

«خذنا إلى كونوت بليس، بالرام».

لا الزوج ولا الزوجة تكلما في أثناء قيادتي للسيارة. كنت لم أزل مرتديا لبس المهراجا. نظر السيد آشوك بعصبية إلى بنكي مرات عديدة.

«أنت محقة يا بنكي،» قال بصوت مبحوح. «لم أكن أقصد أن أتحداكِ. لكني قلت لك، هناك فقط شيء واحد خطأ في هذا المكان، ألا وهو ما يسمى بالنظام البرلماني الديموقراطي الفاسد. وإلا كنا مثل الصين الآن».

«آشوك. أشعر بصداع. أرجوك».

«سوف نمرح الليلة. هناك مطعم جيد من سلسلة مطاعم ت. ج. ف. فرايديز. سيعجبك».

عندما وصلنا إلى كونوت بليس، جعلني أتوقف أمام مصباح نور كبير من النيون الأحمر.

«انتظرنا هنا، بالرام. سنعود بعد عشرين دقيقة».

ذهبا لأكثر من ساعة وأنا مازلت داخل السيارة، أراقب أضواء «كونوت بليس».

سددت ضربات عديدة إلى ذلك الغول ذي الزغب الأسود. نظرت إلى الملصقات الممغنطة للإلهة كالي مع جماجمها المعلقة حول عنقها ولسانها الأحمر الطويل، أخرجت لساني لهذه الساحرة العجوز وتثاءبت.

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل وكان البرد قارسا.

كنت أود لو أستمع لبعض الموسيقى لتمضية الوقت أسرع، لكن «النمس» قد منع هذا.

فتحت باب السيارة، شممت رائحة دخان في الهواء. كان السائقون الآخرون قد أشعلوا النار، وراحوا يرمون قطعا من البلاستيك فيها.

يلوذ الأغنياء في دلهي من البرد بمدافئ كهربائية، أو غازية، أو حتى يحرقون قطع الخشب في المواقد في منازلهم. ولكن عندما يحتاج المشردون، أو الخدم مثل الحراس الليليين، أو السائقون الذين يتحتم عليهم المكوث في الخارج، إلى بعض الدفء، فإنهم يحرقون أي شيء يجدونه على الأرض. أحد أفضل الأشياء التي تستخدم كوقود هو السيلوفان، النوع الذي تغلف فيه الفواكه والخضراوات، والكتب التجارية، في جوف اللهب، تتغير خواصها وتذوب لتصبح وقودا عديمة اللون. المشكلة الوحيدة هي أنها في أثناء الاحتراق، ينتج منها دخان أبيض اللون يقلب معدتك.

لوَّح السائق ذو الشفتين المصابتين بالبهاق بإحدى يديه لي وبالأخرى كان يغذي النار بأكياس السيلوفان.

«يا فأر الريف، لا تجلس هناك وحدك! هذا يقودك إلى أفكار شيطانية!».

كان الدفء مغريا.

لكن لا، إذا اقتربت منهم، فسوف أشعر بدغدغة في فمي، وسأطلب البان.

«انظروا إلى هذا المغرور! إنه اليوم يرتدي ملابس المهراجا!».

«تعال معنا يا مهراجا بكنغهام!».

بعيدا عن الدفء، بعيدا عن الإغراءات، مشيت على رصيف كونوت بليس، حيث امتلأ الهواء برائحة الطين المخفوق.

كانت هناك أعمال بناء في أي اتجاه تنظر إليه في دلهي. هيكل من الزجاج يرتفع لإنشاء مركز للأسواق التجارية أو مكاتب، صفوف من قواعد هائلة من الإسمنت على شكل حرف T، مثل خط من السندانات، حيث الجسور أو الطرق المعلقة ترتفع فوقها شيئا فشيئا، وهناك ثقوب مثل فوهة البركان حُفرت لتشييد المنازل الجديدة والضخمة للأغنياء. وهنا أيضا، في قلب كونوت بليس، في جنح الليل، تحت الأضواء المشعة والمركّزة، يستمر البناء. وفي حفرة عملاقة كانت الأجهزة تزمجر من جوفها.

لقد سمعت عن هذا المشروع، إنهم يحفرون لسكة الحديد تحت أرض دلهي. كانت الحفرة التي حفروها لهذا العمل بحجم أكبر منجم فحم رأيته في دهانباد. وقف معي رجل آخر يشاهد المنظر، رجل حسن الهندام يلبس قميصا وربطة عنق وبنطالا بطيات أنيقة. غالبا هذا النوع من الناس لا يتحدثون إلى أناس مثلي، لكن لعل ارتدائي لثياب المهراجا جعل الأمر يختلط عليه.

«هذه المدينة سوف تصبح مثل دبي في غضون خمس سنوات، أليس كذلك؟»

أجبت بازدراء: «خمس سنوات، قل في سنتين!».

«انظر إلى الرافعة الصفراء، إنها وحش».

لقد كانت بالفعل كالوحش، رابضة على أعلى الحفرة بفكيها الحديديتين الواسعتين تتناوب على حفر أخاديد وتلتهم كميات هائلة من التراب. مثل المخلوقات التي عليها أن تذعن له، يمشي رجال

في حلقات حول الآلة وعلى رؤوسهم أوعية للتراب؛ لم يكن حجمهم يبدو أكبر من الفئران بكثير. حتى في ليل الشتاء القارس كان العرق قد جعل قمصانهم تلتصق بأجسادهم السوداء اللامعة.

كان البرد قارسا عندما عدت إلى السيارة. جميع السائقين قد غادروا المكان. لا خبر عن أسيادي. أغمضت عيني وحاولت أن أتذكر ما الذي أكلته للعشاء.

قطع من اللحم الداكن في مرقة كاري لذيذة وحارة في خليط من الزيت الأحمر والصلصة. لذيذ.

لقد أيقظاني بضربات على نافذة السيارة. زحفت على عجل خارج السيارة وفتحت لهما الباب. كانا مسرورين وصاخبين، وتفوح منهما رائحة المشروب الإنجليزي، مهما كان نوعه فأنا لم أجربه في دكان المشروبات إلى الآن.

أقولها لك، لقد كان سلوكهما حيوانيا حينما كنت أقود بهما خارج كونوت بليس. راقبتهما لمدة أطول، فاصطادني السيد آشوك وأنا أنظر إليهما في المرآة.

شعرت كالطفل الذي يختلس النظر من فتحة باب حجرة نوم والديه. بدأت أعرق، على أقل تقدير، كنت أتوقع أن يمسك بياقتي، ويطرحني أرضا، ثم يدوسني بحذائه، على غرار ما كان يفعله أبوه مع الصيادين في لاكسمنغارا.

لكن هذا الرجل، كما أخبرتك سابقا، يختلف عن والده، كان في إمكانه أن يصبح أحسن من والده. عيناي قد أثّرتا في وجدانه؛ لكز بكوعه بنكي مدام وقال: «نحن لسنا هنا بمفردنا، أنت تعلمين ذلك».

تعكر مزاجها وأشاحت بوجهها إلى الناحية الأخرى. مرت خمس دقائق من الصمت. مالت عليَّ ورائحة الكحول تفوح منها، «أعطني المِقوَد».

«لا، بنكي، لا تفعلي هذا، أنت مخمورة، دعيه».

«يالها من مزحة داعرة! الجميع في الهند يشربون ويقودون السيارة. لكنك لا تريدني أنا أن أقود».

«أوه، أنا أكره هذا» ركد في مقعده ثم قال: «بالرام، تذكَّر لاتتزوج أبدا».

«هل سيقف عند إشارة المرور؟ بالرام، لماذا تريد الوقوف؟ قُد فقط!».

«إنها إشارة المرور، بنكي. دعيه يقف. بالرام اتبع قواعد المرور. أنا آمرك».

«أنا آمرك أن تقود، بالرام! قُد!».

صرت مرتبكا الآن، توصلت إلى حل وسط، أخذت السيارة خمس أقدام أمام الخط الأبيض، ثم توقفت.

«هل لاحظت ما الذي فعله؟» قال السيد آشوك. «كانت هذه حركة ذكية».

«نعم، آشوك. إنه عبقري ملعون».

ظهر الوقت التنازلي على العدَّاد بجانب الإشارة الضوئية الحمراء، مازال هناك ثلاثون ثانية ليتغير الضوء الأحمر إلى الضوء الأخضر. كنت أراقب العدَّاد حين تجسد بوذا عملاقا على يميني. أقبل طفلٌ متسول على الهوندا سيتي يحمل تمثالا جميلا لبوذا من الجص. كل ليلة في دلهي، يبيع المتسولون دائما

أشـــياء على قارعة الطريق، مثل الكتـــب أو التماثيل أو الفراولة في صناديق، لكن لسبب ما، ربما لأن أعصابي قد أُتلفت، أمعنت النظر أكثر مما يجب في تمثال بوذا.

كانت التفاتة بســـيطة من رأسي ولمدة نصف ثانية، لكن بنكي مدام اصطادتني.

قالت، «بالرام معجبٌ بهذا التمثال».

ضحك السيد آشوك.

«بلا شك، إنه متخصص في الفنون الجميلة».

أخفضت النافذة الزجاجية للســـيارة وقالت للطفل المتسول: «دعنا نره».

دفع الطفـــل أو الطفلة، لا يمكنك أن تعـــرف جنس الأطفال المتسولين، تمثال بوذا داخل الهوندا.

«هل تود شراء هذا التمثال أيها السائق؟».

«كلا، مدام، أنا آسف».

«بالـــرام حلوائـــي، صانع الحلوى، ســـائق الســـيارات، خبير التماثيل».

«أنا آسف، مدام».

كلما أكثرت الاعتذار، أكثرا من تســـليهما بي. وأخيرا، تغيرت الإشـــارة الضوئية الحمراء إلى الإشـــارة الخضراء، واضعة حدا لمعاناتي فقدت الســـيارة بأســـرع ما اســـتطعت مبتعدا عن هذا البوذا التعيس.

مسَـــكتْ كتفي وضغطته: «بالرام، أوقف السيارة». نظرت إلى السيد آشوك لأرى ردة فعله، لم يقل شيئا.

أوقفت السيارة.

«بالرام، اخرج. سنتركك لتقضي هذ الليلة مع بوذاك. المهراجا والبوذا، معا الليلة».

جلسَتْ في مقعد السائق، أدارت محرك السيارة، وقادت مبتعدة عني، بينما السيد آشوك الثمل يضحك ويلوح بيده تحية الوداع. لو لم يكن مخمورا إلى هذا الحد، لما سمح لها بأن تعاملني بهذا الأسلوب، أنا واثق بما أقول. كان الناس يستغلونه. لو كنت أنا وإياه في السيارة، لما حدث أي شيء من هذا القبيل لأي منا.

كانت هناك مساحة بين جانبي الطريق، زُرعت فيها الأشجار. جلستُ تحت شجرة.

كان الطريق ميتا، مرت سيارتان، واحدة تتبع الأخرى، أنوارها الأمامية تحدث تموجات مستمرة على أوراق الشجر، مثلما يحدث للأشجار التي تنمو على البحيرات. كم من الآلاف من هذه المناظر الجميلة عليك أن تشاهدها في دلهي لو كنت طليقا تذهب أينما شئت أو تفعل ما شئت.

توجهت سيارة نحوي مباشرة، أنوارها الأمامية تومض وتختفي، ثم يعلو صوت بوقها. قامت الهوندا سيتي باستدارة خاطئة، وكانت مقبلة عليَّ كأنما تريد أن تجتثني مع تلك الأشجار. رأيت بنكي مدام وراء المقود، تضحك وتصيح، والسيد آشوك يجلس بجانبها، مبتسما.

هل رأيت تجعيدة على جبينه تدل على قلقه على مصيري، هل رأيت يده ممسكة بعجلة القيادة يحاول أن يغير اتجاه السيارة كي لا تصطدم بي؟

هذا ما أريد أن أفكر فيه.

توقفت السـيارة على مسافة نصف قدم أمامي، وسط زعيق الإطارات المطاطية وهي تحتك بالأرض محترقة. انكمشت على نفسـي: يا لإطاراتي المسـكينة، كم عليها أن تعاني بسـبب هذه المرأة.

فتحت بنكي مدام الباب وأخرجت وجهها المبتسم لي.

«أتعتقد أني نسيتك ورحلت عنك، يا سيد مهراجا؟».

«كلا، مدام».

«أنت لست غاضبا مني، أليس كذلك؟».

«لا أبدا». ثم أضفت لكي أزيد من مصداقيتي: «أرباب العمل مثل الأب والأم، كيف لي أن أغضب منهما؟».

دخلتُ السيارة وجلسـتُ في المقعد الخلفي. استدارت مرة أخـرى في وسـط الطريق، ثم انطلقت بأقصى سـرعة لديها كأنهـا في سـباق، تتجاهل الإشـارات الحمـراء واحدة بعد الأخرى. يصرخان ويتجاذبان أحدهما الآخر، يصدران أصواتا وضحكات، وهما مسـلوبا الإرادة. كنت أراقب المشهد وأنا في المقعد الخلفي، وفجأة وثب شـيء أسود صغير في الطريق ثم اصطدمت السيارة به ورطمته على الأرض حيث دارت عجلات السيارة فوقها.

مـن الطريقة التي هشـمت بها العجلات ذلك الشـيء، ومن الصمـت الذي نزل علينا عندما توقفت السـيارة، لم يكن هناك نشـيج أو نباح، أدركت فورا ما الذي حدث لذلك الشـيء الذي اصطدمنا به.

كانت ثملة إلى درجة أنها لم تستطع كبح جماح السيارة على الفور، وفي الوقت الذي توقفت فيه السيارة كنا قد ابتعدنا مسافة مائتين أو ثلاثمائة ياردة ثم توقفنا بشكل كامل. في وسط الطريق. ظلت يدها على المقود، وفوها مفتوح.

«كلب؟» سألني السيد آشوك، «كان كلبا، أليس كذلك؟».

أومأتُ برأسي. كان نور مصابيح الشارع خافتا، وذلك الشيء - كومة كبيرة سوداء - بدا من خلفنا على مسافة بعيدة جدا بحيث لن يتمكن المرء من أن يراه. لم تكن أي سيارة على الطريق، ولا أي أثر لوجود أي إنسان حي.

ومثل الحركات البطيئة في مقاطع الأفلام، ارتفعت يداها من المقود وغطت أذنيها.

«لم يكن كلبا! لقد كان...».

من دون أي كلمة بيننا، أنا والسيد آشوك قمنا بدورنا كفريق واحد. أمسك بها، وضع يده على فمها وجذبها خارج مقعد السائق، هرعت خارج السيارة من المقعد الخلفي. وصفقنا الأبواب في الوقت نفسه؛ أدرت مفتاح السيارة وقدتها بأقصى سرعة عائدين إلى غورغاون.

في وسط اللحظات التي كانت قد هدأت، وبينما نحن نقترب من القطعة السكنية التي بها الشقة، عادت تقول: «علينا أن نعود إلى المكان».

«لا تكوني حمقاء، بنكي. بالرام سيأخذنا إلى الشقة بعد دقائق من الآن. لقد انتهى كل شيء».

«لقد اصطدمنا بشيء، آشوك». تحدثت بنبرة صوتٍ وادعة.

«علينا أن نأخذ هذا الشيء إلى المستشفى».

«كلا».

فغـــرت فاها مرة أخــرى، كانت على وشــك الصراخ في أي لحظة. وقبل أن تفعل هذا أســكتها واضعا راحة كفه على فمها، مـــد يده إلى علبـــة المناديل الورقية، أخذ بعضا منها ودســـه في فمهـــا، وهي تحـــاول أن تلفظه إلى الخارج؛ مزَّق الوشـــاح الذي كانت تلف بها رقبتها، وربطه على فمها بإحكام. دفع رأســـها إلى حضنه وأبقاه هكذا.

عندما وصلنا إلى الشقة، سحبها إلى المصعد والوشاح مازال حول فمها.

أحضرتُ دلوا وغســـلتُ الســـيارة. مســـحت أســـفلها جيدا، وأزلـــت كل قطعة من اللحم والـــدم، حيث كانت هناك قطع حول العجلات.

عندما نزل إلى موقف السيارات، كنت لاأزال أنظف العجلات الأربع للمرة الرابعة.

«حسنًا؟».

قدمت له قطعة من القمـــاش الأخضر ملطخة بالدماء كانت قد التصقت بإحدى العجلات.

«هذا نوع رخيص من القماش، سيدي، هذا القماش الأخضر- قلـــت لـــه وأنا أدعكه بـــين أصابعي - إنه القماش الذي يلبســـه الأطفال.

«هـــل تعتقد أن الطفـــل..». لم يكن في اســـتطاعته أن ينطق بالكلمة.

«لم يكن هناك أي صوت بتاتا، ســيدي. لم تتحرك الجثة ولو قليلا».

«يا إلهي، بالرام، ماذا نفعل الآن، ماذا نفعل؟».

ضرب فخذه بيده. «ماذا يفعل هؤلاء الأطفال هناك، يسيرون على طرقات دلهي في الواحدة بعد منتصف الليل، بلا حســيب أو رقيب؟».

عندما قال هذا التمعت عيناه.

«أوه، كانت واحدة من أولئك الناس».

«الذين يعيشون تحت الجسور المعلقة، سيدي. هذا ما أعتقده أنا أيضا».

«في هذه الحالة، هل سيفتقدونها...؟».

«لا، لا أعتقد ذلك، سيدي. أنت تعلم كيف يعيش هؤلاء الناس في «الظـــلام»: لديـهم ثمــانية أو تسعة من الأطـفال، وأحـيانا لا يعرفون أسماء أولادهم. والداها حتى لو كانا يسكنان في دلهي، أو حتى لو كانا يعرفان مكانها الليلة فلن يلجآ إلى الشرطة».

وضع يــده على كتفي، بالطريقة نفســها التي كان يلمس بها كتف بنكي مدام الليلة. ثم وضع إصبعه على فمه.

أومأت برأســي: «بالتأكيد، ســيدي. نم الآن وخذ قسطا من الراحة، كانت ليلة صعبة عليك أنت ومدام بنكي».

خلعت لبس المهراجا، وبعدها خلدتُ إلى النوم. لقد كنت تعِبا للغاية، ولكن كانت هناك ابتسامة رضا على شفتي، الرضا الذي يصاحبك عندما تؤدي واجبك كخادم تجاه مخدومك في أصعب اللحظات.

في الصباح التالي، مسحت مقاعد السيارة كالعادة، مسحت الملصقات الممغنطة التي عليها وجه الإلهة، ومسحت الغول الصغير، ثم أشعلت عود البخور ووضعته داخل السيارة حتى تكون رائحة المقاعد زكية ومفعمة بالقدسية. غسلت العجلات مرة أخرى لزيادة التأكيد بأنني لم أنس أي بقعة من الدم غفلت عنها البارحة.

ثم ذهبت إلى غرفتي وانتظرت. في المساء جاء أحد السائقين وأخبرني بأنني مطلوبٌ في بهو الاستقبال من دون السيارة. كان في انتظاري هناك «النمس»، لا أعلم كيف وصل إلى دلهي بهذه السرعة، لا بد أنه استأجر سيارة وقادها إلى هنا بنفسه طوال الليل. ابتسم لي ابتسامة عريضة وربت على كتفي. أخذنا المصعد ثم صعدنا إلى الشقة.

جلس على الطاولة، وقال: «اجلس، اجلس، استرح، بالرام. أنت جزء من الأسرة».

امتلأ قلبي بالفخر. جلست القرفصاء على الأرض، مسرورا كالكلب، منتظرا أن يكررها. أشعل سيجارة ودخنها. لم أره يدخن قط. نظر إليَّ بعينين ضيقتين.

«الآن، من الضروري جدا أن تمكث هنا في أبراج بكنغهام قطعة «ب» ولا تذهب إلى أي مكانٍ آخر - ولا حتى قطعة «أ» - لبضعة أيام. وألا تبوح بأي شيء لأيٍ شخص عما حدث».

«حاضر، سيدي».

أمعن النظر إليَّ برهة وهو يدخن. ثم أردف: «أنت جزء من الأسرة، بالرام».

«أجل، سيدي».

«اذهب الآن إلى ملحق الخدم وانتظر هناك».

«حاضر، سيدي».

مرت ساعة من الوقت، وبعدها استدعوني لأصعد ثانية.

هذه المـرة كان هناك رجـل يجلس مع «النمـس» على طاولة الطعـام. كان ينظر إلـى ورقة مطبوعة ويقرأهـا من دون صوت بشفتيه الملطختين بلون البان الأحمر. كان السيد آشوك في غرفته على الهاتف، سـمعت صوته من خلال البـاب الموصود. كان باب غرفة بنكي موصودا أيضا. كان البيت بأكمله قد سلم لـ «النمس».

«اجلس بالرام، استرح».

«حاضر، سيدي».

جلست جاثما غير مرتاح.

«هل تريد بعضا من البان، بالرام؟» سألني «النمس».

«كلا، سيدي».

ابتسـم. «لا تكن خجولا، يا بالرام. أنـت تمضغ البان، أليس كذلك؟» التفت إلى الرجل ذي المعطف الأسود. «أعطه بعضا من البان ليمضغ، أرجوك».

الرجل ذو المعطف الأسود وضع يده في جيبه وأمسك ببعض أوراق البان الأخضر. مددت يدي. أسـقط أوراق البان في يدي من دون أن يلمسني.

«ضعها في فمك، بالرام. إنها لأجلك».

«حاضر، سيدي. إنها جيدة. لينة. شكرا لك».

«دعنا نراجع هذا الأمر بأسره بوضوح وببطء، موافق؟» قال الرجل ذو المعطف الأسود. كاد العصير الأحمر يسيل من فمه وهو يتكلم.

«حسنا».

«لقد سوَّينا الأمر مع القاضي. لو أن صاحبكم يمتثل لما نقوله له، فلن يكون هناك ما يقلقنا بعد ذلك».

«سيمتثل رجلنا لما يُقال له، لا داعي للقلق. إنه جزءٌ من الأسرة. إنه ولدٌ مطيع».

«جيد، جيد».

نظر الرجل ذو المعطف الأسود إليَّ وأمسك قطعة من الورق.

«هل تعرف القراءة، يا ولد؟».

«نعم، سيدي». أخذت الورقة من يده وقرأتها.

لمن يهمه الأمر

أنا، بالرام حلوائي، ابن فيكرام حلوائي، من قرية لاكسمنغارا في محافظة غايا، أقر بما يلي وبمحض إرادتي ورغبتي.

أنني كنت أقود السيارة حين صدمت جسما غير معلوم الهوية، لشخص أو أشخاص، أو شخص وأشياء، في ليلة الثالث والعشرين من شهر يناير في هذه السنة. وحينها داهمني الخوف والهلع، فرفضت القيام بواجبي تجاه المصاب أو المصابين بحملهم إلى أقرب قسم للطوارئ في المستشفى. وأنه لم يكن معي أي راكب في وقت الحادث. وأنني كنت بمفردي في السيارة. وأنا بمفردي أتحمل مسؤولية كل ما حدث.

أقسم إنني كتبت هذا الإقرار دون تدخل من أي شخص ولا أي إرشادات من أي أحد.

التوقيع أو البصمة:

«بالرام حلوائي»

دُوِّن هذا الإقرار في حضور كلٍ من الشهود:

كاسوم حلوائي، قرية لاكسمنغارا، محافظة غايا

تشاماندا س فارما، محامي الدفاع، محكمة دلهي العليا

يبتسم في وجهي بمودة، ويقول لي «النمس»: «نحن قد أخبرنا أسرتك عن هذا الأمر. وجدَّتك، ما اسمها؟».

«..».

«لم أسمعك».

«...مم».

«نعم، هذا هو. كاسوم. لقد ذهبت إلى لاكسمنغارا بالسيارة. الطريق حقا سيئ، أليس كذلك؟ لقد شرحتُ لها كل شيء شخصيا. يا لها من امرأة».

حك جبينه وابتسم ابتسامة عريضة، حينها أيقنت أنه يقول الحقيقة.

«إنها تقول إنها فخورة بعملك هذا. وأيضا وافقت أن تكون الشاهدة على اعترافك. وهذه بصمتها على الصفحة، بالرام. أسفل المكان الذي سوف تضع فيه توقيعك».

«إن كان أميا، فيمكنه أن يضع بصمته،» قال الرجل ذو المعطف الأسود. «هكذا». ورفع إبهامه في الهواء.

«إنه ليس أُمِّيا. جدته قالت إنه الوحيد في الأسرة الذي يمكنه الكتابة والقراءة. قالت إنك كنت دائما ولدا ذكيا، بالرام».

نظرت إلى الورقة متظاهرا بأني أقرأها مرة أخرى، ويداي بدأتا ترتعشان.

إن الذي أصفه لك الآن هو ما يحدث كل يوم لكل سـائق هنا في دلهي، يا سـيدي. أنت لا تصدقني، أنـت تعتقد أنني أختلق هذه القصص، يا سيد جياباو؟

عندمـا تأتي إلى دلهي، حـاول أن تعيد روايـة هذه القصة لشـخص وجيه من الطبقة المتوسـطة في المجتمـع. قل له إنك سـمعت هذه الرواية الغريبة والاسـتثنائية والمستحيلة من أحد السـائقين الذين لُفِّقت لهم تهمة القتل في أثناء القيادة بدلا من أسيادهم. وراقب وجه ذلك الوجيه كيف يبيَض. راقبه كيف يبتلع ريقـه بصعوبة وينصرف عنك ويلتفت نحو النافذة، لاحظه كيف يغيِّر الموضوع فورا.

إن سجون دلهي مملوءة بالسائقين الذين يقضون حياتهم وراء القضبان بدلا من أسيادهم من الطبقة المتوسطة ذوي الوجاهة. نحن تركنا القرية إلى المدينة، ولكن الأسـياد مازالوا يمتلكوننا، جسدا، وروحا.

نعم هـذا صحيح، كلنا نعيش هنا في ظل أعظم ديموقراطية في العالم.

يا لها من مزحة داعرة.

هل لأسـرة السـائق أن تحتج؟ بل في الواقـع هم يتفاخرون به. ابنهم بالرام تبنى الموقف، وذهب إلى سـجن «تيهار» بدلا من سيده. كان مخلصا كالكلب. كان خادما من الطراز الأول.

القضاة، هل تعتقد أنهم لا يستَشـفون الحقيقة من أسـلوب الاعتراف القسري لهؤلاء السـائقين؟ لكنهم انضموا إلى اللعبة هـم الآخرون. يأخذون حصتهم من الرشـوة، ومـن ثم يغضون

الطـرف عن بعض القصـور في القضية. وهكذا تسـير الحياة بالنسبة إلى الجميع ما عدا السائق.

يكفي هذا القدر من السرد لهذه الليلة، يا سيد رئيس الوزراء. إنها ليست الثالثة صباحا بعد، ولكن عليَّ أن أتوقف هنا، سيدي. مجـرد التفكير فـي هذا الحدث يجعلني أغضـب وأثور، وربما أخـرج في هذه اللحظة إلى الشـارع وأجز رقبـة أي رجلٍ غني أجده.

الليلة الخامسة

السيد جياباو

سيدي

عندما تأتي إلى هنا، سيقولون لك إننا نحن الهنود قد اخترعنا كل شيء من الإنترنت إلى البيض المسلوق جيدا، إلى السفن الفضائية قبل أن يأتي البريطانيون ويسرقوا منا كل هذه الاختراعات.

هراء. أعظم شيء أنتجه هذا البلد خلال ألف سنة من تاريخه هو قن الدجاج.

اذهب إلى دلهي القديمة، خلف المسجد الجامع وانظر إلى الطريقة التي يحفظون بها الدواجن هناك في السوق. مئات من الدجاج الشاحب اللون والديكة ذات الألوان الساطعة، محشورة في أقفاص ضيقة مصنوعة من شباك أو من الأسلاك، يتكوَّم بعضها فوق بعض كما الدود في البطن، تنقر بعضها البعض، وتُفرغ فضلاتها في ذلك المكان الضيق، تتنازع من أجل مساحة من الفراغ، تنبعث من القفص كله رائحة نتنة، رائحة فزع المخلوقات ذوات الريش. فوق هذه الأقفاص جلس جزار شاب يبتسم فوق منضدة خشبية، يعرض لحم الدجاجة التي نُحِرَت للتو كاشفا عن أعضائها التي مازالت ملطخة بالدم القاني. كانت الديكة في الأقفاص تشم رائحة الدم من الأعلى حيث جلس الجزار. وترى الأعضاء الداخلية لرفاقها، متناثرة حولها. وتدرك أن دورها آتٍ لا محالة. مع ذلك لا تثور على هذا المصير ولا تحاول الخروج من القفص.

الشيء ذاته يحدث للبشر في هذا البلد.

راقب الطرقات وقت المســاء في دلهي؛ سترى عاجلا أو آجلا رجلا يركب دراجة ريكشــو، يقودها على الطريق، حاملا سريرا عملاقــا، أو طاولة مربوطة إلى العربة المتصلــة بدراجته. ويتم نقــل الأثاث لبيوت الناس يوميا بواســطة هــذا الرجل، موصل الطلبات. تكلفة الســرير خمســة آلاف من الروبيات، ربما ستة آلاف. أضف الكراســي، وطاولة القهوة، فيكون عشرة أو خمسة عشــر ألف روبية. يأتي رجل ليوصل لك هذا الســرير والطاولة والكراسي على عربته إلى المنزل، هذا الرجل الفقير يكسب فقط خمســمائة روبية في الشهر. يفرغ لك حمولة ذلك الأثاث، وأنت تعطيه النقود نقدا، رزمة ســمينة من النقد بحجم قطعة الآجر. فيضعهــا في جيبــه، أو في قميصه، أو في ملابســه الداخلية، ويركب دراجته ويعود لســيده يســلمه الرزمة من دون أن ينقص منها روبية واحدة! راتب ســنة أو ســنتين في يده، لكنه لا يأخذ منها روبية واحدة.

كل يوم، تجد على الطريق في دلهي، سائقا يقود سيارة ليس بها أحدٌ ســوى حقيبة سوداء في المقعد الخلفي. داخل هذه الحقيبة مليون أو مليونان من الروبيات؛ مبلغٌ أكثر بكثير مما سيراه طوال حياته. لو اســتولى على هذا المال ســيكون في إمكانه أن يذهب إلى أمريكا، أو أســتراليا، أو أي مكانٍ آخر، ويبدأ حياة جديدة. يمكنه أن يسكن في فندق خمس نجومٍ، كان يحلم به طوال حياته وهو يراه من الخارج فقطً. في إمكانه أن يأخذ أسرته إلى غووا، أو إنجلترا. مع ذلك يأخذ الحقيبة حيث يريدها ســيده. يضعها في المكان المطلوب، ولن يلمس منها روبية واحدة. لماذا؟

لأن الهنود هم أكثر شعوب العالم أمانة، كما سيخبرك الكتيب الذي سيعطيك إياه رئيس الوزراء.

كلا. لأن ٩٩,٩ في المائة منا قد وجدوا أنفسهم محبوسين في قن الدجاج مثل تلك الدواجن المسكينة في سوق الطيور.

إن الذيـن في قن الدجاج لا يحسـنون التعامل إلا مع المبالغ الضخمـة من المـال. لا تمتحن سـائقك بروبية واحـدة، فهذا السائق في إمكانه أن يسرق هذا الكم من المال. لكن اترك مليون دولار أمام خادم، فلن يلمس بنسـا واحدا منه. جربه أنت، اترك حقيبة سـوداء فيها مليون دولار في تاكسـي مومباي. سيتصل سـائق التاكسي بالشرطة، وبعدها في آخر النهار ستكون النقود قـد عادت إليك. أنا أضمـن لك هذا. «أما إذا كانت الشـرطة ستسـلمها لك أم لا، فهذه قضية أخرى، يا سيدي!» يثق الأسياد بخدمهم في هذا البلد فيأتمنونهم حتى على الألماس! هذه حقيقة لا ريب فيهـا. كل يوم والقطار يرحل من سـورات - أكبر مركز لتجـارة الألماس في العالم، تجارة قَطـعٍ وصَقْل الألماس - يحمل الأشخاص الذين يخدمون تجار الألماس حقائب مملوءة بالألماس المقطَّع ليسـلموها لشـخص ما في مومباي؟ لم لا يسرق الخادم هـذه الحقيبة المملوءة بالألماس؟ إنه ليس غاندي، بل هو إنسـان كبقية البشـر، مثلـي ومثلك. لكنه داخل قن الدجـاج. إن أمانة الخدم هي أساس الاقتصاد الهندي قاطبة.

قن الدجاج الهندي العظيم. هل لديكم شـيءٌ من هذا القبيل في الصين؟ أنا أشـك في ذلك، يا سيد جياباو. في هذه الحالة لن تكون لديكم حاجة إلى أن يطلق الحزب الشـيوعي النار على

الناس، أو أن تقتحم الشـــرطة السـرية البيوت ليلا، وتودع الناس السجون، مثلما ســـمعت أن لديكم هذا الأسلوب هناك. هنا في الهند لا توجد لدينا دكتاتورية. ولا شرطة سرية.

هذا لأنه لدينا قن الدجاج.

لم يحدث في تاريخ البشـــرية، يا ســـيد جياباو، أن يكون عدد قليل من الناس مدينا إلى هذا الحد الكبير لهذا العدد الضخم من الناس. زمرة من الرجال قد دربوا ٩٩,٩ في المائة الباقية - بشرٌ أقوياء، ذوو قدراتٍ عالية، وأذكياء في جميع المجالات - ليعيشوا في عبودية أبدية؛ عبودية تمكنت منهم إلى درجة أنك تســـتطيع أن تضع مفتاح خلاصهم بأيديهم، وســـيرمون بـــه إليك متبوعا بلعنة.

عليك أن تأتي إلى هنا لترى بنفسك حتى تصدقني. كل يوم يســـتيقظ ملايين من البشـــر منذ الفجر، يقفـــون في حافلات مزدحمة وقذرة، ينزلون حيث منازل أسيادهم الفخمة، فينظفون ويغســـلون الأطباق، يشـــذبون الـــزرع في الحديقـــة، يطعمون الأطفال، يدلكون أرجلهم، كل هذا مقابل أجرٍ زهيد. لن أحسد الأغنياء في أمريكا أو إنجلترا أبدا، يا سيد جياباو، ليس لديهم خـــدم هناك. ليس في مقدورهم حتى أن يبدأوا في فهم ماهية الحياة الطيبة.

الآن، رجلٌ مفكرٌ مثلك، يا ســـيد رئيس الوزراء عليه أن يسأل سؤالين.

أولا: لماذا يســـتمر وجود قن الدجاج في الهند؟ كيف يقع في هذا الفخ الملايين من الرجال والنساء بهذه الفعالية؟

ثانيا: هل يمكن لأحدهم أن يهرب من قن الدجاج؟ ما الذي سيحصل لو أن سائقا ما أخذ نقود سيده وهرب؟ كيف ستكون حياته؟

سأُجيب عن السؤالين، يا سيدي:

جواب السؤال الأول هو أن مجد وفخر أمتنا، ومستودع المحبة والإيثار فيها، والذي ستجده يحتل مساحة لا بأس بها من الكتيب الذي سوف يعطيك إياه رئيس وزرائنا هو الأسرة الهندية، وهذا هو السبب في وقوعهم في الفخ وارتباطهم بالقن.

جواب السؤال الثاني هو أنه فقط الشخص الذي يكون على استعداد لأن يرى أفراد أسرته وقد دمروا وطوردوا، ُضرَبوا، وأُحرَقوا أحياء على يد أسياده، يستطيع أن يفر من القن وينجو بنفسه. وهو الأمر الذي يتطلب إنسانا فوق العادة، إنسانا استثنائيا، خارجا عن مقاييس الطبيعة.

في الحقيقة، هذا يتطلب نمرا أبيض. أنت تستمع الآن إلى قصة مقاول اجتماعي، يا سيدي.

* * *

لنعد إلى قصتي.

هناك لافتة في حديقة الحيوان الوطنية في دلهي الجديدة، بجانب قفص النمر الأبيض، تقول: تخيل نفسك في هذا القفص.

عندما رأيت اللافتة، فكرت، أنا أستطيع أن أفعل هذا، أستطيع أن أفعل هذا من دون عناء البتة.

بقيت في غرفتي الحقيرة طوال اليوم، ساقاي قد انكمشتا على صدري، جالسا تحت الناموسية، خائفا جدا من مغادرة

الغرفة. لم يطلب مني أحدهم أن أقود له السيارة. ولم يأت أحدٌ ليراني.

كانوا قد قرروا مصيري مسبقا. كنت سأودع السجن بسبب جريمة لم أقترفها. كنتُ مرعوبا، ومع ذلك، لم تخطر ببالي فكرة الهروب. ولم تراودني ولو لمرةٍ واحدة فكرة أن أشي بالحقيقة للقاضي. لقد كنت واقعا فعلا في فخ قن الدجاج.

كيف سيكون السجن؟ كان هذا هو الشيء الوحيد الذي كنت أستطيع التفكير فيه. أي نوع من الاستراتيجيات كنت سأتبع لكي أهرب من أولئك الرجال، ذوي الأجسام الضخمة القذرة والمكسوة بالشعر، الذين سأجدهم في السجن؟

تذكرتُ قصة قرأتها في مجلة «الجريمة الأسبوعية» عن الرجل الذي ادَّعى أنه مصاب بالأيدز حتى لا يقترب منه أحد. أين كانت تلك النسخة من المجلة، لو كانت في حوزتي الآن، كنت حينها أستطيع أن أقتبس كلمات الرجل نفسها، وإيحاءاته نفسها! ولكن لو قلتُ لهم إني مصاب بمرض الأيدز، ألن يظنوا أنني رجلٌ منحرف، وحينها ألن يقتربوا مني أكثر؟

كنت واقعا في الفخ ولا مناص منه. من خلال ثقوب الناموسية، جلست أحدق إلى اليد المجهولة التي وضعت الجص الأبيض على جدران الغرفة.

«فأر الريف!».

لقد أتى السائق ذو الشفاه المصابة بالبهاق إلى عتبة غرفتي.

«إن سيدك يقرع الجرس كالمجنون».

وضعت رأسي على الوسادة.

دخل الغرفة ضاغطا وجهه بشفتيه الورديتين على الناموسية.

«يا فأر الريف، هل أنت مريض؟ هل تعاني التيفوئيد؟ كوليرا، الضنك؟».

أجبت نافيا بحركة من رأسي: «أنا بخير».

«إنه لأمر جيد أن أسمع هذا».

غادر الغرفة بابتسامة عريضة على شفتيه المصابتين.

صعدت إلى الشقة كرجلٍ يصعد إلى المشنقة، صاعدا الدرج، وداخلا مبنى شقة سيدي، ثم أخذت المصعد إلى الدور الثالث عشر.

فتح «النمس» الباب. هذه المرة، لم تكن هناك أي ابتسامة على وجهه، ولا أي شيء ينم عما خططه.

«لقد أخذتَ وقتا طويلا للوصول إلى هنا. إن أبي هنا. يريد أن يتكلم معك».

تسارعت دقات قلبي. «اللقلق» كان هنا! سوف ينجدني! لم يكن عديم الفائدة، مثل ابنِه. كان من الأسياد ذوي الطراز التقليدي. كان يدرك أن عليه حماية خدمه.

كان جالسا على الأريكة، وساقاه الشاحبتان ممدودتان. سرعان ما رسم ابتسامة عريضة على وجهه حين رآني، وظننت أنه يبتسم لأنه أنجدني! لكن السيد العجوز لم يكن يفكر في مصيري بتاتا. أوه، لا، إنه يفكر في أشياء أكثر أهمية من حياتي. وها هو يشير إلى هذين الشيئين المهمين الآن.

«آه. يــا بالرام، قدمايَ تحتاجــان إلى تدليك جيد. لقد كانت رحلة القطار طويلة».

كانــت يــداي ترتجفان وأنا أفتــح صنبور الماء الســاخن في الحمــام. ارتطم الماء بقــاع الوعاء وتناثر على ســاقيَّ، وعندما نظرت إلى الأســفل رأيت أنهما تقعقعــان. كان خيط من البول يجري عليهما.

بعد دقيقة، ظهرَتْ ابتســامة عريضــة على وجهي، أتيت إلى حيث كان «اللقلق» جالسا، ووضعت وعاء الماء الساخن بقربه.

«ضع قدميك هنا يا سيدي».

«أوه»، تأوه «اللقلق»، وأغلق عينيه؛ انفرجت شــفتاه وبدأ يئن أنات متقطعة، يا ســيد جياباو، صوت ذلك الأنين جعلني أضغط على قدميه بقوة أكثر فأكثر؛ وبدأ جســمي يهتز بينما كنت أقوم بهذا العمل ويصطدم رأسي بجانب ركبتيه.

كان «النمس» والســيد آشوك يجلســان أمام شاشة التلفاز، يلعبان لعبة إلكترونية.

فتح باب غرفة النوم وخرجت بنكي مدام. لم تكن قد وضعت أيا من مســاحيق التجميل على وجهها الذي تعلوه الفوضى، بقع ســوداء تحت عينيها وتجاعيد على جبينهــا، وبمجرد أن رأتني استشاطت غيظا.

«هل أخبرتم السائق؟».

لم يقل «اللقلق» شــيئا. اســتمر «النمس» والسيد آشوك في اللعــب. «ألــم يقل له أحدٌ شــيئا؟ يا لها من مزحــة داعرة! إنه الشخص الذي سوف يوَدِّع السجن!».

قال السيد آشوك: «أعتقد أن علينا أن نخبره». نظر إلى أخيه الذي كانت عيناه قد تسمرتا على شاشة التلفاز.

قال «النمس»: «حسنا».

استدار السيد آشوك نحوي.

«نحن اتصلنا بالشرطة، وقالوا لنا إنه لم يتقدم أي شخص بأي بلاغ بخصوص الحادث. لذا لن تحتاج إلى أي مساعدة، يا بالرام».

لقد شعرت براحة هائلة إلى درجة أن يدي تحركت فجأة، وسال الماء الدافئ من الوعاء على الأرض، واحترت كيف أرفعه. فتح «اللقلق» عينيه، ضربني بيده على رأسي، وبعدها أغلق عينيه ثانية.

راقبَتْ بنكي مدام الموقف؛ تغيرت تقاطيع وجهها. وأسرعَتْ داخل الغرفة وأغلقت الباب بعنف.

(من كان يستطيع أن يفكر، يا سيد جياباو، إن هذه المرأة ذات التنورة القصيرة يمكن أن تكون الوحيدة صاحبة ضمير في هذه الأسرة؟).

شاهدها «اللقلق» تدخل غرفتها فقال: «لقد جنت هذه المرأة. تريد أن تجد عائلة الطفلة لإعطائهم تعويضا، هذا جنون. وكأنما نحن كلنا قَتلَة هنا». نظر إلى السيد آشوك بصرامة: «عليك أن تتحكم في زوجتك هذه بطريقة أفضل، يا بني. بالطريقة نفسها التي نتبعها في القرى».

ثم ضربني بخفة على رأسي قائلا: «لقد أصبح الماء باردا».

لثلاثة أيام متتالية قمت بتدليك قدميه. وفي صباح أحد الأيام، شعر «اللقلق» بألمٍ في معدته، فجعلني «النمس»

أصطحبه إلى مستشــفى ماكس، وهو من أشــهر مستشفيات دلهــي الخاصــة. وقفت خارج المستشــفى وراقبــت «النمس» ووالده العجوز يدخلان المبنى الزجاجي الجميل. يدخل الأطباء ويخرجــون من المبنى مرتدين المعاطــف البيضاء، وفي جيوبهم ســماعات الفحص الطبي. عندما اختلســتُ النظر إلى داخل المستشــفى من الخارج، كانت صالة الاستقبال تبدو نظيفة مثل الفنادق ذات الخمس نجوم.

في اليوم الذي تلا رحلة المستشفى، أخذت «اللقلق» و«النمس» إلى محطة القطار، اشــتريت لهمــا وجبة خفيفة ليأكلاها وهما في طريقهما إلى القرية. انتظرت مغادرة القطار، ومن ثم عدت بالســيارة، مارا علــى معبد الإله هانومان لأصلي صلاة شــكر، وعدت إلى غرفتي وسقطتُ كالجثة الهامدة داخل الناموسية.

استيقظت، وإذا بشخصٍ يقف في غرفتي يفتح النور ويطفئه على التوالي.

كانت بنكي مدام.

«قم واستعد، سوف تأخذني إلى مكان ما».

«حاضــر، مدام». قلــت هذا وأنا أدعك عيني. «كم الســاعة الآن؟».

وضَعتْ إصبعا على شفتيها.

لبســتُ قميصي، وذهبت لأُخرج السيارة من الموقف، وقدتها إلى مدخل المبنى. كانت تحمل حقيبة في يدها.

سألتها: «إلى أين؟ ألن يرافقك السيد آشوك؟».

«قُد فقط».

أخذتها إلى المطار. لم أطرح أي سؤال.

عندما ترجلت من السيارة في المطار دفعت بظرف بني اللون إليَّ من نافذة السيارة، وأغلقت الباب بعنف ثم ذهبت.

وبهذه الطريقة، يا معالي رئيس الوزراء، انتهى زواج سيدي.

هناك بعض الأساليب التي يقوم بها السائقون الآخرون لإطالة أمد زواج أسيادهم. أخبرني أحدهم بأنه عندما يشتد العراك بين سيده وزوجته يسرع في القيادة حتى يقلّهما إلى المنزل في أسرع وقت، وعندما يكونان في أجواءٍ شاعرية يُبَطئ سرعته في القيادة. وعندما يتعاركان يسألهما عن كيفية الوصول إلى المكان الذي يودون الذهاب إليه، وإذا كانا يتبادلان الحب يقوم بتشغيل الموسيقى. أشعر الآن بأن جزءا كبيرا من المسؤولية وقع على عاتقي لأن زواجهما قد انتهى في أثناء عملي لديهم كسائق.

في صباح اليوم التالي، دعاني السيد آشوك إلى الشقة. عندما طرقت الباب، مسكني فجأة من ياقة قميصي وسحبني إلى الداخل.

«لماذا لم تخبرني؟» قال لي هذا وهو يشد ياقة قميصي بإحكام إلى درجة أنه كاد يخنقني. «لماذا لم توقظني فورا؟».

«سيدي... لقد قالت... قالت... هي قالت...».

مسَكني وقذف بي إلى شرفة الشقة، الإقطاعي داخله لم يمت بعد.

«لماذا أخذتها إلى هناك، يا أخ الـ ...؟».

أدرت رأسي، رأيت الأبراج اللامعة ومراكز التسوق التجارية لغورغاون ورائي.

«هل تريد أن تدمر سمعة عائلتي؟».

قذفني على الشــرفة مرة أخرى وبعنفٍ أكثر، رأسـي وصدري أصبحا على طرف الشــرفة الآن، لو دفعني أكثر بقليل لكنت في خطر الســقوط المحتوم. استجمعت ســاقي ورفسته في صدره، ترنح إلى الخلف ضاربا رأسه في الباب الانزلاقي الزجاجي بين الشــقة والشرفة؛ انزلقت أنا مستندا إلى حائط الشرفة، وجلس هو مستندا إلى الباب الزجاجي. كان كلانا يلهث خائر القوى.

«لا يمكنك أن تلومني، يا سيدي!» صحت بأعلى صوتي. «لم أســمع قط عن امرأةٍ ترحل عن زوجها إلــى الأبد! أقصد نعم رأيت هذا فــي التلفاز، ولكن ليس في حياتنــا الحقيقية. لقد قمت بعمل ما طلبته مني». قبع غرابٌ على الشــرفة وبدأ ينعق. نظر كلانا إليه.

انتهى جنون سيدي. غطى وجهه بيديه وبدأ في البكاء. جريت مسرعا إلى غرفتي. دخلت في الناموسية وجلست على السرير. قمت بالعد إلى الرقم عشــرة لأتأكد أنه لم يلحق بي. ثم مددت يدي تحت السرير وأخذت الظرف البني وفتحته مرة أخرى.

كان مملوءا بأوراقٍ نقدية من فئة المائة روبية.

أربع وســبعون من تلك الأوراق. دفعت الظرف تحت السرير، كان أحــدٌ مــا يقترب نحو الغرفــة. أربعة من السَّــائقين دخلوا الغرفة.

«أخبرنا بكل شيءٍ يا فأر «الريف».

أخذوا مواقعهم حولي.

«أخبركم عن ماذا؟».

«لقد أفشى البواب السر. لا توجد أسرار هنا. لقد اصطحبت السيدة ليلا إلى مكانٍ ما وعدت أنت وحدك. هل هجرته؟».

«أنا لا أعرف عماً تتحدثون».

«نعلم أنهما كانا يتعاركان، يا فأر الريف. وأنت أخذتها بالسيارة إلى مكانٍ ما في الليل. المطار؟ هل رحلت، أليس كذلك؟ إنه الطلاق، كل الرجال الأغنياء يطلقون زوجاتهم هذه الأيام. هؤلاء الأغنياء...». هزَّ رأسه. تكور بازدراء مظهرا أنيابه المحمرة التي أتلفها البان.

«لا احترام للزواج، ولا للأسرة، لا شيء على الإطلاق».

«لقد كانت تريد الخروج لاستنشاق هواء نقي. وعدتُ بها إلى الشقة بعد ذلك، لابد أن الحارس قد أصابه العمى».

«مخلصٌ حتى النهاية. إنهم لا يصنعون خدما مثلك هذه الأيام».

انتظرت قرع الجرس في الصباح بأكمله، ولكنه لم يقرع. في المساء صعدت إلى الطابق الثالث عشر، قرعت الجرس وانتظرت. فتح الباب وكانت عيناه حمراوين.

«ما الذي تريده؟».

«لا شيء، سيدي. أتيت... لأحضِّر الغداء».

«لا داعي لذلك».

كنت أظن أنه سيعتذر عما بدر منه حين كان على وشك قتلي، لكن، لم يقل شيئا عن ذلك.

«سيدي، لابد أن تأكل. ليس من مصلحتك أن تتضور جوعا... أرجوك سيدي».

تنهد وأدخلني الشقة.

والآن وقــد رحلت، أدركت أنه من واجبــي أن أكون كالزوجة لــه. عليَّ أن أحرص على أن يتغذى جيدا، وينام جيدا، وألا يفقد وزنــا. حضَّرت الغداء، وجهزت مائدته ثــم نظَّفت مكانه. نزلت إلى غرفتي وانتظرت الجرس. في الثامنة مســاء أخذت المصعد ووضعت أذني على الباب، واستمعت.

لا شيء. لا صوت.

قرعــت الجرس: لا جواب. كنت أعلم أنــه لا يمكن أن يكون في الخارج، في النهاية كنت أنا سائقه. أين يمكنه أن يذهب من دوني؟

كان الباب مفتوحا. دخلت.

كان مســتلقيا على الأريكة أســفل الصورة المؤطــرة للكلبتين البوميرانيتــين، وأمامــه زجاجة على طاولــة الماهوجني، وعيناه مغلقتان. شممت الزجاجة. مشروب. كان قد أتى تقريبا على كل محتواها. وضعتها على شفتي وأفرغت ما تبقى بها من رواسب.

ناديت عليه: «سيدي»، لكنه لم يستيقظ. دفعته. صفعته على وجهه. لعق شفتيه، وامتص أســنانه. كان يستيقظ شيئا فشيئا، صفعته مــرة ثانية. (تقليد متعلق بالخــدم موغل في القدم ،أن تصفع سيدك عندما يكون نائما، مثل الوثب فوق الوسائد عندما لا يكون موجودا أو التبول في نباتاته أو ضرب وركل كلابه المدللة. إنها متعة الخدم الساذجين).

سحبته إلى غرفة النوم، وغطيته ببطانية، وأطفأت الأنوار، ثم نزلت إلى غرفتي. لن يكون هناك طلب على الســيارة الليلة، لذا توجهت إلى دكان «أكشــن». ومازال أنفي ممتلئا برائحة مشروب السيد آشوك.

الأمر ذاته تكرر في الليلة التالية.

في الليلة الثالثة كان مخمورا ولكنه كان متيقظا.

قال: «خذني إلى أي مكان تريده. إلى مركز التسوق، إلى الفنادق، أو أي مكان آخر».

قدتُ به السيارة حول أضواء الأسواق التجارية والفنادق في غورغاون، وهو جالس في المقعد الخلفي منكمشا، لا يتكلم عبر هاتفه كما عهدته.

عندما تجتاح الفوضى حياة السيد يحدث الشيء نفسه بالنسبة إلى حياة الخادم.

لقد فكرت أنه ربما يكون الآن قد سئم دلهي. هل سيعود إلى دهانباد؟ ماذا سيكون مصيري حينها؟ بدأت أمعائي تتحرك في بطني. شعرت بأنني سأتغوط في مكاني، على المقعد، وعلى محرك التروس.

«أوقف السيارة»، قال.

فتح باب السيارة، ووضع يده على معدته، انحنى إلى الأسفل، وتقيأ على الأرض. مسحت فمه بيدي وساعدته ليجلس على جانب الطريق. وكانت السيارات تمر محدثة أصواتا كالزئير. رَبَتُّ على ظهره برفق.

«أنت تكثر من الشرب، سيدي».

«لماذا يحتسي الناس الخمر، بالرام؟».

«لا أعلم سيدي».

«طبعا، إن طائفتك لا.. دعني أقل لك، بالرام. الناس يحتسون الخمر لأنهم قد سئموا الحياة. كنت أحسب أن الطائفة

والديانة ليس لهما أي اعتبار في عالمنا اليوم. قال لي أبي: «لا، لا تتزوجها، إنها مختلفة من ناحية... أنا..».

أدار السيد آشوك رأسه إلى الجانب الآخر، ودعكتُ ظهره، ظنا مني أنه سيتقيأ مرة ثانية، ولكن كانت النوبة قد انتهت.

«أحيانا أتساءل، يا بالرام. أتساءل ما الهدف من الحياة، حقا أتساءل..».

الهدف من الحياة؟بدأ قلبي يخفق، الهدف من حياتك هو أنه إذا مت، من سيدفع لي ثلاثة آلاف وخمسمائة روبية شهريا؟

«عليك أن تؤمن بالله، سيدي. وأن تواصل الحياة. جدتي تقول إن كنت تؤمن بالله، فإنك سترى أمورا حسنة تحدث لك».

«هذا صحيح، هذا صحيح. علينا أن نؤمن»، وبدأ في البكاء.

«كان هناك رجلٌ رفض الإيمان بالله، أتعلم ما الذي حصل له؟».

«ماذا؟».

«جاموسته نفقت فورا».

«فهمت». ضحك. «فهمت».

«سيدي، لقد حدث هذا فعلا. وفي اليوم التالي قال: «ياربي، اغفر لي، أنا أؤمن بك،» وخمِّن ما الذي حدث؟».

«استعادت جاموسته الحياة؟».

«بالضبط!».

ضحك مرة أخرى. قصصتُ عليه قصة أخرى، وتلك جعلته يضحك أكثر.

هل وجدت علاقة بين السيد والخادم مثل علاقتي بسيدي آشوك؟ كان مسلوب الإرادة، تائها، لقد انفطر قلبي لحاله، حتى

أن الغضب الذي انتابني تجاهه جراء محاولته إلصاق تهمة القتل بي في عملية الدهس والهروب التي قامت بها بنكي قد تلاشـت ذلك المسـاء. لقد كانت غلطتها هي. أما السيد آشوك فليس له يد فيها بتاتا. لقد غفرت له ما فعله في حقي تماما.

تحدثت له عن الحكم التي كنت أسـمعها في القرية، نصفها من أحاديث جدتي والنصف الآخر من تأليفي الفوري، كان يومئ برأسـه. كان مشهدا يذكِّرك بذاك المقطع من بهاجافاد جيتا(٣١)، عندما أوقف مولانا كريشـنا، أحد سـائقي التاريخ المشهورين، العربة التي كان يقودها ويقدم نصيحة ممتازة عن الحياة والموت. كنت مثل كريشنا، أتفلسف، أمازح، حتى أنني كنت أغني الأغاني، كل هذا لكي أجعل السيد آشوك يشعر بتحسن.

يا أيهـا الطفل، كنت أفكـر، وأنا أدعك ظهره عندما شـعر بالغثيان وتقيأ ثانية، يا أيها الطفل الكبير المثير للشفقة.

كنت أمدُ يدي وأمسـح القـيء من فمه، وأُهدهـده بكلمات تريحـه. كان قلبي يعتصر عند رؤيتـه في تلك الحالة، ولكن أين ينتهي اهتمامي الحقيقي به وأين يبدأ اهتمامي بذاتي؟ لا أعلم، لا يوجد أي خادم يستطيع أن يدرك دوافعه القلبية.

هل نبغض أسـيادنا خلف واجهة من المحبـة، أم أننا نحبهم خلف واجهة من الكراهية؟

لقد أصبحنا غامضين بالنسبة إلى أنفسنا بفضل قن الدجاج الذي حبسنا فيه.

---

(٣١) مجموعة أشـعار من ملحمة هندوسـية ترجع إلى ٢٠٠ سـنة قبل الميلاد. تتكون من ٧٠٠ بيت شـعر، تسمى «أغاني الرب» وهي محاورة بين المولى كريشنا والبطل الهندي أرجونا، تتناول الطبيعة البشرية والهدف من الحياة.

في اليوم التالي ذهبتُ إلى معبد على طرف الطريق في غورغاون. وضعت روبية أمام زوجين من الآلهة المحلية وصليت لأجل أن تعود بنكي مدام والسيد آشوك إلى الحياة معا، وأن يمنحا حياة مديدة وسعيدة في دلهي.

* * *

مر أسبوعٌ على هذا المنوال، حتى حضر «النمس» من دهانباد، وذهبت والسيد آشوك إلى محطة القطار.

في اللحظة التي وصل فيها، كل الأشياء تغيَّرت بالنسبة إليّ. انتهت الحميمية بيني وبين السيد آشوك.

مرة أخرى، عُدتُ سائقا لا غير. مرة أخرى عُدتُ إلى استراق السمع لا غير.

«لقد تكلمتُ معها ليلة أمس. لن تعود إلى الهند. والداها سعيدان بقرارها. إن هناك سبيلا واحدا فقط لإنهاء هذا الأمر».

«لا تقلق، يا آشوك. لا بأس. ولا تتصل بها مرة أخرى. سوف أتولى الأمر من دهانباد. لو تكلمت بخصوص طلب المال منك، سأثير بكل هدوء موضوع حادث الدهس والهروب، أرأيت؟».

«ليس المال الذي أنا قلقٌ من أجله، موكيش».

«أعلم هذا، أنا أعلم هذا».

وضع «النمس» يده على كتف السيد آشوك مثلما وضع يده على كتفي مرات عديدة.

كنا نمر بمحاذاة حي للفقراء: سلسلة من الخيام المؤقتة التي كان يعيش فيها العمال في أحد مشاريع البناء. كان «النمس»

يقول شيئا ولكن السيد آشوك لم يكن يعيره أي انتباه، كان آشوك ينظر خارج النافذة.

أذعنت عيناي لعينيه. رأيت مثله ظلال أولئك الذين يســكنون هــذه الأحياء الفقيرة متلاصقين بعضهم ببعض في تلك الخيام، يمكنك أن تتعرف على العائلة الواحدة: الزوج، والزوجة، وطفل، جميعهم يحتشــدون حول موقد داخــل الخيمة الواحدة، مضاءة بمصبــاح ذهبي اللون. كانت المودة تبــدو على أتمها بينهم، مودة تامة إلى أبعد الحدود. أدركت حينها ما يعانيه السيد آشوك.

رفع يده - كنت على أهبة الاســتعداد لتلقي لمسة يده - لكنه طواها على كتف «النمس».

«عندما عِشــتُ في أمريكا، كنت أعتقد أن العائلة حِملٌ ثقيل، أنا لا أنكر ذلك. عندما حاولتما أنت وأبي أن تثنياني عن الزواج من بنكي لأنها ليســت هندوسية غضبت كثيرا، أنا لا أنكر ذلك. ولكن من دون العائلة يكون الإنســان لا شيء. لا شــيء مطلقا. لم يكن لدي أحد سوى هذا السائق طوال خمس ليالٍ. الآن أخيرا أصبح لدي شخصٌ حقيقي يقف بجانبي، هو أنت».

صعدت معهما إلى الشــقة؛ أراد «النمــس» أن أعد له وجبة، طهوت له شــوربة العدس وخبز التشــاباتي وصحنا من البامية. قدمت لهما الطعام، ثم نظفت الأواني والأطباق.

وفي أثناء تناولهما العشــاء، قــال «النمس»: «إن كنت مكتئبا، يا آشــوك، فلم لا تجرب اليوجا والتأمل؟ هناك معلم يوجا يظهر علــى التلفزيون، وهو بــارعٌ جدا، وهذا ما يعملــه كل صباح في

برنامجـــه». يغلق عينيه، ويستنشـــق الهواء، ثـــم يخرجه ببطء، مرددا: «أُوووووووووم».

حينما خرجت من المطبخ وأنا أمسح يدي على جوانب بنطالي، قال «النمس»: «انتظر».

أخـــرج قطعة من الورق من جيبه وجعلها تتدلى مع ابتســـامة كبيرة، كأنها جائزة لي.

«لديك رســـالة من جدتك. ما اسمها؟»، وبدأ يفتحها بإصبع أسود ممتلئ.

«كاسوم، سيدي».

«امرأةٌ اســـتثنائية»، قال وهو يحك ســـاعديه من الأعلى إلى الأسفل.

قلت: «سيدي لا تزعج نفسك. أنا أستطيع القراءة».

فتح الرسالة، وبدأ يقرأها بصوت عال.

تكلم السيد آشوك بالإنجليزية، وأعتقد أنه قال له: «أليس من حقه أن يقرأ رسائله بنفسه؟».

وأجـــاب أخوه بالإنجليزية، ومرة أخرى كان حدســـي أكثر من فهمي، قال ما معناه: «إنه لا يمانع بشـــيء من هذا القبيل. ليس لديه أي إحساس بالخصوصية. في القرى لا توجد غرف منفصلة، ولذلك فهم ينامون الليـــل معا، حتى أنهم يجامعون زوجاتهم من دون خصوصية. صدقني، إنه لا يمانع».

استدار حتى أصبح الضوء وراءه وبدأ يقرأ بصوت عالٍ:

«**حفيدي العزيز. كتبت هذه الرســـالة بواسطة السيد كرِيشنا، معلم المدرسة. إنه يتذكرك بكل شوق ويدعوك بكنيتك القديمة،**

«النمر الأبيض». أصبحت الحياة هنا صعبة. الأمطار صارت شحيحة. هل من الممكن أن تطلب من أربابك أن يزودوا عائلتك ببعض المال؟ وتذكَّر أن ترسل المال إلى القرية».

أخفض «النمس» الرسالة.

«هذا كل ما يريده منك خدمك. المال، المال، المال. ندعوهم خدما، ولكنهم يمتصون منك دم حياتك، أليس كذلك؟».

تابع قراءة الرسالة.

بالنسبة إلى أخيك كيشان، قلت له «لقد حان الوقت»، وامتثل لذلك وتزوج. أما أنت فأنا لا أفرض الأوامر عليك. أنت لست كالجميع. أنت عميق مثل أمك. حتى حين كنت صبيا صغيرا كنت تقف بجانب البركة وتحدق في القلعة السوداء فاتحا فمك، في الصباح والمساء والليل. لذلك أنا لا آمرك بالزواج. لكنني أحثك على أن تجرب بهجة الحياة الزوجية. إنه في مصلحة الجماعة. فعند كل زيجة، تهطل أمطار على القرية وتسمن الجاموسة المائية. وتعطي لبنا أكثر. هذه حقائق معروفة. نحن جميعا فخورون بك لأنك في المدينة. بيد أنه لا بد لك أن تتخلى عن التفكير في نفسك فقط، فكر فينا أيضا. وقبل أي شيء، عليك أن تزورنا وتأكل الدجاج بالكاري الذي سأطبخه لك.

جدتك المحبة. كاسوم».

كان «النمس» على وشك أن يعطيني الرسالة، لكن السيد آشوك أخذ الرسالة وقرأها مرة أخرى.

«أحيانا يعبر هؤلاء القرويون عن أنفسهم بشكل مؤثر»، قال هذا قبل أن يلقيها على الطاولة لكي ألتقطها.

في الصباح، أخــذتُ «النمس» إلى محطة القطار، وأحضرت له وجبته المفضلة، «الدوســـا»، مرة أخـــرى، التقطت البطاطس منها ورميتها على ســـكة الحديد قبــل أن أناوله إياها. انتظرت على رصيف المحطة. التهم الدوسا وهو في مقعده، وفي الأسفل على سكة الحديد، كان هناك فأر يقضم البطاطس التي رميتها.

عدت بالسيارة إلى المبنى ثم أخذت المصعد إلى الطابق الثالث عشر. كان الباب مفتوحا.

«سيدي!» صِحتُ، عندما رأيت ما كان يفعله في غرفة المعيشة. «سيدي، هذا جنون!».

لقد وضع قدميه في دلو بلاستيكي وكان يدلكهما بنفسه.

«كان عليـــك أن تخبرني، لأدلكهما لك!» صرخت، ونزلت على قدميه لأدلكهما.

فزعق: «لا!».

قلت: «أجل، ســـيدي، عليك أن تدعني أقوم بواجبي، سأكون مقصـــرا في خدمتك إن لم تدعني أقـــوم بواجبي وتركت المهمة لنفســـك!»، أدخلت يدي عنوة إلى الدلو في الماء القذر وعصرت رجله.

«لا!».

رفس السيد آشوك الدلو، وسكب الماء على الأرض.

«إلـــى هذا الحد من الممكـــن أن يصل غباؤكم؟» وأشـــار إلى الباب. «اغرب من هنا! هل تستطيع أن تتركني خمس دقائق في اليوم فقط؟ هل في إمكانك أن تفعل هذا؟».

* * *

في ذلك المســاء كان علــيَّ أن آخذه إلى مركز التســوق مرة أخرى. مكثت داخل الســيارة بعد أن خــرج، ولم أختلط بأيٍ من السائقين.

حتى في الليل، تســتمر عملية البناء في غورغاون، المصابيح الكبيرة تضــيء من تحت الأبراج، والغبــار يتصاعد من الحفر، وقد نُصِبتْ السقالات، أما الرجال والحيوانات، الذين حرموا من النوم وأصابهم الأرق والســهاد، فكانوا يدورون المرة تلو الأخرى حاملين قطع الإسمنت أوالطابوق.

كان هنــاك رجــلٌ في هــذه المواقع يقود حمارا، عليه ســرج أحمر قان. وكان على هذا السرج حاويتان مملوءتان تماما بقطع الإســمنت. وكان وراء هذا الحمار، حمــاران صغيران من اللون نفســه يحملان على سرجيهما حاويتين معدنيتين تحويان الركام نفســه. الحماران الصغيران كانا بطيئين، والحمار الذي كان في المقدمة كان يتوقف من وقت إلى آخر ويستدير نحوهما وبطريقة تجعلك تعتقد أنه أمهما.

فجأة أدركت ما الذي كان يقض مضجعي.

لــم أكن أريــد أن أذعن لطلب جدتي كاســوم. كانت تبتزني، عرفت لماذا أرسلت الرسالة مع «النمس». إن رفضت فإنها سوف تفشي سري عند السيد آشوك، بأنني لم أعد أبعث المال لأسرتي في القرية.

الآن، قــد مرت فترة طويلة منذ آخر مرة التقيت فيها بامرأة، يا ســيدي، وقــد تراكمت الرغبة لدي. قد تكون الفتاة شــابة - في الســابعة عشــرة أو الثامنة عشــرة - وأنت تعلم كيف تكون

المرأة مرغوبة في هذه الســن. إنها مثل البطيخة. كل الأمراض، الجســدية والعقلية، تبرأ عندما تتزوج فتــاة بكرا. هذه حقائق معروفة. وهناك المهر الذي ســتجنيه كاســوم من أســرة الفتاة. كل ذلــك الذهب ذي الأربع والعشــرين قيراطا، كل تلك الأوراق النقدية الخارجــة من فورها من البنك. والتي ســأبقي بعضها لنفسي. هذه كلها كانت دلائل قاطعة لترجيح كفة موضوع الزواج.

ولكن في الجانب الآخر.

لاحــظ، كنتُ أنا مثــل ذلك الحمار. كل الــذي عليَّ أن أفعله لــو كان لدي أطفال هــو أن أدربهم كيف يكونــون حميرا مثلي، ويحملون العبء عن الرجال الأغنياء.

أمســكت المقود وضغطت عليه بأصابعي كأنني أخنق أحدا. تذكرت الطريقة التي هرعت بها إلى الســيد آشــوك وضغطت على قدميــه في اللحظة التي رأيتهما فيهــا على الرغم من أنه لم يطلب مني ذلك! لماذا شــعرتُ بأنه عليَّ أن أقترب من قدميه وألمســهما وأدلكهما لكي أجعله يشعر بتحسن، لماذا؟ لأن الرغبة في أن أكون الخادم قد تأصلت فيَّ وثُبِّتَ في جمجمتي بمســمار تلو الآخر، و سُــكِبتَ في دمي، مثلما تصب مياه المجاري وسموم المصانع في النهر الأم غانجا.

تراءت أمامي صورة تلك القدم الشــاحبة والمتيبســة ودفعها عنوة إلى النار.

قلت: «كلا».

رفعت رجلَيَّ عاليا على المقعد واتخذتُ وضعية اللوتس، ورددت «أووووم»، لا أعلم كم من الوقت جلست ذاك المساء في السيارة

بعينين مغلقتين وساقين متصالبتين مثل بـوذا، لكن الضحكات وصوت الخريشة جعلاني أفتح عيني. جميع السائقين تجمعوا حولي، أحدهم كان يحك زجاج نافذة السيارة بأظفاره. بعضهم رآني وأنا في وضعية زهرة اللوتس في السيارة. كانوا يفتحون أفواههم مندهشين وكأنني شيء ما في حديقة الحيوانات.

خرجت من وضعية اللوتس بسرعة مذعورا، راسما ابتسامة عريضة على وجهي، خرجت من السيارة لتقابلني الضربات والمعاكسات وصرخات، تلقيتها جميعها بخنوع، وأنا أتمتم: «أنا فقط أُجرب اليوغا، هذا الذي يعرضونه على التلفاز كل يوم، أتشاهدونه؟».

إن قن الدجاج بدأ يقوم بعمله كما يجب، هم يمنعون الخدم الآخرين من أن يصبحوا مجددين، خلاقين، أو مقاولين.

أجل، هذه هي الحقيقة المحزنة، يا سيد رئيس الوزراء.

إن الحظيرة لها حراسها الذين يحرسونها من الداخل.

اسمح لي، يا سيد رئيس الوزراء - إن الهاتف يرن - سأعود بعد دقيقة.

للأسف: عليَّ أن أتوقف عن سرد هذه القصة بعض الوقت. إن الساعة الآن الواحدة واثنتان وثلاثون دقيقة صباحا، لكن علينا أن نتوقف هنا. لقد استجدَّ أمر ما، يا سيدي، إنها حالةٌ طارئة. سأعود، ثق بي.

الصباح السادس

عفوا، معالي رئيس الوزراء، لهذا الانقطاع الطويل. الساعة الآن السادسة وعشرون دقيقة، إنني غبت لمدة خمس ساعات. لسوء الحظ، لقد حصل ظرف كان على وشك أن يهدد سمعة شركة تعاقدات خارجية أتعامل معها.

حدثٌ مهم بالفعل، يا سيدي. فقدَ رجلٌ حياته من جراء ذلك الظرف. لا، لا تسئ الفهم. ليست لي علاقة شخصية بموته! سأوضح الأمر لاحقا.

الآن، اسمح لي بدقيقة من فضلك لأشغِّل المروحة - مازلت أتعرَّق، يا سيدي - دعني أجلس على الأرض، وأشاهد المروحة ذات الشفرات الصغيرة التي تقطع ضوء الثريا وتنشره عبر الغرفة.

إن بقية قصة اليوم الحزينة ستتناول بشكل خاص كيفية انحرافي من قروي ساذج، وديع، وبريء، إلى شخصٍ شكلته مدنية يملؤه الفساد، والفسوق، والخبث.

كل هذه التغييرات حدثت لي لأنها حدثت بداية للسيد آشوك. لقد عاد من أمريكا إنسانا بريئا، لكن الحياة في دلهي أفسدته، حين يصبح سيد الهوندا سيتي فاسدا، فكيف للسائق أن يبقى بريئا؟

الآن، كنت أعتقد أني أصبحت أعرف السيد آشوك أكثر، يا سيدي. لكن هذا احتمال وارد بالنسبة إلى أي خادمٍ مثلي.

في اللحظة التي رحل فيها أخوه، تغيَّر. صار يلبس قميصا أسود اللون ويترك أزراره العلوية مفتوحة، وما لبث أن غيَّر عطره أيضا.

«إلى مركز التسوق سيدي؟».

«أجل».

«أي مركز، سـيدي؟ المركز نفسه الذي كانت تقصده بنكي مدام؟».

لكن لم ينجذب السيد آشوك للطعم. استمر يضغط على أزرار هاتفه النقال ثم تمتم: «مركز صحارى التجاري، بالرام».

«هذا هو المركز الذي كانت تقصده بنكي مدام، سيدي».

«لا تأتي على ذكر بنكي مدام في كل جملة تتفوَّه بها».

جلست خارج مركز التسوق متسائلا ما الذي يفعله هناك. كان هناك وميض من الضوء الأحمر في الدور الأعلى، وخمَّنتُ أنه مرقص ليلي. صفوف من الرجال والنساء يقفون خارج المركز، في انتظار صعودهم إلى ذلك المكان ذي الضوء الأحمر. ارتعدت خوفا لرؤية الملابس التي كانت ترتديها فتيات المدينة هؤلاء.

لم يبق السيد آشوك هناك طويلا، وخرج بمفرده. تنفست الصعداء.

«نعود إلى بكنغهام، سيدي؟».

«ليس بعد. خذني إلى فندق الشيراتون».

بينما كنت أقود عبر المدينة شعرت بأن شيئا ما قد اختلف بالنسبة إلى الطريقة التي كانت تبدو فيها دلهي في تلك الليلة.

هل لم يسبق لي أن رأيت هذا الكم من النساء اللواتي قد صبغن أنفسهن ووقفن على جانبي الطريق؟ هل لم يسبق لي

أن رأيت هذا الكم من الرجال يوقفون سياراتهم عند الإشارة الضوئية ويتفاوضون بخصوص السعر مع هؤلاء النسوة.

أغمضت عيني، هززت رأسي، ما الذي يحصل معك الليلة؟

في هذه اللحظة، حدثَ شــيء بدد حيرتــي، لكنه في الوقت نفسه بات محرجا لي وللسيد آشوك. أوقفتُ السيارة عند إشارة المــرور الحمراء؛ عبرت فتاة الطريق وقد لبســتْ قميصا ضيقا قصير الأكمام لمحت السيد آشوك في مرآة الرؤية الخلفية، كانت عيناه تتحرك إلى الأعلى وإلى الأسفل أيضا.

قلت لنفسي: هآنذا قد أمسكت بك،أيها الوغد!

ولمعت عينــاه، لأنه قد رأى عيني، كأنه يقول لنفســه: هآنذا أمسك بك أيها الوغد!

لقد أمسك كل منا بالآخر.

(هذه المرآة الصغيرة المستطيلة داخل السيارة، يا سيد جياباو، ألــم يلحظ أحد ما من قبل كم هــي محرجة؟ كيف أنه من وقت إلى آخر تلتقي عيون الســيد والسائق في تلك المرآة، فتُفتح مثلً باب غرفة تبديل الملابس حيث يجد كل واحد منهما نفسه عاريا أمام الآخر؟).

تصاعد الدم إلى وجهــي. لكن تحول الضوء إلى الأخضر – رحمة بي فتحركت بالسـيارة. أعرف الآن لماذا كانت المدينة بــكل هذا الاختــلاف، لمــاذا كان منقاري متيبســا وأنا أقود السيارة.

لأن أجــواء المدينة قد أثارتني. وداخل تلك الســيارة، أصبح السيد والسائق جسدا واحدا.

شعرت بارتياح بالغ وأنا أقود الهوندا متوجها نحو بوابة فندق موريا شيراتون، آملا أن تكون معاناتي من هذه الرحلة قد أتت على نهايتها.

اليوم، تمتلئ دلهي بالفنادق الفخمة. هناك هامش من التشابه في الطرق الدائرية وأنابيب المجاري مع الصين، لكن بالنسبة إلى الروعة والجمال، فلا يفوق دلهي أي مكانٍ آخر. لدينا من الفنادق: الشيراتون، الإمبيريال، تاج بلاس، تاج مانسينج، الأوبروي، الإنتركونتيننتال، وكثير غيرها. أعرف جيدا الفنادق ذات الخمس نجوم في بانغلور من الداخل والخارج، وقد صرفت آلاف الروبيات على أكل كباب الدجاج أوالضأن أوالعجل في المطاعم هناك، وانتقيت المومسات من مختلف الجنسيات من حاناتها، لكن الفنادق ذات الخمس نجوم في دلهي تعتبر لغزا بالنسبة إليّ. أرتادها دوما، لكن لم تطأ قدماي أبعد من الأبواب الأمامية لأي منها. فليس مسموحا لنا أن ندخلها، هناك دائما حارسٌ بدين أمام الباب الزجاجي، رجلٌ بشاربين ولحية مصقولة، يضع عمامة سيرك حمراء مضحكة، ولأن السواح الأمريكيين يلتقطون الصور الفوتوغرافية معه فهو يعتقد أنه رجل مهم. وحتى لو حدث أن رأى سائقا قرب الفندق، سينظر إليه ويلوح بإصبعه مثل معلم مدرسة.

هذا هو قدر السائق. وهؤلاء الخدم يعتقدون أنه في إمكانهم أن يتحكموا فينا.

هناك قوانين صارمة تخص الفنادق ذات النجوم الخمس حيث تُركَنَ السيارات بعد توصيل الأسياد فهم أحيانا يضعونك في موقف

في الدور السفلي من الفندق وأحيانا في الخلف، وأحيانا أمام الفندق بالقرب من الأشجار. وأنت تجلس هناك منتظرا لمدة ساعة أو ساعتين أو ثلاث أو أربع تتثاءب ولا تعمل شيئا، إلى أن ينادي عليك الحارس ذو العمامة في مكبر الصوت: «السائق الفلاني، تقدَّم إلى البوابة الزجاجية مع السيارة. سيدك في انتظارك».

كان السائقون الآخرون ينتظرون في موقف السيارات، يدير بعضهم سلسلة المفاتيح في يده، والبعض يمضغ البان، وآخرون منشغلون بالقيل والقال، مازالت رائحة الأمونيا تنفث من مكان تجمعهم. جاثمين يثرثرون كالقردة.

جلس السائق ذو الشفتين المصابتين بالبهاق بعيدا، منهمكا في مجلته. كانت على غلاف المجلة لهذا الأسبوع، صورة لامرأة مستلقية على سرير وقد حلت ملابسها، وعشيقها يقف بجانبها رافعا سكينة فوق رأسها.

مجلة الجريمة الأسبوعية

٤,٥٠ روبية

قصص واقعية حصرية

«يشتهي زوجة سيده».

الغرام، الاغتصاب، الانتقام!

سألني بينما كان يتصفح القصة في المجلة: «هل فكرت فيما قلته لك، يا فأر الريف؟».

«بخصوص تقديم تلك الخدمات التي تُسعد سيدك؟ حشيشة، فتيات، كرات الجولف؟ كرات الجولف الأصلية من قنصلية أمريكا نفسها؟».

«إنه ليس من هذا الصنف».

التوت شـــفتاه الورديتان بابتسامة. «هل تريد أن تعرف سرا؟ سـيدي يحب ممثلات السينما. يأخذهن إلى فندق في جانغبورا عليه إشارة كبيرة ومضيئة».

ذكر اسـم ثـلاث ممثلات مشــهورات من مومبــاي كان قد اصطحبهن سيده.

«مع ذلك فهو يبدو شــخصا طيبا جدا. أنا فقط الذي أعرف ســره، دعني أقل لك إن الأســياد جميعهم على هذه الشــاكلة. ستصدقني يوما ما. والآن تعال واقرأ القصة معي».

كنا نتبــوَّل بعيدين بعضنا عن بعض بمســافة بوصات قليلة، فأسمع صوت سيل البول يضرب جذع الشجرة.

«لدي سؤال لك».

«عن فتيات المدينة مرة أخرى؟».

«لا، بل عما يحدث للسائقين القدامى؟».

«هه؟».

«أقصد ما الذي سيحصل لي بعد سنوات قليلة من الآن؟ هل ســيكون لدي مال كافٍ لأبني منزلا وأبدأ مشروعا تجاريا خاصا بي؟».

«حســنا». قال: «في الواقع، يكون الســائق صالحا للعمل إلى أن يصل الخمسين أو الخامسة والخمسين. وبعدها يصبح نظره ضعيفا، ومن ثم يركلونه إلى الخارج، فهمت؟ ســيحدث لك هذا بعد ثلاثين ســنة من الآن، يا فأر الريــف. إذا بدأت التوفير من اليوم، فســيكون في مقدورك أن تشتري منزلا صغيرا في بعض

الأحيــاء الفقيرة. وإذا كنت ذكيا بما فيه الكفاية فســوف تجمع المــال من مصدر آخر، فحينها يمكــن أن تؤمِّن لابنك تعليما في مدرسة جيدة. سيتمكن من التحدث بالإنجليزية، ويمكنه الالتحاق بالجامعــة. هذا أفضل ما يمكن أن يحدث لك. منزلٌ في الأحياء الفقيرة وولدٌ في الجامعة».

«أهذا في أحسن الأحوال؟».

«حســنا، في الجانب الآخر، يمكــن أن تصاب بالتيفوئيد من الماء الملوث. أو ينهي السيد خدمتك من دون سبب. أو تصاب في حادثة ما، والعديد من الاحتمالات السيئة الأخرى».

كنت مازلت أتبول عندما وضع يده عليَّ «هناك ســؤالٌ أود أن تجيبني عنه، يا فأر الريف. هل أنت على ما يرام؟».

نظرت إليه من طرف عيني وقلت: «أنا بخير. لماذا تسأل؟».

«أنا آسف لقولي هذا، ولكن بعض السائقين يتكلمون بخصوص ذلك الموضوع جهارا. أنت تجلس بمفردك في سيارة سيدك طوال الوقت، وتحادث نفســك... أتعلم ما الذي تحتاج إليه؟ امرأة. هل شاهدت الأحياء الفقيرة وراء مراكز التسوق؟ هناك نساءٌ لا بأس بهــن، مظهرهن ليس رديئــا، إنهن جميــلات وممتلئات. يذهب البعض منا مرة في الأسبوع إلى هناك. يمكنك أن تأتي معنا».

«السائق بالرام، أين أنت؟».

كان هذا نداء من مكبر الصوت عند بوابة الفندق. يأتي صوت الحارس ذي العمامة عبر مكبر الصوت عاليا وحازما: «الســائق بالرام احضر في الحال عند البوابة. من دون أي تأخير. سيدك في انتظارك».

رفعت بنطالي وركضت، ماسحا أصابعي المبللة في بنطالي من الخلف.

عندما وصلت بالسيارة إلى بوابة الفندق رأيت السيد آشوك يمشي مطوِّقا بيده إحدى الفتيات.

كانت عيناها مائلتين وبشرتها ضاربة إلى اللون الأصفر. أجنبية، من النيبال. ليست من طائفته أو من الخلفية الاجتماعية نفسها التي ينتمي إليها. قفزتْ داخل السيارة جالسة بزهو على المقاعد التي كنت قد لمَّعْتها.

وضع السيد آشوك يده على كتف الفتاة العاري. أبعدت نظري عن المرآة.

لم أكن أبدا من الذين يؤيدون ممارسة الرذيلة في السيارة، يا سيد جياباو.

لكنني كنت أشُمُّ رائحة عطريهما وهي تختلط، كنت أعرف بالضبط ما الذي يحدث في الخلف.

ظننت أنه سيطلب مني أن أصطحبهما إلى الشقة الآن، لكن لا، لقد استمر مهرجان المتعة، إذ طلب مني أن أتوجه إلى ب ف ر ساكت.

الآن، ب ف ر ساكت هو مكان لدار سينما ضخمة، تعرض عشرة أو اثني عشر فيلما سينمائيا في وقت واحد، وتذكرة الفيلم الواحد هي مائة وخمسون روبية، أجل، هذا صحيح، مائة وخمسون روبية! هذا ليس كل شيء، لديك أيضا العديد من الأماكن للشرب و للرقص، وأيضا لاقتناء فتاة وأشياء أخرى من هذا القبيل. قطعة صغيرة من أمريكا في الهند.

وراء آخر محل مضاء يظهر ب ف ر الثاني. كل سوق كبير في دلهي عبارة عن سوقين في واحد، هناك دائما صورة مصغرة شاحبة للسوق الحقيقي، مختفية في مكانٍ ما بين الشوارع الفرعية.

هذا سوق للخدم. عبرتُ المكان إلى ب ف ر الآخر، كان هناك صف من المطاعم ذات الروائح الكريهة، ومواقد شاي، وأوعية كبيرة لقلي الخبز بالزيت. يرتاده الرجال الذين يعملون في دور السينما، والذين يكنسون أرضها، ليأكلوا بعد أن ينهوا أعمالهم. يتخذ الشحاذون من هذا المكان منزلا لهم.

اشتريت شايا وفهادا[٣٢] بالبطاطس. وجلست للأكل تحت شجرة بانيان.

جاءت امرأة عجوز نحيلة بائسة تمد يدها «أخي، أعطني ثلاث روبيات».

«أنا لست من الأغنياء، يا أمي، اذهبي إلى ذلك الجانب واطلبي منهم النقود».

«أخي».

«دعيني آكل، هل في إمكانك ذلك؟ دعيني وشأني!».

غادرَتْ. وأتى رجل يشحذ السكاكين ونصب كشكا لأدواته بالقرب من الشجرة التي كنت أجلس تحتها. يحمل سكينتين في يده، ويجلس إلى آلته - التي تدار بدواسة قدم من حجر الشحذ - ويبدأ يعمل بشحذ السكاكين. فتطايرت الشرارات من آلته التي كانت على بعد بضع بوصات مني.

(٣٢) غذاءٌ تقليدي من المطبخ الهندي، معروف في الجنوب. يتكون من الطحين معجونا بالبطاطس وأنواع مختلفة من البهارات والزنجبيل، يقلى بالزيت على شكل قطع بحجم كف اليد.

«يــا أخي، هل من الضــروري أن تنجز عملــك هنا؟ ألا ترى إنسانا يحاول أن يأكل في هذا المكان؟».

توقف الرجل عن اســتخدام آلته، ونظر إليّ نظرة خاطفة، ثم عاد إلى تشغيل الدواسة واســتمرت الشرارات تنبعث من حجر الشحذ كأنه لم يسمع ما قلت له.

رميت فاهادا البطاطس تحت قدميه:

«كم أنتم أناسٌ حمقى».

عبَرتْ المرأة العجوز المتسولة الشارع معي، إلى ب.ف.ر الآخر. ربطت ســاريها بإحكام، أخذت نفســا، واسترسلت في نشاطها المعتــاد: «أيتها الأخت، هل لي بثلاثة روبيــات. فأنا لم آكل منذ الصباح..».

كومة عملاقة من الكتب القديمة وُضِعت في وســط السوق، نُظِّمت على شكل مربع كبير، ومجوَّف مثل الماندالا[٣٣] التي تُشيَّد في الأعراس لحمل النار المقدســة. كان هناك رجلٌ ضئيل البنية يجثم على رزمة من المجلات في منتصف مربع الكتب، كأنه كاهن يحرس مانــدالا للمطبوعات. جذبتني الكتب نحوها كمغناطيس كبير، ولكــن لم يكد ذلك الرجل الجالس علــى المجلات، يراني حتى قام بتنبيهي: «جميع هذه الكتب باللغة الإنجليزية».

«وإن يكن».

نبح الرجل: «هل تستطيع قراءة الكتب الإنجليزية؟».

رددتُ بسرعة: «هل تستطيع أنت قراءة الكتب الإنجليزية؟».

نعم، أثمــر عملي نتيجة جيدة. حتى هذه اللحظة كانت نبرة

---

(٣٣) رمز الكون عند الهندوس والبوذيين. يتكون من دائرة تطوق مربعا، وعلى كل جوانبها رســم آلهة.

صوتــه نبرة خادم لخادم آخر، أما الآن فتغيرت إذ أصبحت نبرة رجلٍ لرجل. توقف وأخذً ينظر إليَّ من أعلى رأســي إلى أخمص قدمي.

قال وهو يبتسم فجأة: «كلا»، كأنه أُعْجِبَ بجرأتي.

«إذن كيــف تبيــع هــذه الكتــب مــن دون أن تعــرف اللغــة الإنجليزية؟».

قــال: «أنا أميِّز الكتاب من الغلاف. أنا أعرف أن هذا الكتاب هو هاري بوتر». وأشــار إلى الكتاب. «هــذا الكتاب هو جيمس هاردلي تشيس». التقط الكتاب. «وهذا كتاب خليل جبران، وهذا أدولف هتلر، دزموند باغلي، المتعة الجنســية. في إحدى المرات غيَّر الناشرون غلاف كتاب هتلر فأصبح يشبه غلاف كتاب هاري بوتر، فتحولت حياتي إلى جحيم لمدة أسبوع بعد ذلك التغيير».

«أريد أن أقف عند الكتــب. كان لدي كتاب ذات مرة. عندما كنت صبيا».

«خذ وقتك».

لذا رحت أحوم حول ذلك المربع الكبير من الكتب. وأقف عند الكتــب، حتى إن كانــت كتبا أجنبية، فإنها تُشــعرك كأن كهرباء تســري في بدنك، يا معالي رئيس الوزراء، مثل شــعورك عندما تشاهد الفتيات بالجينز الضيق.

الفرق هنا، أن طنينا يسري داخل مخك.

ســبع وأربعون من الأوراق النقدية ذات فئــة المائة روبية في ذلك المظروف البني تحت سريري.

مبلــغٌ غريب من المال، أليــس كذلك؟ هناك معضلة كان لا بد

أن نجد حلا لهـــا. لنر. ربما كانت ســـتمنحني بنكي مدام مبلغا يتكــون من خمســـة آلاف روبية، ولكنها لكونهـــا حقيرة، مثل كل الأغنيـــاء - أتذكُر كيف جعلني «النمـــس» أجثم على ركبتي بحثا عن تلك الروبية؟ - اســتقطعت ثلاثمائة من المبلغ قبل أن تضعه في المظروف البني.

إن هذا ليس بالأســـلوب الذي يفكر به الأغنياء، أيها الأحمق. ألم تتعلم بعد؟

لا بد أنها أخذت عشـــرة آلاف في البداية، ثم قسَّـــمتها إلى نصفين، احتفظت لنفسها بالنصف، ومن النصف الآخر سحبت في البداية مائة وبعدها مائة أخرى فمائة أخرى. هكذا إلى هذا الحد هم حقيرون.

إذن هذا يعني أنهم مدينون لك بمبلغ عشـــرة آلاف روبية، وإن كانـــت تعتقد أنها مدينة لك بعشـــرة آلاف إذن فهي في الحقيقة مدينة لك بعشر مرات أكثر.

«كلا، بل مائة مرة أكثر».

وضـــع الرجل الضئيل البنية الجريدة التي كان يقرأها جانبا، والتفت إليَّ وهو داخل ماندالا للكتب.

وصاح فيَّ: «ما الذي كنت تقول؟».

لاشيء.

صاح فيَّ ثانية: «يا أنت، ما الذي تفعله؟»

قبضتُ على عجلة وهمية وأدرتها مائة وثمانين درجة.

«صحيـــح، كان عليَّ أن أعرف هذا. الســـائقون رجالٌ أذكياء يسمعون الكثير من الأحاديث الجيدة. أليس كذلك؟».

«بعض السـائقين قد يفعلون ذلك. ولكني أنا أصبح أصم في السيارة».

«حتما، حتما. قل لي، لا بد أنك تعرف الإنجليزية، بعض ما يقولونه يلتصق بك».

«قلت لك، أنا أصمٌّ في السيارة. كيف يمكن لحديث أن يلتصق بي؟».

«ماذا تعني هذه الكلمة الإنجليزية في الجريدة؟ خصو -- ص - ية، انظر».

أخبرته بالمعنى، وابتسم ممنونا. «كنا قد ابتدأنا للتو نتعلم الحروف الهجائية في اللغة الإنجليزية عندما أخرجتني أسرتي من المدرسة».

إذن كان هذا الرجل أيضا نصف ناضج. من طبقتي.

«يا أنت» صاح ثانية. «أتريد أن تقرأ بعضا من هذا؟».

رفع مجلة أمامي على غلافها صورة لامرأة أمريكية من النوع الذي يفضله أولاد الأغنياء. «إنها من النوع الجيد».

تصفحتُ المجلة. كان محقا إنها من النوع الجيد.

«بكم تُباع هذه المجلة؟».

«ستون روبية. أتصدق هذا. ستون روبية لمجلة مستعمَلة. هناك شخص في سوق خان يبيع مجلات من إنجلترا والواحدة منها تكلِّف خمسمائة وثماني روبيات. أتصدق هذا؟».

رفعت رأسي إلى السماء وأطلقت صفيرا. «عجبا كم لديهم من المال الكثير»، قلت بصوتٍ عالٍ ولكن كأنني أُحَدّثُ نفسي. «مع ذلك هم يعاملوننا كأننا حيواناتٌ».

يبدو أنني تفوهت بشـــيء جعله يتصرف على نحو مضطرب، لأنه كان يرفع الجريدة ويضعها جانبا عدة مرات ؛ وبعد ذلك ذهب إلى حافة الماندالا، يخفي جزءا من وجهه في الجريدة، همس لي بشيء ما. وضعت راحتي خلف أذني. «قلها مرة أخرى؟».

نظر حولــه وقال بصوتٍ أعلى هذه المــرة: «على كل حال لن يدوم هذا إلى الأبد. أقصدُ الوضع الحالي».

اقتربت من الماندالا أكثر، «لم لا؟».

«هل ســـمعت بالناكســـال؟» همس من فـــوق الكتب. «يملكون البنادق. لديهم جيش كامل. إنهم يزدادون قوة يوما بعد يوم».

«حقا؟».

«لقد قرأت هذا النبأ فـــي الجريدة. الصينيون يريدون حربا أهليـــة في الهنـــد، لاحظ، القنابل الصينية آتيـــة من بورما، إلى بنجلادش، وبالتالي إلى كالكتا. يتجهون جنوبا إلى آندرا براديش، ومنه إلى الأعلى داخل «الظلام». وعندما يأتي الوقت المناســـب ستكون الهند كلها..».

بسط راحتيه.

تكلمنـــا على هذا المنوال فترة مـــن الزمن، لكن صداقتنا أتت على نهايتها ككل الصداقات بين الخادم والخادم بصراخ أسيادنا وهم يســـتدعوننا. عصابة من أولاد الأغنيـــاء طلبوا رؤية مجلة أمريكية إباحية وجاء الســـيد آشوك خارجا من الحانة، مترنحا، تفوح منه رائحة الخمر، كانت الفتاة النيبالية برفقته.

وفي طريق العودة كانا يتحدثان بأعلى صوتهما.

يا إلهي، وهو الرجل الذي ما زال متزوجا بشكل شرعي بامرأة

أخرى! كنت مستاء منه فاجتزت أربع إشارات مرور حمراء، وكنت على وشك أن أحطم عربة يجرها ثور عليها حملٌ من علب الكيروسين، ولكنهما لم ينتبها لي أبدا.

«ليلة سعيدة، بالرام»، صاح السيد آشوك بينما كان يغادر السيارة ممسكا بيدها.

«ليلة سعيدة، بالرام!» صاحت هي أيضا.

أسرعا إلى الشقة وتبادلا الدور في كبس زر المصعد.

عندما وصلت إلى غرفتي فتشت تحت السرير. مازال لبس المهراجا الذي أعطاني إياه السيد آشوك موجودا هناك، العمامة والنظارات السوداء أيضا.

قدت السيارة خارج المبنى، مرتديا ملابس المهراجا، والنظارات السوداء على عيني. لم يكن لدي أي فكرة عن المكان الذي سأقصده، كنت أقود السيارة حول مراكز التسوق. وفي كل مرة أرى فتاة جميلة ألفتُ انتباهها هي وصديقاتها باستعمال بوق السيارة.

شغلت الموسيقى والمكيف لأقصى درجة.

عُدتُ بالسيارة إلى المبنى، أخذت السيارة إلى المرآب، طويت النظارة السوداء ووضعتها في جيبي، وخلعت الملابس.

بصقت على مقاعد الهوندا ومسحتها لتنظف.

* * *

في الصباح التالي، لم ينزل ولم يطلبني إلى غرفته. صعدتُ في المصعد ووقفت بالقرب من غرفته. كنت أشعر بالذنب جراء ما فعلته الليلة السابقة. تساءلت إن كان لا بد أن أعترف له

اعترافا كاملا بما بدر مني. مددت يدي إلى الجرس عدة مرات، وبعدها تنهدتُ ثم تراجعت.

بعد قليـــل، أتت أصوات خفيضة مـــن الداخل. وضعت أذني على الخشب واستمعت.

«لكنني قد تغيرت».

«لا تواصل الاعتذار».

«لقد حصلت على المتعة مساء الأمس أكثر من أي وقت خلال أربع سنوات من زواجي».

«عندما رحلـــت إلى نيويورك، ظننت أني لـــن أراك أبدا مرة أخرى. وهآنذا أراك أمامي. هذا أهم شيء بالنسبة إلي». ابتعدتُ عن الباب وضربت جبهتي بقبضتي. وكان شعوري بالذنب يتفاقم دقيقة بعد أخـــرى. هذه حبيبته القديمة، أيها الأحمق، ليســـت واحدة من تلك النساء الساقطات!

بالطبع هو لا يذهب إلى امرأة ســـاقطة. كنت على علم برقي أخلاقه، لا يوجد مثيل له.

قرصت راحة يدي اليسرى كعقاب. ووضعت أذني على الباب من جديد.

كان الهاتف يرن في الداخل. خيَّم الصمت برهة، ومن ثم قال: «إنه بودلز. وهذا كودلز. أنـــتِ تذكرينهما، أليس كذلك؟ ينبحان دائما للفت انتباهي. خذي الهاتف، اسمعيهما...».

«أخبـــار ســـيئة؟» جـــاء صوتها بعـــد دقائـــق قليلـــة. «تبدو متضايقا».

«عليَّ أن أذهب لأقابل عضوا في مجلس الوزراء. أكره القيام

بهذه المهمة. كلهم أشرار. وظيفتي... وظيفة سيئة. كنت أتمنى لو أعمل في وظيفة غيرها. عمل شريف. التعاقدات الخارجية على سبيل المثال. كل يوم أتمنى لو كانت وظيفتي في مجال التعاقدات الخارجية.

«لماذا إذن لا تعمل في وظيفة أخرى؟ لقد حدث الشيء نفسه عندما أمروك ألا تتزوجني. حينذاك أيضا لم تستطع أن ترفض».

«إن الموضوع ليس بهذه السهولة، أوما. إنهما أبي وشقيقي».

«لا أدري إن كنت قد تغيَّرت، يا آشوك. أول مكالمة من داهانباد وسوف تعود كما كنت سابقا».

«أرجوكِ، دعينا لا نتعارك ثانية. سيأخذك السائق إلى سكنك الآن».

«أوه، لا. أنا لن أعود مع سائقك. أنا أعرف من أي صنف هو، الصنف القروي. هم يظنون أي امرأة غير متزوجة بائعة هوى. ويمكن أن يظن أني نيبالية بسبب شكل عيني. وأنت تعلم ما يعنيه هذا بالنسبة إليه. سأعود بنفسي».

«هذا الشخص لا بأس به. إنه يعتبر فردا من العائلة».

«ليس من الحكمة أن تكون واثقا به إلى هذا الحد، يا آشوك. السائقون في مدينة دلهي فاسدون. يبيعون المخدرات والله يعلم ما يعملون غير هذا».

«ليس هذا السائق. صحيح أنه غبي إلى أبعد الحدود، لكنه أمين، وسوف يعود بك إلى سكنك».

«كلا، يا آشـوك. سـأذهب في سـيارة أجرة. سـأهاتفك هذا المساء».

أدركت أنها تتجه نحو الباب، اسـتدرت إلى الخلف ومشـيت بعيدا على أصابع رجليّ.

لم يكن هناك أي خبر عنه إلى أن حلَّ المسـاء، وبعد ذلك نزل لأخذ السيارة. جعلني أقود به من مصرف إلى آخر. وكنت أراقبه وأنا جالس في مقعد السائق، من طرف عيني وهو يأخذ الأوراق النقدية من أجهزة الصرف الآلي، من أربعة أجهزة مختلفة. وقال بعـد ذلك: «بالرام، اذهب إلى المدينـة، أنت تعرف المنزل الكبير الذي يقع في شارع آشـوكا، الذي ذهبنا إليه مع السيد موكيش من قبل؟».

«أجل، سـيدي. أنا أذكر المكان. لديهم كلبا حراسة من سلالة آلسيشن، سيدي».

«بالضبط. ذاكرتك قوية، يا بالرام».

رأيت السـيد آشوك في مرآة التجسس وهو يكبس على أزرار هاتفه النقال بينما كنت أقـود. ربما كان يقول لخادم الوزير إنه قادمٌ مع النقود. الآن أدركت أخيرا ما الذي كان يفعله سيدي وأنا أقود به في شوارع دلهي.

«سـوف أعود بعد عشرين دقيقة، بالرام»، قال السيد آشوك حـين وصلنا إلى فيللا الوزير. ترجَّل من السـيارة حاملا حقيبة حمراء، أغلق الباب بعنف متجها إلى منزل الوزير.

جلـس حارس الأمـن ومعـه بندقية في كشـك معدني فوق الجـدار الأحمر الذي يحيط بمنزل الوزيـر، يراقبني عن كثب.

وكلبا الحراسة يجولان في المبنى وينبحان من وقت إلى آخر.

كان وقت الغروب. وطيور المدينة تطير إلى مأواها في أسراب. الآن، دلهي، يا سيدي رئيس الوزراء، أصبحت مدينة كبيرة، لكن مازالت بها أماكن طبيعية: حدائق هائلة، غابات محمية، مساحات واسعة من الأراضي غير المحروثة، ويمكن لأشياء غريبة أن تظهر فجأة في هذه البرية. بينما كنت أشاهد الجدران الحمراء لمنزل الوزير، طار طاووس فوق الكشك الذي كان حارس الأمن جالسا فيه وقبع عليه؛ لدقائق تحوَّل ذيله الأزرق القاني إلى اللون الذهبي في ضوء الشمس عند الغروب. ثم اختفى.

بعد فترة قصيرة خيَّم الليل.

عَلا نباح الكلبين. فُتِحَت البوابة. خرج السيد آشوك من منزل الوزير بمعية رجل بدين، هو نفسه الرجل الذي خرج معه عندما ذهب إلى منزل رئيس الوزراء. ظننت أنه كان مساعد الوزير. وقفا أمام السيارة وتحدثا معا.

صافح الرجل البدين السيد آشوك، الذي كان من الواضح أنه يرغب في تركه في أقرب وقت، لكنه ليس من السهل أن تنسحب من رجل سياسة، أو حتى مرافق رجل سياسة. خرجتُ من السيارة متظاهرا بأني أتفحص العجلات، واقتربت بحيث يمكنني استراق السمع.

«لا تقلق، آشوك. سأتأكد من أن الوزير سيهاتف والدك غدا».

«شكرا. إن أسرتي تقدر لك مساعدتك».

«ما الذي ستفعله بعد ذلك؟».

«لا شيء. سأذهب إلى غورغاون».

«شاب في مثل عمرك يذهب إلى البيت باكرا في هذا الوقت؟ دعنا نستمتع قليلا».

«أليس لك عمل تنجزه بخصوص الانتخابات؟».

«الانتخابات؟ كل الأشياء قد رتبت. هذا ما قاله الوزير صباح اليوم. الانتخابات، يا صاحبي، تُدار بسهولة في الهند. إنه ليس كما في أمريكا».

متجاهلا اعتراضات السيد آشوك، فرض الرجل البدين نفسه ودخل السيارة. كنا مازلنا في بداية الطريق حين قال: «آشوك، دعني أشرب مشروبا».

«هنا في السيارة؟ لا يوجد لدي مشروب في السيارة».

بدا الرجل البدين مندهشا: «كل الناس لديهم مشروب في سياراتهم في دلهي، آشوك، ألم تكن تعرف هذا؟».

طلب مني أن أعود به إلى فيللا الوزير. دخل إلى هناك وخرج بكأسين وقنينة. أغلق الباب محدثا صوتا عاليا، وزفر ثم قال: «الآن هذه السيارة قد أصبحت كاملة المعدات».

أخذ السيد آشوك القنينة وكان على وشك أن يصب له المشروب في الكأس، عندما ضرب الرجل البدين شفتيه منزعجا. «لا ليس أنت، أيها الأبله. إنما السائق. إنه هو الذي عليه أن يصب المشروب».

أدرتُ جسمي فورا واتخذت دور الساقي في الحانة.

«لدى هذا السائق موهبة واضحة»، قال الرجل البدين. «بعضهم يحدث فوضى في أثناء صب المشروب».

«قد لا تصدق إن قلت لك إنه منحدر من طائفة لا تشـــرب المسكرات».
أغلقت غطاء القنينة بإحكام ووضعتها عند صندوق التروس. سمعت نقرة الكأسين ورائي ثم الصوتين: «نخبك!».
قال مساعد الوزير: «فلنذهب، فلنذهب إلى شيراتون، أيها السـائق. هناك مطعم جيد في الطابق السفلي، آشوك. ركن هادئ. سنستمتع هناك قليلا».
أدرت مفتاح السيارة وقدتُ البيضة الداكنة «هوندا سيتي» في شوارع نيودلهي.
«ســيارة الرجل هي قصره. أنا لا أكاد أصدق أنك لم تقم بهذا من قبل».
«حسنا، أنت لم تجرب هذا أبدا في أمريكا؟».
«هذه إحدى إيجابيات وجودك في دلهي، أيها الولد العزيز!» ربت الرجل البدين على فخذ السيد آشوك.
رشف رشفة من المشـــروب ثم سأل السيد آشوك: «ما هو وضعك آشوك؟»
«تجارة الفحم، هذه الأيام. إن الناس تعتقد أن التكنولوجيا هي وحدها التي تزدهر. لكن الإعلام لا يعطي أي أهمية للفحم، أليس كذلك؟ يســتهلك الصينيون الفحم بجنون والأسعار في ارتفـــاع أينمـــا تذهب. أصبح هناك أصحـــاب ملايين في كل مكان، شمالا ويمينا ووسطا».
«صحيـــح، صحيح»، قال الرجل البديـــن. «تأثير الصين». اشتم كأسه. «لكن ليس هذا ما نقصده نحن في دلهي عندما

نقول الوضع، أيها الولد العزيز!».

ابتسم مساعد الوزير: «أساسا سؤالي كان من يقوم على خدمتك هناك؟». (أشار إلى جزء في جسد السيد آشوك والذي لم يكن من شأنه أن يشير إليه).

«أنا منفصل عن زوجتي. وإجراءات الطلاق سارية الآن».

«أنا حزين لسماع ذلك» قال الرجل البدين. «إن الزواج مؤسسة جيدة. كل شيء في هذا البلد أصبح مفككا. الأسَر، الزواج كل شيء».

رشف مزيدا من المشروب ثم قال: «قل لي، آشوك، هل تعتقد أن حربا أهلية ستندلع في هذا البلد؟».

«لماذا تقول هذا؟».

«كنت في محكمة في غازياباد قبل أربعة أيام. حكم القاضي بحكم لم يرضِ المحامين، فرفضوا قبول أوامره. وجن جنونهم، ثم سحبوا القاضي وأشبعوه ضربا، في محكمته نفسها. لم تنشر الصحافة هذا الخبر. لكنني شاهدت الحدث بأم عيني. عندما يبدأ الناس الآن بضرب القضاة - داخل محاكمهم - فأي مستقبل ينتظر بلادنا؟».

لامس رقبتي شيء ما بارد. كان الرجل البدين يحك كأسه في رقبتي.

«جرعة أخرى، أيها السائق».

«حاضر سيدي».

هل سبق لك أن رأيت هذه الحركة من قبل، يا معالي رئيس الوزراء؟ رجلٌ يقود بيدٍ واحدة وباليد الأخرى يلتقط قنينة

المشــروب ويرفعها إلى أعلى كتفه ويصب المشــروب في الكأس حتى عندما تكون السيارة تسير من دون أن يسكب قطرة واحدة خارجها! هذه المهارات مطلوبة من الســائق الهندي! لا يكفي أن تكــون لديه القدرة على الاســتجابة الكاملة، وقــدرة عالية على الإبصار ليلا، والصبر اللامتناهي، بل عليه أيضا أن يكون ساقيا من الطراز الأول!

«هل ترغب في المزيد، سيدي؟».

نظرتُ إلى مســاعد الوزير، إلى كتل الشحم الفاسد المتكدس أســفل ذقنه، ثم نظرت إلى الطريق للتأكد من أنني لم أصطدم بأي شيء.

«صب كأسا لسيدك الآن».

«لا، أنا لا أكثر من الشرب حقا. شكرا».

«لا تكن ســخيفا، آشــوك. أنا أصر علــى ذلك، يا رجل صب كأسا لسيدك».

لــذا عليَّ الآن أن أقــوم بالحركة مرة ثانية، يــد واحدة على عجلة القيادة واليد الأخرى لصب المشروب.

صمت الرجل البدين بعد الكأس الثانية. مسح شفتيه.

«عندمــا كنت في أمريــكا لا بد أنه كانت لديــك العديد من النساء؟ أقصد النساء المحليات».

«كلا».

«كلا؟ ماذا يعني هذا؟».

«لقد كنتُ مخلصا لبنكي - زوجتي - في جميع الأوقات».

«يــا إلهي. كنت مخلصا. يا لها من فكرة. زواج جــدير بالثقة.

لا عجب أنه انتهى بالطلاق. لم تكن لديك صديقة بيضاء؟».

«لقد قلت لك».

«يا إلهي. لماذا دائما تكون الشخصية الهندية الخطأ هي التي تذهب إلى الخارج؟ اسمع، هل تريد واحدة الآن؟ فتاة أوروبية؟».

«الآن؟».

قال الرجل البدين: «الآن». «أنثى من روسيا. تشبه تلك الممثلة الأمريكية». ذكر اسما ما.

«هل تود القيام بهذا الشيء؟».

«بائعة هوى؟».

ابتسم الرجل البدين. «صديقة. صديقة سحرية. هل ترغب في هذا الشيء؟».

«لا. شكرا. أنا مرتبط مع امرأة».

أخرج الرجل البدين هاتفه النقال وكبس على بعض الأزرار. أسقط الضوء الخارج من الهاتف هالة زرقاء على وجهه.

«إنها موجودة هناك. لنذهب ونرها. إنها ذو جمال أخّاذ، صدقني. تشبه تماما الممثلة الأمريكية. هل معك ثلاثون ألفا؟».

«لا. اسمع. أنا على علاقة بواحدة. أنا لن...».

«لا بأس. سأدفع أنا الآن. وستردها لي بعد ذلك. ضعها في المظروف القادم الذي ستعطيه للوزير». وضع يده على يد السيد آشوك وغمز بعينه، وانحنى عليَّ ليعطيني الإرشادات. نظرت إلى السيد آشوك في مرآة الرؤية الخلفية.

بائعة هوى؟ لأناسٍ مثلي، سيدي. هل أنت واثقٌ بأن هذا ما تريده؟

كنت أتمنى لو أستطيع أن أقول له هذا جهرا، لكن من أكون أنا؟ مجرد سائق.

أخذت الإرشادات من الرجل البدين. ولم ينطق السيد آشوك بأي كلمة، كان جالسا يحتسي مشروبه فقط مثل صبي يشرب الصودا. ربما كان يظن أن هذه مزحة، أو ربما كان خائفا أن يرفض.

لكنني سأدافع عن شرفه حتى يوم مماتي. لقد أفسدوه.

جعلني الرجل البدين أقود إلى مكان في كايلاش الكبرى، وهي مقاطعة سكنية يسكنها ذوو المنزلة الرفيعة في مدينة دلهي. لمس رقبتي بالكأس الباردة عندما كنت على وشك الدوران بالسيارة للانعطاف عند منتصف الطريق، ليرشدني إلى المكان. كان منزلا واسعا كقصر صغير بأعمدة رخامية بيضاء في الواجهة، ويمكنك أن تعرف من كَم النفايات الملقاة في الخارج أن من يسكن هنا هم من الأثرياء.

احتفظ الرجل البدين بالباب مفتوحا بينما كان يتحدث في الهاتف النقال. بعد خمس دقائق أغلق الباب بقوة. بدأت أعطس. عطرٌ غريب ملأ المقاعد الخلفية.

«توقف عن العطس، وخذنا نحو جانغبورا، يا بني».

«آسف، سيدي».

ابتسم الرجل البدين. التفتَ إلى الفتاة التي دخلت السيارة لتوها وقال لها: «تكلمي مع صديقي آشوك باللغة الهندوستانية».

نظرت في مرآة الرؤية الخلفية، ولمحت تلك الفتاة للمرة الأولى.

حقا، إنها تشبه ممثلة رأيتها في مكانٍ ما. مع ذلك فأنا لا أعرف اسمها. عرفته فقط عندما أتيت إلى بانغلور وأتقنت استخدام الإنترنت في جلستين قصيرتين فقط! رأيت صورتها واسمها على غوغل.

كيم بيسينغر.

كان هذا الاسم الذي ذكره الرجل البدين.

الفتاة التي جلست مع الرجل البدين كانت فعلا تشبه الممثلة كيم بيسينغر! كانت ممشوقة القامة وجميلة، ولكن كان الشيء المميز فيها هو شعرها، ذهبيٌّ لمَّاع، مثل ذلك الذي يعرضونه للدعاية لمستحضرات العناية بالشعر!

«كيف حالك، آشوك؟» سألته بلغة هندوستانية متقنة. مدت يدها وأخذت يد السيد آشوك.

ضحك الرجل البدين: «ها هي الهند تتطور، أليس كذلك؟ إنها تتحدث بلغة هندوستانية».

ضرب على فخذها وقال: «لغتك الهندوستانية قد تحسنت، يا عزيزتي».

انحنى السيد آشوك ليتكلم إلى الرجل البدين من وراء كتفها: «هل هي روسية؟».

«اسألها. لا تكن خجولا. إنها صديقة». أجابت بلغة هندوستانية تشوبها اللكنة: «أوكرانية. أنا طالبة أوكرانية أدرس في الهند».

فكرت أنه يجب أن أتذكر هذا المكان، أوكرانيا. وفي يومٍ ما سأذهب إلى هناك!

«آشوك، هيا المس شعرها. إنه حقيقي. لا تخف، إنها

صديقــة». ضحك مرة أخرى كاتما صوتــه: «انظر، ليس هناك ما يؤذي أحدا، آشــوك؟ قولي شــيئا باللغة الهندوستانية للسيد آشوك، يا عزيزتي. إنه مازال متخوفا منك».

قالت: «إنك رجلٌ وسيم، لا تخف مني».

«أيها الســائق». انحنى الرجل البدين نحوي ولمســني بكأسه مرة أخرى وسألني: «هل نحن قريبون من جانغبورا؟».

«نعم، سيدي».

«عندما تصل إلى طريق المســجد، ســترى فندقا عليه إشارة مضاءة على شكل حرف T، خذنا إلى هناك».

في غضون عشر دقائق وصلنا إلى هناك، لا يمكن أن تخطئ ذلك الحرف الكبير والمشع على شكل T كالفانوس في الظلام.

توجه الرجل البدين ومعه المرأة ذات الشعر الذهبي إلى مكتب الاستقبال في الفندق، حيث رحب به المدير بحرارة. مشى خلفهما الســيد آشوك وهو يتلفت من جانب إلى آخر كصبي صغير على وشك أن يقوم بفعل مُشين جدا.

مر نصف ســاعة من الزمن. كنــت لا أزال في الخارج، يداي على عجلــة القيادة طوال الوقت. لكمت الغــول الصغير. بدأتُ أقضم عجلة القيادة.

تمنيت لو يخرج وذراعاه ترفرفان وهو يصيح: بالرام، لقد كنتُ على شفا أن أقترف الخطيئة! أنقذني، فلنبتعد من هنا فورا!

خرج السيد آشــوك من الفندق بعد ساعة بمفرده، كان يبدو عليلا.

«قــد انتهى الاجتماع، بالرام»، قال تاركا رأســه يســقط إلى

الوراء على المقعد. «لنذهب إلى الشقة».

لم أُشَغِّل السيارة برهة من الزمن. تركت إصبعي على المفتاح.

«بالرام، دعنا نذهب!».

«حاضر، سيدي».

عندما عدنا إلى غورغاون، وخرج مترنحا ليتوجه إلى الشقة. لم أترك السيارة. مكثت فيها نحو خمس دقائق، ثم انطلقت إلى جانغبورا، ورأسا إلى الفندق الذي عليه حرف T.

أوقفت السيارة في زاويةٍ وراقبت باب الفندق. كنت أريدها أن تخرج.

مر بجانبي حمال ريكشو، رجلٌ صغير غير حليق وهزيلٌ كالعصا. يبدو متعبا كثيرا وهو يمسح وجهه وساقيه بخرقة، وراح ينام على الأرض. كان على مقعد الريكشو ملصقٌ إعلاني أبيض كتب عليه:

هل تريد أن تتحدى الوزن الإضافي؟

اتصل بجيمي سينج في نادي مترو الرياضي: ٩٨١١٧٩٩٢٨٩

كان الرجل الأمريكي الذي تظهر عضلاته البيضاء الهائلة، من أعلى الإعلان يبتسم. وامتلأ الجو بشخير حمال الريكشو.

يبدو أن أحدا ما في الفندق قد رآني أنتظر هناك، إذ ما لبث أن خرج رجل الشرطة من باب الفندق ونظر إليَّ نظرة فاحصة، ثم نزل من الدرج.

أدرت مفتاح تشغيل السيارة، وانطلقت عائدا إلى غورغاون.

اليوم، لقد طفت شوارع بانغلور بالليل أيضا، لكنني لم أشعر

بذلك الشعور عندما كنت أطوف شوارع دلهي تلك الليلة. شعور بأن شيئا ما يحترق في داخلك وأنت تقود السيارة في المدينة، المدينة نفسها تعرف عنه، وهي أيضا سوف تحترق من الشيء نفسه.

كنت أشعر بالمرارة تلك الليلة. المدينة تعرف هذا، وتحت وميض الضوء البرتقالي الخافت الذي غطى كل مكان في الشارع، كانت تشعر المدينة أيضا بالأسى.

حدثيني عن الحرب الأهلية، قلت لمدينة دلهي.

وردت: سأفعل.

في منتصف الطريق حيث يوجد شريط ضيق بين تقاطع الشوارع كانت هناك آنية زهور مقلوبة يجلس بجوارها ثلاثة رجال بأفواه مفتوحة. يتحدث إليهم رجل وضع عمامة بيضاء على رأسه وهو أكبرهم سنا، رافعا إصبعه أمامهم. تمر السيارات بجانبه ومصابيحها الأمامية متوهجة بأنوار عالية. صوت السيارات يحجب كلماته. يبدو كأنه نبي في قلب المدينة، لا يراه أحد سوى أتباعه الثلاثة. وسوف يكونون فيما بعد جنرالاته الثلاثة. إن آنية الزهور ما هي إلا رمزٌ لشيء ما.

حدثيني عن الدماء في الشوارع، قلت لمدينة دلهي.

وردت: سأفعل.

رأيت رجالا آخرين يتكلمون ويتناقشون، ويقرأون في الليل، بمفردهم أو مع جماعات حول مصابيح الشوارع. من خلال الضوء الخافت لمدينة دلهي، رأيت تلك الليلة المئات منهم، تحت الأشجار، عند الأضرحة المقدسة، في تقاطع الطرق، على

المقاعد، يقرأون بعيونٍ ملؤها الارتياب كل ما يقع في أيديهم من الجرائد، والكتب المقدسة، والمجلات الأكاديمية، وكتيبات الحزب الشيوعي. ما الذي كانوا يقرأونه؟ عمَ كانوا يتحدثون؟

لكن، ماذا أيضا؟

وإذا سالت الدماء في هذه الشوارع - سألتُ المدينة - هل تعدينني أن يكون أول الراحلين ذلك الرجل البدين ذو الزوائد الشحمية أسفل رقبته؟

كان على جانب الطريق متسولٌ شبه عريان تراكمت على بدنه الأوساخ، بشعرٍ أشعث غريب على شكل لفائف طويلة مثل الأفعى، التقت عينه بعيني:

أنا أعدك.

قطع من الزجاج الملون قد ثُبتت في أطراف جدران أبراج بكنغهام منطقة ب لمنع اللصوص من التسلل إلى المبنى. عندما تسقط عليها أنوار المصابيح الأمامية للسيارات، تصبح القطع الزجاجية متوهجة، ويصبح الحائط كوحشٍ زجاجي متعدد الألوان.

حدق فيّ حارس البوابة بينما كنت أدخل المبنى بالسيارة. رأيت أوراقا نقدية من الروبيات تلمع في عينيه.

كانت هذه المرة الثانية التي يراني أخرج فيها وأعود في السيارة بمفردي.

في موقف السيارات، خرجتُ من مقعد السائق وأغلقت الباب بحرصٍ شديد. ثم فتحت باب الركاب، ودخلت، مررت يدي على المقعدٍ الجلدي من جانب إلى آخر ثلاث مرات، ووجدت أخيرا

ما كنت أبحث عنه.

رفعته إلى حيث الضوء.

خصلةٌ من الشعر الذهبي!

مازلت أحتفظ بها في درج مكتبي إلى اليوم.

الليلة السادسة

الليلة السادسة

أحلام الأغنياء، وأحلام الفقراء لا تتداخل، أليس كذلك؟

لاحظ، يحلم الفقراء طوال حياتهم بالحصول على ما يكفيهم مـن الأكل، وأن يظهروا بمظهر الأغنياء. أمـا الغني، فما الذي يحلم به؟

أن يفقد وزنه وأن يبدو كالفقير.

كل يـوم، يتحول الفناء حول أبـراج بكنغهام المنطقة «ب» إلى ملعب للرياضة. رجال بأوزان ثقيلة وكروش متهدلة، ونساء بأوزان أثقل وكروش متهدلة أكثر، يمارسون رياضة المشي المسائية وقد ظهرت تحت آباطهم دوائر من العرق.

لاحظ، من فرط تلك السـهرات في الحفـلات الليلية، ومن فـرط ذلـك الأكـل والشـرب، يـزداد وزن الأغنياء في دلهـي. لذا يمشون حتى يُنقصوا من أوزانهم.

الآن، أين يمكن للإنسان أن يمارس رياضة المشي؟ في الخارج، عند النهر، داخل الحدائق العامة، حول الغابات.

علـى كل حال، فـي اسـتعراض لعبقريتهم المعهـودة، في تخطيـط المدن بنى أغنيـاء دلهي هذا الجزء مـن غورغاون مـن دون حدائق عامة، أو مروج، أو ملاعب، فقط بنوا مراكز للتسـوق، وفنادق، وأيضا مباني. لقد كانـت هناك الأرصفة، ولكـن هذه أيضا كانت للفقراء ليعيشـوا عليها. فإن أردت أن تمارس رياضة المشي، عليك حينئذ أن تمارسها حول مجمعك السكني الإسمنتي.

في أثناء مشيهم حول المبنى جعل المتكدسون بالشحم، خدمهم الهزيلين - أغلبيتهم من الســـائقين - يقفــون في نقاط متفرقة حول المبنـــى وهم يحملون قنانـــي المياه المعدنيـــة وفوَطا نظيفة في أيديهم. في كل مـــرة يكملون دورة حول المبنى، يتوقفون عند الخادم وينتزعون القنينة من يده ويجرعون الماء منها، ثم يأخذون الفوطة منه ويمســـحون العرق من وجوههم، ثـــم يبدأون الدورة الثانية حول المبنى.

كان السائق ذو الشفة المصابة بالبهاق واقفا عند زاوية المبنى مع قنينة وفوطة سيده المبللة بالعرق. وبين لحظة وأخرى، يلتفت إليَّ وعيناه تشـــعان. ســـيده، صاحب مصانع الفـــولاذ الذي كان أصلع الرأس قبل أسبوعين، يمارس الرياضة بشعر أسود كثيف، لقد قام بتركيب شـــعر مســـتعار كلفه كثيرا من المال سافر لأجل إنجازه إلى إنجلترا.

كان الشعر المســـتعار هو موضوع النقاش الرئيسي في جلسة القردة هذه الأيام، عرض الســـائقون عشر روبيات على السائق ذي الشـــفة المصابة بالبهاق ليلجـــأ إلى الحيلة القديمة، وهي أن يقود السيارة بأقصى ســـرعة، ثم يكبح السرعة فجأة، أو يسرع بالســـيارة على حفرة في الأرض حتى يسقط شعره المستعار مع نزول السيارة في الحفرة، ولو مرة واحدة.

كانت أســـرار الأسياد تُفشـــى وتحلل بينهم كل مساء بواسطة مجموعة القردة، وعلى رغم ذلك، لو جعل أي أحد منهم موضوع طلاق سيدي موضوعا للمناقشة، كان يعلم مسبقا أنه سيصطدم بي. لم أسمح لأي شخص بأن ينتهك خصوصية السيد آشوك.

كنت واقفا على بعد عدة أقدام من السائق ذي الشفة المصابة بالبهاق، مع قنينة المياه المعدنية في يدي وفوطة سيدي المبللة بالعرق على كتفي.

كان السيد آشوك على وشك الانتهاء من دورته، كنت أستطيع أن أشم رائحة عرقه مُقبلة عليَّ. كانت هذه دورته الثالثة. أخذ القنينة وشرب، ثم مسح وجهه بفوطته، وعلقها ثانية على كتفي.

«انتهيت من الرياضة، يا بالرام. خذ القنينة والفوطة إلى الشقة».

«حاضر، سيدي،» قلت هذا وأنا أراقبه يدخل في المبنى الذي فيه الشقة. يقوم السيد آشوك برياضة المشي مرة أو مرتين في الأسبوع، ولكن من الواضح أنه لم يكن كافيا لكي يعوض الضرر المتأتي من ليالي الفجور، رأيت كرشا كبيرا يعتصر في قميصه ذي الأكمام القصيرة. كم كان مظهره مثيرا للاشمئزاز هذه الأيام.

أشَّرت للسائق ذي الشفة المصابة بالبهاق قبل أن أنزل إلى موقف السيارات.

بعد عشر دقائق، شممت عرق صاحب مصنع الفولاذ وسمعت صوت خطواته. أتى السائق ذو الشفة المصابة بالبهاق إلى موقف السيارات. استدعيته إلى الهوندا سيتي، لم يعد هناك مكان أشعر فيه بالأمان أكثر منه.

«ما الأمر، يا فأر الريف؟ أتريد مجلة أخرى؟».

«ليست هذه. أريد شيئا آخر».

جلســـت على وركي، جاثمـــا بقرب إحدى عجـــلات الهوندا سيتي. بدأت أقشر الخطوط المتآكلة من الإطار المطاطي للعجلة بأظافري. انحنى الســـائق ذو الشـــفة المصابـــة بالبهاق وجلس القرفصاء بجانبي أيضا.

كشفت له رســـغي مربوطا بتلك الخصلة من الشعر الذهبي، كأنها إسوارة ألبسها للذكرى. قرَّب رسغي من أنفه وحك الخصلة بين أصابعه، وشمَّها، ثم أنزل رسغي.

«لا بأس». غمز بعينه. «قلت لك من قبل إن ســـيدك سيشعر بالوحدة».

«لا تتكلم عنه!» قبضتُ على عنقه. أبعدني عنه بهزة.

«هل جننت؟ حاولت أن تخنقني!».

رحت أقشـــر الخطوط المتآكلة عن الإطـــار المطاطي للعجلة بأظافري مرة ثانية. «كم يكلّف هذا الشيء؟».

«مـــن الطبقة العالية أم من الطبقة المنخفضة؟ عذراء أم غير عذراء؟ إن طلبك يعتمد على كل هذه المواصفات».

«لا يهـــم. يجـــب أن تكون بشـــعر ذهبي كاللواتـــي نراهن في دعايات الشامبو».

«أرخصهن بعشرة آلاف أو اثني عشر ألفا».

«إن هـــذا لكثيـــر. لن يدفـــع أكثر من أربعة آلاف وســـبعمائة روبية».

«ستة آلاف وخمسمائة، يا فأر الريف. هذا أرخص ثمن لدي. علينا أن نضع اعتبارا للون الأبيض».

«حسنا».

«متى يريدها، يا فأر الريف؟».

«سأخبرك. عما قريب. لدي سؤالٌ آخر، أريد أن أعرف شيئًا آخر».

وضعت وجهي على العجلة واستنشقت الجلد، لاكتساب القوة.

«كم من وسيلة يمكن للسائق اللجوء إليها ليخدع سيده؟».

* * *

سيد جياباو، أنا على دراية بأنه من السمات العامة للكتب التجارية المغلفة بورق السوليفان وجود عرض «موجز» عن محتواها. في هذه المرحلة من قصتي، وحتى أرفع عنك عناء الرتابة، أود أن أُدرج «الموجز» الخاص بي في سرد نمو المقاولة الحديثة وتطويرها.

كيف يجني السائق المقدام نقودا إضافية؟

١ - عندما يكون السيد غائبا يشفط السائق البترول من خزَّان وقود السيارة بقمع ويبيعه.

٢ - حينما يطلب السيد من السائق أن يأخذ السيارة للتصليح، يمكن للسائق أن يلجأ إلى ميكانيكي سيارات فاسد، وحينها سيرفع الميكانيكي سعر التصليح، ومن ثم يحصل السائق على حصته من هذه الزيادة. القائمة الآتية هي لبعض المقاولين الميكانيكيين الذين يقدمون المعونة للمقاولين السائقين:

- الميكانيكيون المحظوظون، في منطقة لادو، بالقرب من منطقة قطب.

- ر. ف. للتصليحات، في كاليش الكبرى، الجزء الثاني.

- ميكانيكي نيلوفر، د. ل. ف المرحلة الأولى، في غورغاون.

٣ - عليه أن يدرس عادات سيده، وبعدها يسأل نفسه: هل سيدي مهمل؟ إذا كان الجواب نعم، ما هي الجوانب التي يمكنني أن أستفيد منها جراء هذا الإهمال؟ على سبيل المثال، إن كان سيده يترك قنينة المشروب الإنجليزي فارغة بالسيارة، فيمكنه أن يبيع القناني إلى الذين يهرّبون الخمور. قنينة جوني ووكر بلاك هي الأعلى قيمة للبيع بالتجزئة.

٤ - مع ازدياد خبرة السائق وثقته وزيادة رغبته في تجربة شيء آخر فيه بعض المجازفة، حينها يمكنه أن يحوّل سيارة سيده إلى سيارة أجرة ويشتغل عليها لحسابه الشخصي. الطريق بين غورغاون ودلهي ممتاز لهذا الغرض؛ كثير من العشّاق يأتون لرؤية حبيباتهم اللواتي يشتغلن في مراكز الاتصالات. وبمجرد أن يتأكد السائق المقاول من أن سيده لن يلاحظ غياب السيارة - وأنه ليس هناك أي احتمال لوجود أحد من أصدقائه في هذا الوقت على الطريق - يمكنه أن يأخذ السيارة في وقت فراغه ويطوف في الطريق، لأخذ الزبائن الذين يدفعون الأجر في سيارته وتوصيلهم.

* * *

نمتُ داخل الناموسية طوال الليل، والمصباح مازال ينير في غرفتي، أراقب الصراصير الداكنة تزحف إلى الشبكة، قرونها الاستشعارية تهتز وترتعش، مثل أطراف أعصابي: وأنا مستلق على سريري ومهتاج إلى درجة أني لم أكترث بسحق أي منها. طار أحدها وهبط مباشرة فوق رأسي.

كان يجب أن تطلب منهم مبلغا من المال حين أجبروك على التوقيع على تلك الورقة، مبلغا يكفي لمصاحبة عشرين من تلك الشقراوات. طار صرصور وأتى آخر ليحل مكانه.

عشرين؟

لا بل مائة، مائتين. ثلاثمائة، ألفا، عشرة آلاف من بائعات الهوى ذوات الشعر الذهبي. حتى هذا ليس كافيا. ليس كافيا ليكون بداية للصفقة.

خلال الأسبوعين التاليين، قمت بأعمال أخجل من الاعتراف بها. لقد خدعتُ سيدي. شفطتُ البترول من سيارته، وأيضا أخذت سيارته إلى ميكانيكي مخادع حرر فاتورة لأجرة تصليح شيء لم يكن من الضروري أن يقوم به؛ وكذلك في أثناء عودتي إلى بكنغهام «ب»، قمت بتوصيل رُكَّاب يدفعون لي أجرة التوصيل، كررت هذا ثلاث مرات على التوالي.

الشيء الغريب في الأمر أنني في كل مرة كنت أنظر فيها إلى النقود التي كنت أجنيها من جراء خداعي لسيدي، بدلا من أن أشعر بالذنب، أتعرف ما الذي كنت أشعر به؟

الغضب.

كلما سرقتُ منه أكثر، تبين لي أن ما سرقه مني كان أكثر.

لنعد إلى التشبيه الذي كنت أستخدمه سابقا عند وصف السياسيين الهنود، لقد أصبح لي كرش مثلهم أخيرا.

وفي عصر يوم أحد، عندما قال لي السيد آشوك إنه لم يعد في حاجة إليَّ في ذلك اليوم، جرعت كأسين كبيرتين من المشروب لأتزوَّد بالشجاعة، وبعدها ذهبت إلى ملجأ

الخدم(٣٤). كان السائق ذو الشفة المصابة بالبهاق يجلس تحت ملصق لممثلة سينمائية ويلعب الورق مع السائقين الآخرين.

«حسنا، يمكنك أن تقول أي شيء تحب، لكنني على يقين من أن هؤلاء الأشخاص الهزليين لن يفوزوا حين إعادة الانتخابات».

نظر إلى الأعلى ورآني واقفا.

«انظر من أتى إلى هنا. معلم رياضة اليوجا، يزورنا زيارة فريدة من نوعها. مرحبا بك، هذا شرفٌ لي، يا سيدي».

كشفوا لي أسنانهم. وكشفت لهم بدوري عن أسناني.

«كنا نناقش الانتخابات، يا فأر الريف. أنت تعلم، الانتخابات هنا ليست كمثيلاتها في «الظلام». الانتخابات هنا لا تزوَّر. هل ستدلي بصوتك هذه المرة؟».

استدعيتهُ بإشارة من إصبعي.

هز رأسه. «فيما بعد، يا فأر الريف، إني أستمتع كثيرا هنا ونحن كما ترانا نناقش الانتخابات الآن».

لوحت له بالظرف البني. وضع أوراق اللعب التي في يده على الأرض فورا.

كنت مصرا على أن أجعله يسير حتى موقف السيارات، عدَّ النقود هناك في ظل الهوندا سيتي.

«جيد، يا فأر الريف. وأين سيدك؟ هل ستصطحبه إلى هناك».

«أنا سيد نفسي».

---

(٣٤) تعمد الكاتب تقسيم كتابة كلمة مأوى إلى Dormi التي تعني السبات في الفرنسية والإسبانية، وكلمة Tory يقصد المحافظين المحبين للتقليدية بالمصطلح العامي. ويقصد بذلك التهكم والسخرية من وضع الخدم في الهند [المترجم].

لم يستوعب ما قلته. وسرعان ما سقط فكه السفلي، هرع نحوي وضمني إليه. «يا فأر الريف!» ضمني إليه مرةً أخرى. «يابطلي!».

لقد كان هو أيضا من «الظلام»، وغالبا ما يشعر الناس هناك بالفخر عندما يرون أحدا منهم يظهر بعض الطموح.

أخذني في سيارة سيده من نوع كاليس إلى الفندق، شارحا لي في الطريق كيف أنه في غياب سيده يحول السيارة إلى سيارة أجرة غير مرخصة.

إن الفندق ضمن مشروع التوسعة الجنوبي، القسم الثاني، وهذا الطريق به أرقى مراكز التسوق في دلهي. أغلق السائق ذو الشفة المصابة بالبهاق أبواب سيارة الكاليس، ابتسم بثقة، ومشى معي إلى مكتب الاستقبال في الفندق. كان هناك رجلٌ يرتدي قميصا أبيض وربطة عنق سوداء اللون، مرر إصبعه على لائحة طويلة من الأسماء في سجل تدوين أسماء الزبائن، ترك إصبعه على السجل، نظر إليَّ بينما كان السائق ذو الشفة المصابة بالبهاق يشرح له شيئا في أذنه.

هز المدير رأسه: «امرأة ذات شعر ذهبي له؟».

وضع يديه على المكتب وانحنى لكي يتمكن من رؤيتي من أخمص قدمي إلى قمة رأسي.

«له هو؟».

ابتسم السائق ذو الشفة المصابة بالبهاق.

«انظر، إن أغنياء دلهي يتخذون ما يحلو لهم من النساء ذوات الشعر الذهبي، من يدري ما الذي يريدونه بعد ذلك؟ النساء

ذوات الشـــعر الأخضر من القمر؟ أما الآن فقد أتى دور الطبقة العاملة للاصطفاف للحصول على النسـاء البيضاوات».

«إن هذا الشـــخص ســـيكون زبونك المميز في المستقبل، أنا أؤكد لك ذلك، فعامله معاملة خاصة أرجوك».

لم يكن المدير واثقا لبعض الوقت؛ أغلق السجل بعصبية، ومدَّ لـــي كفه مفتوحا: «أعطني خمســـمائة روبية إضافية». وضحك. «ضريبة إضافية للطبقة العاملة».

«ليس معي هذا المبلغ!».

«أعطني خمسمائة، وإلا فانس الموضوع».

أخرجت ثلاثمائة روبية التي ظلت معي. أخذ النقود وســـوَّى ربطـــة عنقه، ثم صعد الدرج. ربتَ الســـائق ذو الشـــفة المصابة بالبهـــاق على كتفي وقال: «حظا ســـعيدا، يا فـــأر الريف، اجعله لأجلنا جميعا!».

صعدت الدرجات مسرعا.

الغرفـــة رقم ١١٤ أ. كان المدير واقفا عند الباب، ملصقا أذنه عليه. همس: «أنستازيا؟».

طرق على الباب، ووضع أذنه عليه مرة أخرى وقال: «أنستازيا، هل أنت هنا؟».

فُتـــح باب الغرفـــة. كانت هناك ثريا معلقة، ونافذة، وســـرير أخضر اللون، وفتاة بشعر ذهبي جالسة على السرير.

تنهدتُ حســـرة لأنها لم تكن تشبه كيم باسينجر بأي شكل من الأشـــكال. ولا حتى بنصف جمالهـــا. صدمت - بدرجة لا أتذكر أنـــي صُدمت بصدمـــة مثلها من قبل - كيـــف أن الأغنياء دائما

يحصلــون على الأجود في الحيــاة، وكل الذي نحصل عليه نحن هو فضلاتهم.

رفــع المدير كفيه إلى وجهــي ثم فتحهمــا وجمعهما، ثم قام بالحركة نفســها ثانية كأنه يقول لي إن الوقت المخصص لي هو عشرون دقيقة.

عشرون دقيقة.

محدثا حركة الطرق على البــاب بقبضته أتبعها بحركة ركلة من حذائه الأسود اللامع.

«فهمت؟».

هذا الذي سيحصل لي بعد عشرين دقيقة.

«نعم».

صفق الباب. مازالت المرأة ذات الشعر الذهبي تشيح بوجهها عني.

استجمعت ما عندي من الشجاعة لأجلس بجوارها بينما بدأ الطرق على الباب.

«عندما تسمع هذا يكون الوقت قد انتهى! فهمت؟».

كان هذا صوت المدير.

«حسنا!».

دنوت أكثــر من المرأة وهي على الســرير. لــم تقاومني ولم تشــجعني. لمست خصلة من شــعرها وســحبتها برفق لأجعلها تلتفت باتجاهي. كانت تبدو متعبــة، ومنهكة القوى. كانت بعض الكدمات حول عينيها، كأن أحدا قد خدشها.

ابتســمتْ ابتســامة عريضة، أعرف هذه الابتســامة جيــدا،

إنها ابتسامة الخادم للسيد.

«ما اسمكَ؟» سألتني باللغة الهندوستانية.

هذه أيضا.

أقسم إنه في ذلك البلد، «أوكرانيا» لديهم مدارس للبنات تدرّس اللغة الهندوستانية!

«مونّا».

ابتسمتْ. «هذا ليس اسما حقيقيا. إنه يعني «ولد» فقط».

«هذا صحيح. لكنه اسمي الحقيقي». قلت لها. «لم تطلق عليَّ أسرتي اسما آخر».

بدأت تضحك بنبرة عالية، ضحكة فضية جعلت رأسها ذا الشعر الذهبي يهتز من أعلى إلى أسفل. كان قلبي يخفق كقلب حصان. وعطرها نفذ فورا إلى عقلي.

«أتدري، عندما كنت طفلة، سميت باسم معناه «بنت» فقط. أسرتي فعلت الشيء نفسه معي!».

«يا إلهي،» قلت هذا وأنا أجمع ساقيَّ فوق السرير.

تحدثنا. أخبرتني أنها تكره البعوض في هذا الفندق، والمدير، وأومأت لها برأسي. واسترسلنا في الحديث على هذا المنوال بعض الوقت، ثم قالت: «أنت لا تبدو شخصا دميما، بل إنك ظريفٌ جدا،» وراحت تمرر أصابعها خلال شعري.

إلى هنا، قفزت من السرير. وقلت: «لماذا أنت في هذا المكان، يا أختي؟ إذا كنت تودين مغادرة الفندق، فلمَ لا تفعلين ذلك؟ دعك من المدير. أنا هنا لأحميك! أنا أخوك، بالرام حلوائي!».

بالتأكيد، قلت لها هذا، لكن في الفيلم الهندوستاني الذي

سيصورونه عن حياتي.

«سبعة آلاف من الروبيات العزيزات لأجل عشرين دقيقة! آن الأوان لكي أبدأ».

هذا بالضبط ما قلته في الواقع.

تركت يدي الأخرى تتخلل خصلات شعرها الذهبي.

فجأة، أطلقت صرخة مدوية. لم أكن سأطلق صرخة أقوى منها لو أنهم وضعوا أمامي سحلية.

«ماذا دهاك، مونّا؟» سألت.

قفزت من السرير وصفعتها.

في اللحظة نفسها، كأن المدير كان واقفا هناك طوال الوقت لاصقا أذنه بالباب، وقد ارتسمت ابتسامة على شفتيه. فتح الباب فجأة، ودخل الغرفة.

«هذا» صرخت في وجهه، وأنا أسحب الفتاة من شعرها، «ليس لونا ذهبيا حقيقيا».

كانت جذور شعرها سوداء اللون! من الواضح أنها عملية صباغة لا غير.

هز كتفيه لا مباليا: «ما الذي تتوقع أن تحصل عليه بسبعة آلاف فقط؟ إن الحقيقي يكلف أربعين أو خمسين ألف روبية».

وثبَتُ عليه وأمسكت ذقنه بيدي، ثم قذفتُ به نحو الباب. «أعد إليَّ نقودي!».

أطلقت المرأة صرخة من خلفي.

التفتُ إلى الوراء. هذه كانت الغلطة التي ارتكبتها. كان عليَّ أن أتخلَّص منه في اللحظة نفسها وفي المكان نفسه.

بعد عشـــر دقائق، خرجتُ من الباب الأمامي مترنحا، بوجه ملؤه الكدمات والخدوش وأُغلقَ الباب ورائي بعنف.

لم ينتظرني السـائق ذو الشـفة المصابة بالبهاق. اضطررت إلى أن أعـود إلى أبراج بكنغهام مسـتقلا الحافلة، كنت أفركُ رأسـي طوال الوقت. سـبعة آلاف روبيـة، أردتُ أن أبكي! هل تعلم كم من الجواميس المائية كان بالإمكان أن تُشـترى بكل هذا المبلغ؟ أنا أشعر بأصابع جدتي تلوي أذني.

وصلت إلى أبراج بكنغهام أخيرا - بعد سـاعة كاملة قضيتها في الطريق المزدحم - غسـلت جرح رأسي في المغسلة العامة، وبصقت عشـرات المرات. ليذهب كل شيء إلى الجحيم، وصرت أحك أعلى فخـذي. كنت في حاجة إلى هذا، لا يهمني شـيء الآن. ومشـيت متكاسلا إلى غرفتي، رفستُ الباب ودخلت، وتجمدّتُ في مكاني.

كان شـخص ما جالسا داخل الناموسية. رأيت هيئة في وضعية اللوتس.

«لا تقلق، بالرام. أنا أعلم ما الذي كنت تفعله».

صوت رجل. لا بأس، على الأقل لم تكن جدتي، كانت هذه الفكرة الأولى التي طرأت لي.

رفع السيد آشوك زاوية من الشبكة ونظر إليَّ بابتسامة ماكرة.

«أنا أعلم بالضبط ما الذي كنت تفعله».

«سيدي؟».

«كنـت أنـادي عليـك، ولكنك لم تجـب. لذا نزلـت لأراك. وعرفت بالضبط ما الذي كنت تفعله... ذلك السائق ذو الشفتين الورديتين، أخبرني».

خفق قلبي. نظرت إلى الأرض.

«أخبرني أنك كنت في المعبد، تصلي من أجل صحتي».

«أجل سـيدي،» قلت هذا والعرق يتصبب من وجهي متنفسا الصعداء. «هذا صحيح، سيدي».

«تعالَ إلى داخل الشـبكة،» قال بصوت حان. دخلت وجلست إلـى جانبه في الناموسـية. كان ينظر إلى الصراصير تمشـي فوقنا.

«أنـت تعيـش في هـذه الحـفرة، بالـرام. لـم أكـن أعلم. أنا آسف».

«لا عليك، سيدي. أنا قد تعودت على ذلك».

«سأعطيك بعض النقود، بالرام. اذهب واسكن غدا في مكان أحسن من هذا. أسمعتني؟».

أمسـك يدي وقلَّبها. «بالرام، ما هذه العلامات الحمراء على كفك؟ هل كنت تقرص نفسك؟».

«لا، يا سـيدي... إنه مرضٌ جلـدي. موجود أيضا وراء أذني هنا - أترى - كل تلك البقع الحمراء؟».

اقترب منـي، فامتلأ أنفي بعطره. أحنى طرف أذني بإصبعه برفق وتفحص البقع.

«يـا إلهي. أنا لم ألاحظ هـذا قط. إني أجلسُ كل يوم وراءك مباشرة في السيارة ولم ألاحظه أبدا».

«كثير من الناس مصابون بهذا المرض، سيدي. كثير من الناس الفقراء».

«حقا. أنا لم ألاحظ. هل يمكنك علاجه؟».

«كلا، سيدي. أمراض الفقراء لا علاج لها. كان والدي مصابا بداء السل ومات بسببه».

«إنه القرن الحادي والعشرون، يا بالرام. لكل مرض علاج. اذهب إلى المستشفى وعالجه. ثم أرسل إلي فاتورة العلاج، وسأدفعها لك».

«شكرا لك، سيدي». وقلت له بعد ذلك: «سيدي... هل تريدني أن آخذك إلى مكان ما في المدينة؟».

فتح شفتيه ثم أغلقهما من دون أن يصدر منه أي صوت. كرر هذه الحركة مرتين، ثم قال: «الأسلوب الذي أتخذهُ في حياتي غير سليم، بالرام. أنا أعرف هذا، ولكني لا أملك الشجاعة الكافية لأغيّر حياتي. أنا لا أملك... الرجولة الكاملة».

«لا تفكر في هذا كثيرا، سيدي. هيا، سيدي، لنترك هذا المكان، أنا أتوسل إليك. هذا ليس بالمكان المناسب لمقامك».

«لقد جعلتُ الناس يستغلونني، بالرام. لم أقم طوال حياتي بعمل شيء مما كنت أود أن أحققه لنفسي. طوال حياتي...».

تراخى رأسه، وبدا جسمه مرهقا ومنهكا.

«عليك أن تأكل شيئا، سيدي. أنت تبدو متعبا».

ابتسم ابتسامة طفل صغير واثق.

«أنت تفكر فيَّ دائما ، بالرام. نعم، أنا أود أن آكل. لكنني لا أريد أن أذهب إلى أي فندق، بالرام. لقد سئمتُ الفنادق. أريد أن أكون رجلا بسيطا مثلك أنت، يا بالرام. خذني إلى الأماكن التي تذهب إليها لتناول طعامك بالرام».

سيدي.

مشينا إلى الخارج، وقدته عبر الشارع إلى محل الشاي.

«اطلب الطعام لنا، بالرام. اطلب طعام الشعبيين».

طلبت بامية، وقرنبيطا، وفجلا، وسبانخ، والعدس. كمية من الطعام تكفي لعائلة بأكملها، أو لفرد غني واحد فقط.

لقد أكل وتجشأ ثم أكل ثانية.

«هذا الطعام رائع. ويكلف فقط خمسا وعشرين روبية! أنتم تأكلون بشكل جيد!».

لما انتهى من الأكل طلبت له لاسي[٣٥]، أخذ منها رشفة، وابتسم. «أحب أطعمتكم!».

ابتسمت وفكرت، وأنا أيضا أحب أطعمتكم.

* * *

«أوراق الطلاق ستكون جاهزة قريبا. هذا ما قاله لي المحامي».

«حسنا».

«هل لنا أن نبدأ البحث؟».

«عن محام آخر؟».

«لا، عن فتاة أخرى؟».

«مازال الوقت باكرا، موكيش. لقد انقضت ثلاثة أشهر فقط على رحيلها».

لقد أخذتُ السيد آشوك إلى محطة القطار. إن أخاه «النمس» قد أتى مرة أخرى إلى المدينة من دهانباد. والآن أنا أعود بهم إلى الشقة.

(٣٥) مشروب بارد يعد من اللبن الرائب ويكون بنكهاتٍ مختلفة [المترجم].

«لا بأس، خذ وقتك. لكن عليك أن تتزوج مرة أخرى. إن بقيت مطلقا، فلن يحترمك الناس وبالتالي لن يحترمونا جميعا. هكذا تسير الأمور في هذا المجتمع، استمع إليَّ الآن. إنك لم تستمع إلينا في المرة الأخيرة، وتزوجت امرأة من خارج طائفتنا ومن خارج ديننا، حتى إنك لم ترض أن تطلب المهر من والديها. هذه المرة سنختار نحن لك الفتاة».

لم أسمع شيئا. استطعت أن أستنتج أن السيد آشوك كان غاضبا، لقد سمعت صرير أسنانه مثلا.

«يبدو لي أنك» قال له «النمس» «سنتكلم عن هذا فيما بعد. أما الآن، خذ هذه». ناولهُ أخوه حقيبة حمراء اللون كان قد أتى بها من دهانباد.

فتح السيد آشوك الحقيبة وألقى نظرة إلى محتواها، أغلق «النمس» الحقيبة على الفور محدثا صوتا عنيفا.

«هل أنت معتوه؟ لا تفتحها هنا في السيارة. إنه لموكيشان. الرجل البدين. المساعد. أنت تعرفه، أليس كذلك؟».

«أجل، أعرفه». هز السيد آشوك كتفيه بازدراء. «ألم ندفع لهؤلاء الأوغاد منذ وقت قريب؟».

«يريد الوزير المزيد. إنها فترة الانتخابات. في كل انتخابات ندفع نقدا. غالبا لكلا الطرفين، ولكن هذه المرة ستفوز الحكومة بلا منازع. إن وضع المعارضة اليوم في فوضى عارمة. لذا علينا أن ندفع للحكومة فقط، وهو الأحسن لنا. سأصحبك في المرة الأولى، لكن المبلغ كبير، ربما عليك أن تذهب له مرتين أو ثلاثا. وهناك اثنان من الموظفين الحكوميين علينا أن نرشوهما لتسهيل

سير الأمور. أفهمت؟».

«يبدو أن هذا هو الشيء الوحيد الذي عليَّ أن أقوم به هنا في دلهي. أسحب المال من المصرف وأرشو الناس. ألأجل هذا عدتُ إلى الهند؟».

«لا تسخر، ولا تنس أن تطلب منهم أن يعيدوا لك الحقيبة في كل مرة. إنها حقيبة جيدة صناعة إيطالية. ليس هناك داع لتقدم لهم هدايا إضافية. أتفهم؟ أوه. إنه الجحيم يا لهذا الازدحام المروري المزعج».

«بالرام، أسمعنا موسيقى ستنغ(٣٦). إنها أفضل موسيقى في هذا الازدحام المروري».

«هل يعرف هذا السائق من هو ستينغ؟».

«من المؤكد، إنه يعرف أنه القرص المدمج المفضل لدي. أرنا القرص المدمج لستينغ، بالرام. انظر، انظر، إنه يعرف ستينغ! وضعته في المسجل.

مرت عشر دقائق، ولم تتحرك السيارات حتى لمسافة بوصة. غيَّرت موسيقى ستينغ لموسيقى إينيا(٣٧) ومنها إلى إمينيم(٣٨)، أتى الباعة الجوالون إلى السيارة بسلات من البرتقال، وعلب بلاستيكية فيها الفراولة، أو بجرائد، أو روايات إنجليزية.

---

(٣٦) موسيقار إنجليزي مشهور من مواليد ١٩٥١، كاتب أغاني، ومنظم لموسيقى الروك في فرقة البوليس. حاز عدة جوائز على أدائه المميز في الموسيقى [المترجم].

(٣٧) مطربة إيرلندية من مواليد ١٩٦١، لها صوت مميز بطبقاته المتعددة. تغني بعدة لغات تصل إلى عشر لغات. حازت العديد من الجوائز ومنها جائزة جرامي. في ٢٠٠٩ وصلت مبيعات ألبومها إلى ٢٦ مليون دولار في الولايات المتحدة فقط [المترجم].

(٣٨) فنان أمريكي اشتهر بأداء موسيقى الراب. صنِّف على أنه أحد أحسن الفنانين الموسيقيين من بين ١٠٠ فنان عالمي. حصل على ١١ جائزة جرامي. مبيعات ألبوماته في تزايد مستمر [المترجم].

ثم أتانا هجوم كامل من المتسولين أيضا. كان أحدهم يحمل الآخر على كتفه وينتقل به من سيارة إلى أخرى، الشخص المحمول على الكتفين كان بلا ساقين من أسفل ركبتيه. ذهبا من سيارة إلى أخرى، الشخص المبتور الساقين يئن ويتأوه والآخر يضرب أو يخدش نوافذ السيارة.

من دون أي تفكير، أنزلتُ زجاج نافذة السيارة، فتصدَّعتْ البيضة الداكنة «الهوندا سيتي». ومددت له يدي واضعا روبية واحدة في يده، أخذها الشخص المبتور الساقين وألقى عليَّ تحية شاكرا. رفعت زجاج النافذة وانغلقت البيضة.

توقف الحديث في المقاعد الخلفية فورا.

«من بحق الجحيم قال لك أن تفعل هذا؟».

«أنا متأسف، سيدي».

«لماذا بحق الجحيم أعطيت هذا المتسول روبية؟ يا لك من وقح! أوقف الموسيقى».

لقد وبخاني كثيرا ذلك المساء. مع أنهما كانا عادة ما يتكلمان بخليط من الهندوستانية والإنجليزية، بيد أن الأخوين استخدما هذه المرة الهندوستانية المهذبة، كان ذلك في مصلحتي.

قال المجرم الأكبر: «ألسنا ندفع النقود كل مرة نذهب فيها إلى المعبد؟ نحن نتبرع كل سنة لمعهد السرطان. وأنا أشتري تلك البطاقات التي يبيعونها أطفال المدارس».

ثم أردف المجرم الأصغر: «بالأمس كنت أتحدث إلى المحاسب الخاص بنا فقال: سيدي، لا توجد لديك نقود في المصرف.. كلها نفدت». أتعلم كم أصبحت الضرائب باهظة في هذا البلد؟

إذا أنفقنا أموالنا بهذه الطريقة، فمن أين لنا المال لنأكل؟».

ما صعقني حينها هو أنه لا يوجد فرق بين الاثنين. كانا كلاهما بذرة أب واحد.

فيما تبَقى من المسافة إلى الشقة، ظل «النمس» محدقا بصره إلى مرآة الرؤية الخلفية. كان يبدو كأنه قد شمَّ شيئا غريبا.

عندما وصلنا إلى بكنغهام ب قال لي: «اصعد إلى فوق، بالرام».

«حاضر، سيدي».

وقفنا جنبا إلى جنب في المصعد. عندما فتح باب الشقة، أشار إلى الأرض. «استرح هنا».

جثمت أسفل صورة كودلز وبودلز ووضعت يدي بين ركبتي. جلس هو على الكرسي، وأراح وجهه على راحتيه، وبدأ يحملق فيَّ.

قطب حاجبيه. كان بالإمكان أن تتيقن أن هناك فكرة ما تتشكل في ذهنه.

قام من كرسيه واتجه نحو المكان الذي كنت جاثما فيه. واستند على ركبة واحدة. واستنشق الهواء.

«تفوح من أنفاسك رائحة اليانسون».

«نعم، سيدي».

«يعلك الناس هذا ليخفوا رائحة الخمر من أنفاسهم. هل بدأت تشرب؟».

«لا، سيدي. طائفتي، تحرم شرب الخمر».

مازال يشمشم ويقترب باستمرار.

أخذت نفسا عميقا، وحبسته في تجويف بطني، ثم أطلقت جشأة قوية، في وجهه مباشرة.

«هـذا مقرف، بالرام». قال والرعب يبدو عليه. وقف وتراجع خطوتين إلى الوراء.

«آسف، سيدي».

«اغرب من هنا!».

خرجت وأنا أتصبب عرقا.

في اليوم التالي، اصطحبته والسيد آشوك إلى منزل وزير أو ربما موظف حكومي في نيودلهي.

خرجا بالحقيبة الحمراء. وبعد ذلك أخذتهما إلى فندق حيث أكلا وجبة الغداء، أعطيت الإرشادات لموظفي الفندق بألا يقدموا البطاطس مع الوجبة، ثم اصطحبت «النمس» إلى محطة القطار.

تابعت تهديداته المعتادة لا مكيف في السيارة، لا موسيقى، لا إسراف في وقود السيارة، إلخ، إلخ، إلخ. وقفت على رصيف المحطة وأنا أشاهده ينتهي من أكل وجبته. عندما غادر القطار المحطة، رقصت حول الرصيف وصفقت بيدي. كان اثنان من المشردين يشاهدانني، فضحكا وصفقا بأيدهما مثلي. أحدهما غنى أغنية من فيلم هندوستاني حديث، ورحنا نرقص معا على رصيف القطار.

في صباح اليوم التالي، كنت في الشقة، وكان السيد آشوك يعبث في الحقيبة الحمراء استعدادا للخروج، عندما رن الهاتف.

قلت له: «سآخذ الحقيبة إلى السيارة، سيدي. سأنتظرك في السيارة».

ترددَ قليلا، وبعد ذلك حمل الحقيبة باتجاهي. قال «سألحق بك بعد دقيقة».

أغلقت باب الشقة. مشيت نحو المصعد، ضغطتُ على الزر وانتظرت. كانت الحقيبة ثقيلة الوزن، كنت أنقلها من يد إلى يد.

وصل المصعد إلى الدور الرابع. استدرتُ لأنظر إلى منظر المدينة من شرفة الدور الثالث عشر، كانت الأنوار تشع من مراكز الأسواق التجارية في غورغاوان، حتى في وضح النهار. هناك مركز تجاري قد افتتح في الأسبوع الماضي. وآخر كان لا يزال تحت البناء. كانت المدينة تنمو باستمرار.

كان المصعد يعلو إلى الأدوار العليا بسرعة. كان على وشك أن يصل إلى الدور الحادي عشر.

استدرتُ وركضت.

ركلتُ باب سلَّم الطوارئ، وأسرعت أنزل عدة درجات من السلم المظلم، فتحت الحقيبة الحمراء.

فجأة، امتلأ المكان بضوء مشع، من النوع الذي يسطع من المال فقط.

عشرون دقيقة مضت، نزل السيد آشوك وهو يضغط على أزرار هاتفه النقال، وجد الحقيبة الحمراء بانتظاره على مقعده. رفعت القرص المدمج ذا اللون الفضي اللامع بينما هو يغلق الباب.

«أتريد أن أشغل لك موسيقى ستينغ، سيدي؟».

أثناء القيادة، كنت أحاول جادا ألا أنظر إلى الحقيبة الحمراء، كان يعتبر تعذيبا لي، تماما مثلما كنت أتعذب حينما تجلس بنكي مدام هناك بتورتها القصيرة.

عند إشـــارة المرور الحمراء، نظرت في المرآة للرؤية الخلفية. رأيت شـــاربي الكثين وفكي. لمســـت المرآة، تغيَّرت زاوية الصورة، الآن أرى حاجبين طويلين وجميلين، ينحنيان على جانبي عضلات الحاجب، عينا قط يريد أن ينقض على فريسته.

فليتشـــبع ناظراك برؤية الحقـيبة الحـمراء، يا بالـرام - إنها لا تُعد سرقة، أليس كذلك؟

هززت رأسي بالنفي.

وحتـــى إن كنت بصدد ســـرقتها، يـــا بالرام، لـــن تكون هذه سرقة.

كيف لا تكون سرقة؟ نظرت إلى ذلك المخلوق في المرآة.

لاحظ، يعطي السيد آشـــوك المال لكل أولئك السياسيين في دلهي لكي يجنب نفســـه دفع الضرائب الملزم بدفعها. ومن يملك هـــذه الضريبة في نهاية المطاف؟ من ســـوى الناس العاديين من هذا البلد، أنت.

ما الأمر، يا بالرام؟ هل قلت شيئا؟

نقـــرت المـــرآة بإصبعي. ظهر شـــاربي في المرآة مـــرة ثانية، واختفت العينان، وبدا الآن فقط وجهي الذي يحملق فيّ.

«هذا السائق الذي أمامي يقود بطريقة متهورة، سيدي، كنت فقط أتذمر منه».

«احتفظ بهدوئك، بالرام. أنت سائقٌ جيد، لا تجعل هؤلاء السيئين ينالون منك».

كانت المدينة تعرف سري. صباح ذات يوم، غطت السحب الملوثة منزل الرئيس، فبدا كأن لم يكن حكومة في دلهي ذلك اليوم. والتلوث الكثيف الذي كان يخفي وراءه رئيس الوزراء وجميع الوزراء والموظفين الحكوميين قال لي:

لن يروا شيئا مما ستفعله. أؤكد لك هذا.

مررت بجانب الجدار الأحمر لمبنى البرلمان. كان حارسٌ يحمل بندقية يراقبني من أعلى برج المراقبة المنصوب على الجدار، وضع بندقيته جانبا بمجرد رؤيته لي.

لماذا أوقفك؟ كنت سأقوم بالشيء نفسه لو كنت أستطيع ذلك.

في تلك الليلة، كانت امرأة تمشي ومعها كيس من السوليفان؛ انعكس نور المصابيح الأمامية للسيارة على الكيس فأصبح شفافا. رأيت أربعا من الفواكه الكبيرة الداكنة وكل واحدة منها قالت لي أنت قد فعلت ما تبتغي. وفي قلبك أنت قد أخذتها. تحركت السيارة وتجاوزت الأنوار الأمامية فتحول لون الكيس قاتما واختفت منه الفواكه.

حتى الطريق - السلس المعبَّد اللامع، الذي يعتبر من أرقى الطرق في دلهي - كان يعرف سري.

في ذات يوم عند إشارة المرور، أنزل السائق في السيارة المجاورة زجاج النافذة وبصق خارج السيارة: كان يمضغ البان وعلى أثره تكونت بركة صغيرة حمراء اللون من بصاقه على

الطريق الســاخن فتيبس مثل شـــيء حي يفرش ثم يُشوى. بعد لحظات، بصــق مجددا. وتكونت الآن بركتـــان من البصاق على الطريق. أمعنت النظر إلى البركتين الحمراوين وهما تنتشـــران على الطريق، وبعد ذلك:

بدت بركة البصاق في الجهة اليمنى تقول:	بدت بركة البصاق في الجهة اليسرى تقول:
أراد أبوك أن تكون رجلا بمعنى الكلمة	**أرادك أبوك أن تكون رجلاً أمينا**
جعلك السيد آشوك مسؤولا عن قتل زوجته الطفلة	**لم يبصق عليك السيد آشوك ويضربك مثلما كان الناس يفعلون مع أبيك**
هذا مبلغٌ زهيد. أنت تعيش في المدينة ما الذي توفره لنفسك منه؟ لا شيء	**يدفع لك السيد آشوك ٤٠٠٠ روبية شهريا. ورفع أجرك حتى من دون أن تطلب ذلك**
مجرد التفكير في أن السيد آشوك يهدد أسرتك، يجعل دمك يغلي!	**أتذكر ما الذي صنعه «الجاموس» بأسرة الخادم؟ سيطلب السيد آشوك من والده أن يفعل ذات الشيء بأسرتك إذا هربت**

أشــحت بوجهي عن بقعتي البصاق الحمراوين. ونظرت إلى الحقيبة الحمراء التي كانت قابعة في قلب مرآة الرؤية الخلفية، كأنها قلب الهوندا سيتي النابض.

في ذلك اليوم أخذت الســيد آشوك إلى فندق أمبريال، قال: «سأعود في غضون عشرين دقيقة، بالرام».

بدلا من أن أركن الســيارة في موقف الســيارات، ذهبت إلى محطــة القطار، التي تقع في منطقة بهار غانغ، ليســت ببعيدة عن الفندق.

كان النــاس هناك يســتلقون على الأرض فــي المحطة. الكلاب تستنشــق القمامة. كان الهواء فيه عفنا. إذن هكذا ســيكون الوضع هنا، فكرت. إن مقاصد القطارات جميعها مدونة على سبورة سوداء.

بيناراس

جامو

أمريتسار

مومبي

رنجي

أين ســيكون مقصدي، لــو كنت آتيا إلى هنــا وبيدي حقيبة حمراء؟

ظهرت الأنوار الســاطعة والعجلات مصقولة تشع في الظلام وكأنها تجيب عن سؤالي.

حاليا، لو ذهبت إلى أي محطة قطار في الهند، فسترى، أثناء انتظارك للقطــار، صفا من الآلات العجيبــة بمصابيح حمراء، وعجلات مشكالية، ودوائر متحركة صفراء. هذه الآلات تخبرك

عـن حظك ووزنـك، بروبية واحدة، تجدها دائمـا على أرصفة محطات القطار في البلاد.

إنها تعمل بهذا الشكل. تضع أمتعتك جانبا، تقف عليها، تضع عملة معدنية في الفتحة.

تنبض الحياة في هذه الآلات، وتتحرك الرافعات في داخلها، أشـياء تصدر ضجيجا وقعقعة، ومن ثم تشع منها أضواء مرحة. ويصـدر منها بعد ذلك صوت عال، فجأة تندفع من الآلة بطاقة صغيـرة من الـورق المقوى أخضـر أو أصفر. فتهـدأ الأضواء والأصوات. وعلـى هذه البطاقة الصغيـرة يظهر حظك وأيضا وزنك بالكيلوجرامات.

هناك صنفان من البشـر يسـتخدمان هـذه الآلات: أطفال الأغنياء، أو الراشـدون من الفقراء، وهـم الذين يبقون أطفالا مدى الحياة.

وقفـت أحملق فـي الآلات، كرجل فقد عقله. سـت من هذه الآلات كانت تسطع أنوارها باتجاهي: مصابيح بالضوء الأخضر والأصفر ومشكالات تدور وتدور باللون الذهبي والأسود.

وثَبْتُ على واحدة من الآلات. وضحَّيتُ بروبية، بلعتها الآلة، ثم أصدرت أصواتا، وصدر منها المزيد من الأضواء، وبعدها خرجت البطاقة.

شركة ميزان لونا نيودلهي ٠٥٥ ١١٠

وزنك هو:

٥٩

«احترام القانون هو وصية الآلهة الأولى».

رميت بطاقة الحظ على الأرض وضحكت.

حتى هنا، وعلى آلة قياس الوزن في محطة القطار يحاولون خداعنا. هنا، وأنت على عتبة الإنسان باتجاه الحرية، وقبل أن تستقل قطار حياتك الجديدة، تقوم آلات قراءة الحظ هذه بقرع أجراس الإنذار المعلقة على باب قن الدجاج.

أجراس الإنذار في القن كانت ترن وعجلاتها تدور والأضواء الحمراء تبعث إشارات متقطعة! وديك كان يحاول الهروب من القن! خرَجتْ يدٌ من هناك، مسكتني من رقبتي ودفعتني داخل القن ثانية.

التقطتُ البطاقة الصغيرة من على الأرض وقرأتها مرة أخرى.

بدأ قلبي يعرق. فجلست على الأرض.

فكر، بالرام. فكر ما الذي فعله «الجاموس» في أسرة الخادم؟

سمعت أجنحة ترفرف بسرعة فوقي. كان الحمام يجلس على الأعمدة حول سقف محطة القطار؛ طارت حمامتان من على أحد الأعمدة الحديد وانخفضتا حتى صارتا تحومان فوق رأسي مباشرة في دوائر بما يشبه الحركة السينمائية البطيئة، رأيت مخالبهما الحمراء منكمشة باتجاه صدريهما.

ومن مكان ليس ببعيد عني، رأيت امرأة تستلقي على الأرض، كانت مستغرقة في النوم. استطعت أن أرى ورقة نقدية من فئة روبية واحدة وقد ظهرت من شق قميصها الأخضر الفاقع.

لم يكن لديها أمتعة. كانت الروبية هي كل ما تملكه من الدنيا. مع ذلك، انظر إليها، نائمة بمنتهى الرضا، من دون أن تعير اهتماما لأي شيء في العالم.

لم لا تكون الأمور بهذه البساطة بالنسبة إليَّ؟

صوت مزعج جعلني أستدير. كان خلفي كلبٌ أسود يدور حول نفسه في دوائر. وقد ظهرت بقعة وردية اللون، جرحٌ مفتوح، تلمع على الجانب الأيسر من مؤخرته؛ كان يلتف على نفسه في محاولة لقضم الجرح. ولكن لم يكن من الممكن أن تصل أسنانه إلى جرحه، وكاد الكلب يجن من شدة الألم، وهو يحاول أن يهجم على جرحه بفمه المزيَّد، ظل يدور حول نفسه في دوائر مجنونة وغير مجدية.

نظرتُ إلى المرأة النائمة، مازال صدرها يرتفع وينخفض. وورائي الكلب الجريح يواصل محاولاته لقضم جرحه.

ذاك الأحد استأذنت السيد آشوك، للذهاب إلى المعبد، ولكنني ذهبت إلى المدينة. ركبت حافلة للذهاب إلى قُطُب. ومن هناك أخذت سيارة أجرة من طراز جيب متجهة إلى طريق ج. ب.

هذا المكان، يا سيد رئيس الوزراء، هو منطقة الأضواء الحمراء «كما يقول الإنجليز» في دلهي.

إن ساعة واحدة هنا ستصفي ذهني من الأفكار الشريرة. هناك اعتقادٌ لدينا في «الظلام»، مؤداه أنه عندما يُبقي الرجل السائل المنوي في أسفل جسده، يتحرك الشر في السوائل الموجودة في أعلى جسده.

كانت الساعة الخامســـة تماما، ومازال الوقت نهارا، غير أن النســـاء كن في انتظاري مبكرا، كما كـــن في انتظار كل الرجال، في أي من الأوقات.

لقد زرت هذه الشـــوارع من قبل كمـــا اعترفتُ لك، لكن هذه المرة كانت غير المرات السابقة، لقد سمعتهن في الأعلى يتهكمن ويســـخرن من خلال النوافذ الشبكية لبيوت الدعارة، ولكن هذه المرة لم أكن أحتمل النظر إليهن.

جلس الرجلُ الذي يعد البان على كرســـي خشبي أمام مبغى ذي بـــاب مزركش أزرق اللون وبيده ســـكينة يـــوزع بها البهارات المتنوعة علـــى أوراق البان الرطبة التي كان يلتقطها من إناء فيه ماء، وتعتبر هذه العملية هـــي المرحلة الأولى لإعداد البان، وفي مكان مربع صغير ؛ وأســـفل كرســـي رجل البان هذا جلس رجلٌ آخـــر يغلي الحليب فـــي وعاء على موقد تصدر شـــعلته الزرقاء صوتا كالحفيف.

«ماذا دهاك؟ أنظر إلى النساء».

مسك برسغي رجل تغطي أنفه المعكوف ثآليل حمراء.

«يبدو عليك أنك قادر على أخذ فتاة أجنبية. خذ فتاة نيبالية. ألسن جميلات؟ انظر إليهن في الأعلى، يا بني!».

رفع ذقني، ربما كان يظن أنني خجولٌ وليســـت لدي أي خبرة سابقة، وأجبرني على أن أنظر إلى الأعلى.

كانـــت النيباليات مـــن وراء النافـــذة ذات القضبـــان بالفعل جميلات: بشـــرة فاتحة للغاية بعيون صينية تصيب عقولنا نحن الهنود بلوثة. أبعدت يده عن وجهي.

«خذ أي واحدة! خذهن جميعا! ألست رجلا بما يكفي، يا بني؟».

في الأوقات العادية كان هذا كافيا أن يجعلني أفقد السيطرة وأقتحم المبغى.

ولكـن أحيانا يكون الجانب الأكثر حيوانية في الرجل هو أفضل شيء لديه. لم يثر شيئا في جسدي. إنهن كببغاوات في قفص. سأكون كحيوان يجامع حيوانا آخر.

صاح بائع البان من مقعده: «امضغ البان، سيساعدك إن كانت لديك مشكلة!» رفع ورقة من أوراق البان المبللة ونفضها، بحيث تناثرت قطراتٌ من الماء على وجهي.

«اشرب الحليب الساخن، هذا يساعد أيضا!»، صاح الرجل الضئيل الحجم والمنكمش تحت كشك بائع البان وهو يغلي الحليب.

نظرت إلى الحليب الذي بدأ يفور وينسكب من جوانب الوعاء المعدني؛ ابتسم الرجل الضئيل المنكمش على نفسه وقام بتحريك الحليب المغلي بملعقة، تزبَّد الحليب ورغا أكثر فأكثر محدثا صوتا كالفحيح.

اندفعتُ أهجم على بائع البان، ناثرا أوراق البان من أمامه، وساكبا الماء على الأرض. ركلتُ الرجل القزم في وجهه. علا الصراخ من أعلى. أسرع القوادون نحوي، كنت أرفسهم وأنحيهم جانبا لأنجو بحياتي الغالية. جريت إلى خارج هذا الشارع.

حاليا، تقع ج. ب. في دلهي القديمة، وعليَّ أن أقول لك شيئا عنها. أتذكر، يا سيد رئيس الوزراء، عندما قلت لك إن دلهي هي عاصمة دولتين لا دولة واحدة- هندين لا هند واحدة. النور والظلام كلاهما يتدفق على أرض الهند. غورغاون حيث

يعيش السـيد آشوك هو الطرف المشع بالنور والطرف الجديد من المدينة، وهذا الجـزء، الطرف الآخر لدلهي القديمة. مملوء بالأشـياء التي أصبحت في طي النسـيان بالنسـبة إلى العالم الحديث، حمَّالو الريكشو، المباني الحجرية، والمسلمون. في أيام الآحاد لا تزال هناك أشياء أكثر: إذا واصلت التغلغل في الحشد المزدحم والذي يكون دائما هناك، سـتطوف على رجال ينظفون آذان رجال آخرين بواسـطة إدخال قضبـان صدئة في آذانهم، وتمر على رجال يبيعون أسـماكا صغيرة في قناني خضراء اللون فيها ماء مشـبع بالملح، وكذلك تمر على سـوق الأحذية، وسوق القمصان الرخيصة، ومن هناك تصل إلى سوق الكتب المستعملة، سوق يسمى دريا كنج(٣٩).

ربما قد سـمعت عن هذا السـوق، يا سـيدي، بمـا أنه من إحـدى عجائب العالم. تتكـوَّم على الأرصفة، مـن بوابة دلهي القديمـة على طول الطريق إلى أن تصل إلـى القلعة الحمراء، عشـرات الآلاف من الكتب البالية والمتعفنة والداكنة، عن جميع الموضوعات، التكنولوجيا، والطب، والمتعة الجنسـية، والفلسفة، والتربيـة، وعن الدول الأجنبية. بعض الكتب قديمة جدا لدرجة أنها تتفتت أوراقها حين تلمسـها؛ بعضها مزدان بأغلفة فضية، وبعضها يبدو كأنه انتُشـل من فيضان أو حريق. أغلب المحلات قد أغلقت أبوابها الآن؛ لكـن المطاعم مازالت مفتوحة، ورائحة الطعـام المقلـي تختلط برائحـة الأوراق العفنة. تـدور المراوح

(٣٩) أكبر منطقة تجارية في دلهي القديمة للكتب والمجلات المستعملة وتسمى كتاب بازار. تجد في هذا السـوق أي كتاب نشـر باللغة الإنجليزية أو الهندية. هناك العديد من مكاتب دور النشر المشهورة مثل مطبعة جامعة أوكسفورد [المترجم].

الصدئـــة ببطء فـــي فتحات التهوية لتلـــك المطاعم مثل أجنحة حشرات العثة العملاقة.

ذهبت وســـط كومة الكتب وأخذت نفســـا عميقـــا، كان كما الأكسجين بعد هواء أوكار الدعارة النتن.

كان حشـــد من مقتني الكتب يتعاركون على الكتب مع الباعة. تظاهرت بأنني أحد الذين يشـــترون الكتـــب. وثَبْتُ على الكتب، أنتقي منها، وأقرأها، أتصفحها سريعا، إلى أن صاح البائع فيَّ: «أتريد أن تشتري الكتب أم تريد قراءتها مجانا؟».

«ليســـت جيدة». قلت هذا ووضعتُ الكتـــاب أرضا ثم انتقلت إلـــى بائع كتب آخر، والتقطت بعض مـــا كان لديه، ثم تصفحتُه. مـــن دون أن أدفع روبية واحـــدة، أتصفح الكتب مجانا، وواصلت مراوغة بائعي الكتب واحدا تلو الآخر طوال المساء!

كانت بعض الكتب بلغة الأوردو، لغة المسلمين، التي هي عبارة عن خربشـــات ونقط كثيرة، كما لو أن غرابا غمس مخالبه في حبر أســـود اللون وطبعها على الورقة. كنت أقرأ من أحد هذه الكتب عندما قال لي البائع: «هل تعرف القراءة بالأوردية؟».

كان رجلا مسلما كبير السن، بوجه أسود داكن مغطى بالعرق، مثل نبتة باجونيا بعد هطول المطر، وله لحية بيضاء طويلة.

قلت: «وهل تقرأ أنت الأوردية؟».

فتح الكتاب، تنحنح، وقرأ: «كنت تبحث عن المفتاح لسنين طويلة». «هل فهمت ذلك؟» نظر إليَّ، وتجاعيد كبيرة تعلو جبهته السوداء.

«أجل يا عمي المسلم».

«اخرس، يا كذَّاب. وأنصت».

تتحنح مرة أخرى.

«كنت تبحث عن المفتاح لسنين طويلة / ولكن الباب كان مفتوحا دائما!».

أغلق الكتاب. «هذا يسمى شعرا. والآن اغرب من هنا».

«أرجوك يا عمي المسلم» توسلتُ إليه: «أنا لست إلا ابن حمال ريكشو من «الظلام». حدثني عن كل ما يخص الشعر. من نظم هذه القصيدة؟»

هز رأسه، لكنني واصلت التملق له، وأخبرته بأن لحيته مرتبة، وبشرته نضرة «ها ها!».

كم كان واضحا من شكل أنفه وجبينه أنه لم يكن مرتدا عن دينه، لكنه كان مسلما حقيقيا وعريقا أتى إلى هنا من مكة طائرا على بساط سحري، كان يبتسم برضا. قرأ لي قصيدة ثانية ثم ثالثة، ثم شرح لي التاريخ الحقيقي للشعر، بأنه السر المكنون، والسحر الذي لا يستطيع أحد سبر أغواره سوى الحكماء. يا سيدي رئيس الوزراء، لن أضيف لك أي معلومة جديدة لو قلت لك إن تاريخ العالم هو تاريخ صراع عشرة آلاف من السنين بين عقلية الفقراء والأغنياء. كل طرف يحاول تزييف الآخر، وهذا ما كان عليه الوضع منذ الأزل. يكسب الفقراء أحيانا بعض المعارك «التبول في أواني النباتات وركل الكلاب المنزلية... إلخ» لكن بالطبع الأغنياء قد كسبوا الحرب لعشرة آلاف سنة. ولهذا وبدافع من الشفقة على الفقراء ترك بعض الحكماء لهم إشارات ورموزا في الشعر والتي تظهر على أنها عن الورود والفتيات الجميلات وأشياء أخرى من هذا القبيل، ولكن عندما

تستوعب بالشكل الصحيح، تتسرب الأسرار من تلك الطلاسم في أشعارهم وتفسح الطريق لأفقر رجل في العالم لينهي هذا الصراع ذا العشرة آلاف سنة بين عقلية الفقراء وعقلية الأغنياء لمصلحته هو فقط. والآن، من بين أعظم الشعراء هؤلاء الأربعة: الشاعر رومي، وإقبال، وميرزا غالب، والشاعر الرابع الذي أخبرني أحدهم باسمه ولكنني نسيته. «من كان الشاعر الرابع؟ أكاد أجن لعدم قدرتي على تذكر اسمه. إن كنت تعرفه، ابعث لي برسالة إلكترونية».

«عمي المسلم، لدي سؤال آخر أوجهه إليك».

«من تراني أكون؟ معلمك في المدرسة؟ كفى، لا تواصل طرح الأسئلة عليَّ».

«أنا أعدك بأنه سيكون السؤال الأخير. قل لي، عمي المسلم، هل بإمكان الإنسان أن يخفي نفسه في الشعر؟».

«ما الذي تقصده؟ - كما تختفي بالسحر الأسود؟».

نظر إلي وقال: «أجل، يمكنك هذا. هناك كتب لهذا الغرض. أتريد أن تبتاع واحدا؟».

«لا، لا أقصد الاختفاء بهذه الطريقة. أقصد أيمكنه أن... أيمكنه أن...».

ضاقت عينا بائع الكتب وهو يحاول أن يستوعب الفكرة. بينما تتسع حبيبات العرق على جبينه الأسود الضخم.

ابتسمت في وجهه، وقلت «دع عنك سؤالي هذا، يا عمي المسلم».

وبعدها نبهت نفسي ألا أتحدث مع هذا الرجل العجوز مرة

أخرى، لقد كان كثير الاطلاع.

كنت أشــعر بحرقة في عينَي من فــرط التحديق في الكتب. كان عليَّ أن أعود أدراجــي إلى بوابة دلهي حتى أدرك الحافلة. بقي هناك طعم مقزز في فمي من الكتب، كأنني قد استنشــقت كثيــرا من جزيئات الورق القديم من الهواء. أفكار غريبة تتخمر في داخلك عندما تقضي فترة طويلة مع الكتب القديمة.

لكننــي بدلا من أن أذهب إلى محطــة الحافلات، همت على وجهــي أكثر داخل دلهــي القديمة. لم يكن لــدي أدنى علم عن وجهتي. كل شــيء أصبح هادئــا في اللحظة التــي تركت فيها الشارع الرئيســي. رأيت رجالا يجلســون على مقاعد، وآخرين استلقوا على الأرض يغطون في النوم ؛ نسورٌ تحلق فوق البيوت. ثم هبَّت في وجهي رياحٌ تعصف برائحة الجواميس.

يعرف الجميــع أن هناك حي الجزارين فــي دلهي القديمة، ولكن لم ير الكثيرون هذه المنطقة. إنها واحدة من عجائب المدينة القديمة، صفٌ من الســقائف المكشــوفة، يقــف تحتها عددٌ من الجواميــس وهي تديرمؤخرتها باتجاهك، تهــش الذباب بذيلها مثل ممسحة الزجاج الأمامي للسيارة، وقوائمها تغوص في أكوام هائلة من الفضلات. وقفت هناك أشــم رائحة أجســادها، كان قد مرَّ عليَّ زمن طويل لم أشــم فيه رائحة الجاموس! كان هواء المدينة المثير للاشمئزاز يخرج من رئتي.

اقترب فســمعت صوت قعقعة عجلات خشــبية، ورأيت على الطريق جاموسا يجر وراءه عربة كبيرة.

لم يكن يجلس على العربة شــخص يحمل السوط بيده، لكن

الجامــوس كان يعرف وجهته. وكان ينحدر مــن الطريق. وقفتُ علــى الجانــب بينما هو يمر، رأيــت عربته قد امتــلأت بوجوه مــن الجواميس الميتة؛ وجوه، أهذا مــا قلته؟ لكن عليَّ أن أقول جماجم، سُــلخَت من جلدها فيما عدا الجلد الموجود على طرف الأنف والذي ما زال الشعر ينبت من فتحته، كأنه التحدي الأخير لشــخصية الجاموس المقتول. أما بقية معالــم وجهه فقد كانت غائبة. حتى عيناه قد قُلِعتا.

وســار الجاموس الحي من دون ســيد يجر أحماله الميتة إلى المقصد الذي هو يعرفه.

مشــيت مع هذا الحيوان المســكين لبرهة، أُحــدق في وجوه الجواميس الميتة والمســلوخة. وبعد ذلك حدث أغرب شيء على الإطــلاق، يا معالي رئيس الوزراء أقســم لك إن الجاموس الذي كان يجر العربة أدار وجهه إليَّ وقال لي بصوت يشبه صوت أبي:

«إن أخاك كيشان قد ضُربَ حتى الموت. أيسعدك هذا؟».

كان الأمر أشــبه باللحظات التي تســتيقظ مــن منامك إثر كابوس، تدري أنه مجرد حلم، ومع ذلك لا تستطيع الاستيقاظ.

«لقد هتكوا عرض عمتك لوتو ثم ضربوها حتى الموت. أيسعدك هذا؟» ركلوا جدتك كاسوم حتى الموت. أيسعدك هذا؟».

حملق في الجاموس بازدراء.

«يا للعار!» قال الجاموس هذا ثم أخذ خطوة كبيرة إلى الأمام ومرت العربة على جانب الطريق، محمولة بوجوه ميتة نُزع عنها جلدها، وبدت لي في تلك اللحظة كوجوه أفراد أسرتي.

* * *

في الصباح التالي، أتى السـيد آشـوك إلى السيارة مبتسما يحمل الحقيبة الحمراء في يده. أغلق باب السيارة.

نظرت إلى مجسم الغول الصغير المعلق من المرآة وبلعت ريقي بصعوبة.

«سيدي..».

«ما الأمر يا بالرام؟».

«سـيدي، هناك شـيء كنت أنوي أن أخبرك بـه منذ قليل». رفعـت أصابعي عن مفتاح تشـغيل السـيارة. أقْسـمُ إني كنت مسـتعدا لأن أدلي باعتراف كامل في تلـك اللحظة... هل نطق بالكلمة المناسبة؟.. هل لمس كتفي بالطريقة الصحيحة؟

لكنه لم يكن يلتفت إليَّ. كان مشغولا بأزرار هاتفه النقال.

نقرٌ، ونقرٌ، ونقرٌ.

أن يجلـس أمامك رجـلٌ مجنون على بعد عشـر بوصات منك وتدور في رأسـه أفكـار دم واختـلاس، وأنت غـافلٌ عنـه، وأن لا تعرف ذلك. أي صنف مـن العمى أنت مصابٌ بـه؟ ها أنت تجلس في المبانـي الزجاجية تتحدث من خلال هاتفـك ليلة بعد ليلة مع الأمريكان الذين يبعدون عنك آلاف الأميـال، لكنك لا تملك أدنى فكـرة عما يحدث للرجل الذي يقود سيارتك!

ما الأمر يابالرام؟

إنه فقط، يا سيدي، إنني أريد أن أحطم جمجمتك!

مـال إلى الأمـام، قـرَّب فمه من أذنـي، كنت على وشـك الذوبان.

«أنا أفهم، يا بالرام».

أغلقت عيني وبالكاد استطعت أن أتكلم.

«فعلا، سيدي؟».

«تريد أن تتزوج».

«...».

«بالرام، أنت تحتاج إلى بعض المال، أليس كذلك؟».

«سيدي، كلا. لا حاجة لهذا».

«انتظر، بالــرام. دعني أخرج محفظتي. أنت عضو طيب من العائلــة. لم تطلب أبــدا أي أجر إضافي، أنا أعرف الســائقين الآخرين يطلبون باســتمرار أجورا للأعمال الإضافية وللتأمين، لكن أنــت لا تتكلم عن هذه الأمور. أنت من الطراز القديم. وأنا أميل إلى هذا الطراز. سنتحمل كل مصاريف زواجك، يا بالرام. خذ، يا بالرام - خذ هذه... خذ هذه..».

رأيته يســحب من محفظته ورقــة نقدية فئة الألف روبية، ثم يعيدها، ويأخذ ورقة نقدية أخرى من فئة الخمسمائة روبية، ثم يضعها مكانها، ويأخذ ورقة نقدية ذات المائة روبية.

والتي بالتالي ناولني إياها.

«أعتقــد أنك ســوف تذهب إلى لاكســمنغارا للإعداد لحفل الزفاف، يا بالرام؟».

«...».

«ربما ســآتي معك. إنني في الواقع أحــب ذلك المكان. أريد الصعــود إلى تلك القلعة هذه المرة. مذ متى كنا هناك، يا بالرام؟ منذ ستة شهور؟».

«أكثر من ذلك، سيدي». أحصيت الشهور على أصابعي. «منذ ثمانية شهور».

عد هو بدوره الشهور أيضا. «فعلا، أنت على حق».

طويت الورقة النقدية ووضعتها في جيبي العلوي.

«شكرا على هذا، سيدي». قلت هذا وأشغلت محرك السيارة.

باكرا في الصباح التالي سرت من بكنغهام إلى الطريق الرئيسي. على الرغم من أن المبنى كان جديدا، فإن هناك تسريبا من أنابيب المجاري. ورقعة من مياه المجاري قد حولت الأرض إلى سوداء خارج جدار المبنى، ثلاثة من الكلاب الضالة قد رقدت على الرقعة الرطبة. كانت طريقة لا بأس بها للتبريد، وقد بدأ الصيف، وحتى الليالي لم تعد لطيفة الآن.

يبدو أن الكلاب الثلاثة مستمتعة براحة جمة.

نزلت على وركي وصرت أراقبها.

وضعت إصبعا على بركة المجاري الداكنة. كان الماء باردا ومغريا للغاية.

استيقظ أحد الكلاب الضالة؛ تثاءب وأظهر لي جميع أنيابه. قفز واقفا على أرجله، واستيقظ الآخران أيضا. بدأت تهدر متذمرة، وتخدش التربة الرطبة، وتظهر أسنانها، كانت تريدني أن أبتعد عن مملكتها.

تنازلت عن المجاري للكلاب ومضيت إلى مركز التسوق. لم يكن أحد قد فتح متجره بعد. فجلست على الرصيف. وهناك رأيت علامات داكنة على الرصيف.

آثار مخالب.

كان حيوانٌ ما قد سار على الإسمنت قبل أن يجف.

نهضت ومشيت أتتبع خطوات ذلك الحيوان. أصبحت المسافة بين بصمات المخالب أوسع، لقد بدأ الحيوان بالعدو سريعا.

مشيت أسرع.

دارت بصمات مخالب الحيوان السـريع حول مركز التسوق، ومن ثـم وراء المركز، وأخيرا، عند نهايـة الرصيف حيث يظهر التراب، تختفي البصمات.

إلى هنا كان عليَّ أن أتوقف، لأنه بعد خمس أقدام كان صف من الرجال يجثمون على الأرض في خط مسـتقيم من دون أدنى اعوجاج، يتغوطون.

لقد وصلت إلى حي الفقراء.

لقد حدثني السائق ذو الشفتين المصابتين عن هذا المكان، كل العمال الذين يعملون في مشـاريع البناء لمراكز التسوق التجارية والشـقق السكنية يعيشـون في هذا المكان. وهم من إحدى قرى «الظـلام»؛ لا يرغبون في مجيء أي غريب إلى هناك، فيما عدا أولئك الذين لديهم أشغال بعد حلول الظلام. كان هؤلاء الرجال يتغوطون فـي العراء كأنهم يبنون جدارا أمـام أحيائهم الفقيرة لحمايتهـا، يصنعون خطا فاصلا لا يمكن لأي إنسـان مهذب أن يعبره. بعثت الرياح برائحة نتنة من البراز نحوي.

وجدت فجوة في صف المتغوطين. كانوا كما التماثيل الحجرية يجثون هناك.

هؤلاء كانوا يبنون المنازل للأغنياء، ولكنهم كانوا يعيشـون في

خيام مغطاة بقماش أزرق مشـــمع، مقسمة إلى حواجز بواسطة خطوط المجاري. كأن وضعهم أكثر ســـوءا من الذين يسكنون في لاكســـمنغارا . أخذت طريقي حول الزجاج المتهشـــم والأســـلاك وأنابيب الإنارة المتحطمة. أخذت رائحة البراز النتنة مكان رائحة أكثر نتانـــة وهي رائحة مجاري النفايات الصناعية. انتهى الحي عند بركة مجاري مكشـــوفة، نهر صغير من مياه ســـوداء تجري بجانبي ببطء، فقاقيع لامعة ودوائر صغيرة تنتشر على سطحها . اثنان من الأطفال يتخبطان في المياه السوداء.

طارت ورقة نقدية من ذات المائة روبية وسقطت في المجرى. راقبها الأطفال وقد فغرت أفواههم، ثم ركضوا ليمسكوا بها قبل أن تعوم بعيدا عنهم. أمســـك بهـــا أحدهم، وصار الآخر يضربه، وراحا يتخبطان في المياه السوداء وهما يتشاجران.

عـــدت إلى صف المتغوطـــين. أحدهم قد انتهـــى من العملية ونهض تاركا مكانه، لكن سرعان ما شغل مكانه متغوطٌ آخر.

جثمت معهم وابتسمت.

أدار البعض بصره عني، كانوا لايزالون بشرا .. وبعضهم حدَّق فيَّ صراحة كأن الحياء لا يعنيهم. ثم رأيت شخصا هزيلا أسود اللون يبتسم لي، كأنما كان فخورا بما يقوم به.

بينما كنـــت منحنيا، تحركت نحوه حيث كان جاثما وأصبحت أمامـــه وجها لوجه وعلى وجهي أعرض ابتســـامة اســـتطعت أن أرسمها على شفتي، وفعل هو الشيء نفسه.

ثـــم بدأ يضحك - وضحكت أنا بـــدوري - وبعد ذلك ضحك جميع المتغوطين معا.

«سنتولى أمر مصروفات زفافك»، صحت بأعلى صوتي.

«سنتولى أمر مصروفات زفافك»، صاح هو الآخر.

«حتى أننا سوف نعاشر زوجتك بالنيابة عنك، يابالرام!».

ردد بعدي: «حتى أننا سـوف نعاشـر زوجتك بالنيابة عنك، يابالرام!».

بدأ يضحك بشدة حتى سقط بوجهه على الأرض وهو مازال يضحك كاشفا مؤخرته الملطخة باتجاه سماء دلهي الملطخة.

بينما كنت أعود إلى مركز الأسـواق التجارية، كانت المحلات التجارية تفتح أبوابها. غسـلت وجهي في دورات المياه العمومية ومسـحت قذارة الأحيـاء الفقيرة عن يدي. سـرت إلى مواقف السـيارات، ووجدت مفكا حديديا، وجهت به ضربتين لاختباره، ثم حملته معي إلى غرفتي.

كان في انتظاري صبيٌّ بالقرب من سريري، يحمل رسالة بين أسنانه وهو يزرر بنطاله. التفتَ عندما سمعني، سقطت الرسالة من فمه على الأرض. وسقط المفك من يدي في الوقت نفسه.

«لقد أرسلوني إلى هنا. استقللت الحافلة ثم القطار، وسألت الناس فجئت إلى هنا». رمش بعينه. «قالوا إن عليك رعايتي وأن تدربني على القيادة لأكون سائقا أيضا».

«ومن تكون أنت بحق الجحيم؟».

أجاب: «داهرام. أنا الابن الرابع للعمة لوتو. لقد رأيتني عندما أتيت إلى لاكسمنغارا آخر مرة. كنتُ أرتدي قميصا أحمر اللون. وقد قبلتني هنا». أشار إلى أعلى رأسه.

التقطَ الرسالة، وسلمها لي:

حفيدي العزيز

لقد مر وقت طويل منذ أن أتيت لزيارتنا، بعد ذلك مر وقت أطول، يشمل أحد عشر شهرا ويومين هي آخر مرة تبعث لنا النقود فيها. إن المدينة قد أفسدَت روحك فأصبحت أنانيا تحب نفسك فقط، مغرورا وجائرا وشريرا. كنت أعرف منذ البداية أنك ستكون على ما أنت عليه الآن، لأنك كنت صبيا حقودا وعاصيا. كنت دائما وفي أي فرصة تحدق في صورتك في المرآة وأنت فاغرٌ فمك، وكان عليَّ أن ألوي أذنك لأجعلك تقوم بأي عملٍ آخر. أنت مثل أمك تماما. هذه طبيعتها وليست طبيعة أبيك اللطيفة. إلى الآن نحن نتحمل معاناتنا بكل صبر، ولكننا لن نصبر أكثر. عليك أن تبعث لنا النقود ثانية. وإن لم تفعل، فسوف نخبر سيدك. ونحن أيضا نقوم بإعداد زفافك بأنفسنا، وإذا لم تقبل المجيء إلى هنا، فسوف نرسل لك الفتاة بالحافلة. أنا أقول لك هذه الأشياء لا لكي أهددك، بل بسبب حبي لك. على أي حال، ألست جدتك؟ كيف كنت أحشو فمك بالحلويات! وأيضا، واجبك أن تعتني بداهرام، وأن ترعاه كأنه ابنك الحقيقي. والآن انتبه لصحتك، وتذكر أنني أحضر لك أطباق الدجاج الشهية، وسأرسلها لك بالبريد، مع تلك الرسالة التي سأكتبها لسيدك.

جدتك المحبة،

كاسوم.

طويت الرسالة ووضعتها في جيبي، ثم صفعت الصبي بشدة حتى أنه ترنح إلى الوراء، وارتطم بطرف السرير، ووقع فيه وهو يشد الناموسية في أثناء سقوطه.

«انهض، سأضربك ثانية».

التقطتُ المفك الحديدي ورفعته فوق رأس الصبي، ثم رميته على الأرض.

ازرقَّ وجه الصبي، وتمزقت شفته، مع ذلك لم ينطق بكلمة واحدة.

جلست في الناموسية أحتسي من نصف قنينة المشروب. ورحت أراقب الصبي. كنت على شفا هاوية. لقد كنتُ جاهزا لنحر سيدي، وصول هذا الصبي قد أنقذني من جريمة القتل «والسجن مدى الحياة».

في ذلك المساء، قلت للسيد آشوك إن أسرتي بعثت إليّ مَن يساعدني، شخصٌ ما ليحافظ على تنظيف السيارة، وبدلا من أن يغضب لأنه سوف يطعم شخصا آخر - وهذا ما يفعله أغلب الأسياد - قال: «إنه صبيٌّ لطيف. يشبهك. ما الذي حدث لوجهه؟».

التفتُ إلى داهرام: «أخبره أنت».

رمش بعينه مرتين. كان يفكر في الأمر.

«لقد وقعت من الحافلة».

صبيٌّ ذكي.

«انتبه في المرات القادمة»، قال السيد آشوك. «هذا رائع، يا بالرام، سيكون معك صديق من الآن فصاعدا».

كان داهرام صبيا هادئ الطبع. لم يطلب مني أي شيء. ينام على الأرض حيث أخبرته أن ينام، لم يكن يتدخل في أموري. انتابني شعورٌ بالذنب لما اقترفته بحقه، أخذته إلى محل الشاي.

«من يدرِّس في المدرســة هذه الأيام، يا داهــرام؟ هل مازال السيد كريشنا؟».

«أجل خالي».

«هــل مــازال يســرق من نقــود الطعــام والــزي المخصص للتلاميذ؟».

«أجل، يا خالي».

«رجلٌ طيب».

«لقد وصلت الســنة الخامســة وبعد ذلك قالت كاسوم هذا كافٍ».

«لنر ماذا تعلمتَ في خمس ســنين. هل تعرف جدول الضرب للرقم ثمانية؟».

«أجل، يا خالي».

«لنسمع».

«ثمانية واحدة تكون ثمانية».

«هذا ليس بصعب، ماذا يليه؟».

«ثمانية مرتين تكون ستة عشر».

«انتظــر». أحصيت الرقــم على أصابعــي للتأكد من صحة الإجابة. «حسنا. أكمل».

«اطلب لي أنا أيضا شــايا، هل ستفعل ذلك؟» أخـذ الســائق ذو الشفة المصابة بالبهاق مقعده بجانبي وابتسم لداهرام.

أجبته: «اطلبه بنفسك».

عبس في وجهي: «هل هذه هي الطريقة التي يجب أن تكلمني بها، يا بطل الطبقة العاملة؟».

كان داهرام يراقبنا بتمعـــن، فقلت: «هذا الصبي من قريتي. ومن أسرتي. وأنا الآن أتحدث معه».

«ثمانية ثلاث مرات تكون أربعا وعشرين».

«لا يعنيني من يكون هذا الصبي،» أردف الســـائق ذو الشـــفة المصابة بالبهاق. «اطلب لي الشاي، يا بطل الطبقة العاملة».

ثبـــت كفــه قرب وجهـــي، خمس أصابـــع. وهذا يعنـــي أريد خمسمائة روبية.

«ليس عندي أي نقود».

«ثمانية أربع مرات تكون اثنين وثلاثين».

رســـم خطا وهميا عبر رقبته ثم ابتســـم. ســـيدك سيعلم كل شيء.

«داهرام».

«يا له من اسم جميل. هل تعرف معناه؟».

«أجل، سيديً».

«هل خالك يعرف معنى اسمك؟».

قلت له: «اخرس!».

حـــان الوقت المحـــدد من اليوم لتنظيف محل الشـــاي. أحد العناكب البشـــرية رمى خرقة مبللة علـــى الأرض وبدأ يزحف معهـــا دافعا أمامـــه أمواجا صغيـــرة من الماء النتن والأســـود كالحبر. حتى الفئران انطلقت هاربة من المحل. لم ينج الزبائن الجالســـون أمام الطاولات من زخات الماء الأسود، وهي تتدفع بينهم. قطع صغيرة من السجائر المحلية الرخيصة، أغلفة برّاقة من البلاســـتيك، تذاكر الحافلة مثقوبة، قصاصات من البصل،

أغصـــان من الكزبـــرة الطازجة، كلها طفت على الماء الأســـود، ظهر انعكاس مصباحٍ كهربائي مكشوف سطع فوق النفايات مثل جوهرة صفراء.

بينما كان الماء الأســـود يندفع، أتى صـــوتٌ من داخلي يقول: «لكن قلبك أصبح أكثر سوادا من هذا الماء، مونّا».

في تلك الليلة استيقظ داهرام على صوت يصرخ. اقترب من الناموسية.

«يا خالي، ما الذي يحدث؟».

«أشعل النور، أيها الغبي! افتح النور!».

أشـــعل داهرام النـــور، ورآني قد تجمدتُ فـــي مكاني داخل الناموســـية: لم يكن في مقدوري حتى أن أشير إلى ذلك الشيء. نزلَتْ من الحائط سحلية رمادية اللون ذات جسد ممتلئ ووقفت على سريري.

ابتسم داهرام.

«أنا لا أمزح أيها الأخرق، أبعدها عن سريري!».

أدخل يده في الناموسية وأمســـك بالسحلية، وسحقها تحت قدمه.

«ارمها بعيدا، بعيدا جدا، خارج الغرفة، خارج المبنى».

رأيت نظرة حائرة في عينيه: خائفٌ من ســـحلية، رجل ناضج مثل خالي!

«لا بأس»، فكرتُ، حينما كان يطفئ النور.

لن يشك قط أنني أخطط لشيءٍ ما.

بعد لحظة أخرى، تلاشت ابتسامتي.

ما الذي كنت أخطط له؟

بـــدأتُ أتعرق. رحـــت أحدق في آثار الكفـــوف المجهولة التي طُبعت على الجبس الأبيض للحائط.

سمعت أصوات ضربات العصي على الإسمنت، كان الحارس الليلـــي لمبنى بكنغهـــام ب يقوم بجولته ممســـكا بعصاه الطويلة. عندما خمد صوت ضربات العصا، لم يكن هناك أي صوتٍ داخل الغرفة، سوى أزيز الصراصير وهي تقرض الحائط أو تطير من هنا إلى هناك. كانت ليلة أخرى من تلك الليالي الحارة والرطبة. ربما حتى الصراصير كانت تعرق، كنت بالكاد أتنفس.

وفـــي اللحظة التي فكرت فيها أنني لن أســـتطيع النوم ثانية، شرعت أتلو مقطعا شعريا من بيتين مرة بعد أخرى.

«كنت تبحث عن المفتاح لسنين

لكن الباب كان دائما مفتوحا».

بعدئذٍ نمت.

* * *

كان الجدير بي أن ألاحظ العلامات المنسوخة على الجدران التـــي تظهر يـــدا تحطم الأغلال، كان الجديـــر بي أن أتوقف وأســـتمع لأولئك الشباب ذوي شـــرائط الرأس الحمراء وهم يصيحون من فوق الشـــاحنات، لكنني كنت محاطا بمشكلاتي الشـــخصية، لذا لم أعط أي اهتمام لأشياء أكثر أهمية كانت تحدث في بلادي.

بعد يومين، كنت أصطحب السيد آشوك إلى حدائق لودي بمعية الســـيدة أوما؛ كان يقضي معهـــا جلَّ وقته هذه الأيام.

كان الحب يتفتح بينهما. وقد اعتاد أنفي رائحة عطرها، فلم أعد أعطس عندما كانت تتحرك.

«إذن أنت لم تنفذ بعد ما كان يجب عليك فعله، آشـوك؟ هل سيتكرر ما حدث في المرة السابقة؟».

«إنه ليس بهذه السهولة، يا أوما. أنا وموكيش قد تعاركنا بسببك. سأصر. لكن امنحيني بعض الوقت، أحتاج إلى أن أتغلب على تأثير الطلاق الآن - بالرام، لماذا رفعت صوت الموسيقى عاليا؟».

«أنــا أحبه عاليا. إنها موســيقى رومانســية. ربما قام بذلك متعمدا».

«انظري، سيحدث الذي تريدينه. ثقي بي. إنه فقط... بالرام، لماذا لم تخفض صوت الموسيقى؟ أحيانا هؤلاء الناس من «الظلام» يكونون غاية في الغباء».

«لقد سبق أن قلت لك هذا، آشوك».

انخفض صوتها.

استطعتُ أن أستجمع كلمات نطقتها بالإنجليزية، مثل «تبديل»، و«سائق»، و«محلي».

هل فكرت بخصوص تبديل السائق إلى سائق محلي؟

تمتم مجيبا.

لم أكن قادرا على سـماع كلمة واحدة. ولكنه لم يكن عليَّ أن أستمع.

نظرت إلى مرآة الرؤيـة الخلفية، كنت أريد أن أواجهه، عينا بعـين، رجلا لرجل، لكنه لم يعد ينظـر إلى المرآة. لم يجرؤ على مواجهتي.

صدقني، كان في إمكانك حينها أن تسـمع صرير أسـناني.
كنت معتقدا أنني أنا الذي يعد له الخطط؟ إذ به هو الذي يعدها لي! إن الأغنياء يسبقوننا دائما بخطوة، أليس كذلك؟
حسـنا، ليس هذه المرة. لأنه مقابل أي خطوة يأخذها سأكون أنا قد أخذت خطوتين.
في الخارج وعلى قارعة الطريق، جلس بائع الشوارع الجانبية وبجـواره هرمٌ من خوذات الدراجـات النارية التي كانت ملفوفة بورق البلاستيك كأنها كومة من الرؤوس المقطوعة.
في اللحظة التي كنا على وشـك الوصول إلى الحدائق، رأينا الطريـق مغلقة من جميع الاتجاهات: صفٌّ من الشـاحنات قد تجمع أمامنا، كانت الشاحنات مملوءة برجالٍ يهتفون:
«يحيا الاشتراكي الكبير! يحيا صوت فقراء الهند!».
«ما الذي يحدث بحق الإله؟».
«ألـم تشـاهد الأخبار اليـوم، آشـوك؟ إنهم يعلنـون نتائج الانتخابات».
«اللعنة، يا بالرام، أوقف موسيقى إنيا، وأدر المذياع».
أتى صوت الاشـتراكي الكبير. كان معد تقارير إذاعية يجري معه مقابلة.
«تبين مـن الانتخابات أن الفقراء لن يتم تجاهلهم. لن يسـكت «الظلام». لا توجد قطرة ماء في صنابير البيوت، وما الذي تقدمونه أنتم يا أهالي دلهي لنا؟ توفرون لنا الهواتف النقالة. هل يسـتطيع الإنسان شـرب الهواتف النقالة عندما يكون ظمآن؟ تمشي النساء مسافة أميال كل صباح للبحث عن دلوٍ من الماء النظيف».

«هل ترغب في أن تكون رئيسا لوزراء الهند؟».

«لا تسأل مثل هذه الأسئلة. إن طموحاتي لا تتعلق بي شخصيا. أنا بكل بساطة صوت الفقراء والمحرومين».

«لكن من المؤكد، يا سيدي..».

«دعني أقل كلمتي الأخيرة، إذا سمحت. كل الذي أريده هو الهند التي يمكن فيها أن يحلم أي صبي في القرية بأن يصبح رئيس وزراء. والآن، كما قلت سابقا، النسأء تمشي من أجل..».

وفق الإذاعة، الحزب الحاكم هُزِم عند فرز الأصوات. ومجموعة جديدة من الأحزاب صعدت إلى السلطة. حزب الاشتراكي الكبير كان أحدهم. لقد أخذ أصوات جزء كبير من «الظلام». بينما كنا نعود إلى غورغاون، رأينا حشدا من مؤيديه يتدفقون من «الظلام». يقودون إلى حيث يشاءون، يفعلون ما يشاءون، يطلقون الصفير على أي امرأة يشاءون. لقد تعرضت دلهي للغزو.

لم يطلبني السيد آشوك بقية اليوم، في المساء نزل بنفسه وقال لي إنه يريد الذهاب إلى فندق إمبيريال. كان طوال الوقت مشغولا بهاتفه النقال، يضغط على الأرقام ويجري المكالمات ويصرخ:

«لقد قضي علينا تماما، يا أوما. لذلك أنا أكره ما أقوم به، نحن تحت رحمة هؤلاء ال..».

«لا تصرخ فيّ، موكيش. أنت الذي قلت لي إن الانتخابات أمرٌ مفروغٌ منه. نعم، أنت! والآن لن يكون لنا مخرج من مشكلتنا مع ضريبة الدخل».

«حسنا، سأفعل هذا يا أبي! سأذهب لمقابلته الآن حالا في الإمبيريال!».

كان لا يزال يتحدث على الهاتف عندما أنزلته من السيارة عند فندق إمبيريال. مرت خمس وأربعون دقيقة، وبعدها أتى مع رجلين. انحنى على نافذة السيارة، وقال: «افعل ما يطلبونه منك يا بالرام. سأعود من هنا بسيارة أجرة. وعندما ينتهون من مهمتهم عد بالسيارة إلى بكنغهام».

«حاضر، سيدي».

ربت الرجلان على ظهره؛ انحنى يحييهما، وفتح لهما باب السيارة بنفسه. مادام يتزلف لهما بهذا الشكل، فلا بد أن يكونا سياسيين.

دخل الرجلان السيارة. وبدأ قلبي يخفق. الرجل الذي كان على اليمين هو بطل طفولتي - فيجاي، ابن راعي الخنازير الذي أصبح قاطع تذاكر الحافلة، ثم أصبح سياسيا من لاكسمنغارا. لقد استبدل زيه مرة أخرى: الآن كان مرتديا بذلة رسمية وربطة عنقٍ خاصة برجال الأعمال الهنود.

أمرني أن أقود بهم ناحية شارع آشوكا؛ التفتَ إلى صاحبه وقال: «أخو العاهرة أخيرا أعطاني سيارته».

نخر الرجل الآخر. أنزل زجاج النافذة وبصق خارجا. «هو يعلم أن عليه أن يظهر لنا بعض الاحترام الآن، أليس كذلك؟».

ضحك فيجاي ضحكة مكتومة. رفع نبرة صوته: «ألديك أي مشروبٍ في السيارة، يا بني؟».

استدرت نحوه، قطع من الذهب قد رُصعت على أسنانه السوداء التالفة.

«أجل، سيدي».

«لنر ما لديك».

فتحت الدرج وناولته القنينة.

«إنه من النوع الجيد. ألديك كؤوس أيضا؟».

«أجل، سيدي».

«ثلج؟».

«كلا، سيدي».

«لا بأس. لنشربه صرفا. بني، اسكب لنا شربة».

وهذا ما فعلت، بينما كنت أتولى قيادة الهوندا سيتي بيدي اليسرى. أخذا الكؤوس وشربا المشروب كأنه عصير الليمون.

«إن لم يكن بحوزته الآن جاهزا، قل لي. سأرسل له بعضهم لكي يكون لهم حديث معه».

«لا، لا تقلق. والده كان يدفع دائما في نهاية المطاف. هذا الولد كان في أمريكا وقد امتلأ رأسه بالهراء. لكنه في النهاية سيدفع».

«كم؟».

«سبعة. كنت سأصل معه إلى خمسة ولكن أخا العاهرة عرض ستة من تلقاء نفسه - إنه أحمق - وبالتالي قلت سبعة، فوافق. قلت له إن لم يدفع، سوف نُجهِز على أبيه وأخيه وكل من يعمل معهم من سارقي الفحم والمتهربين من الضرائب والمبتزين. لذا بدأ يتعرق، وأعرف أنه سيدفع المبلغ».

«هل أنت واثقٌ من ذلك؟ أود لو نرسل له بعض رجالنا . أحب أن أرى الأغنياء يعاملون بعنف».

«سيكون هناك آخرون. أما هذا فلا يستحق العناء. لقد قال إنه سيُحضر المبلغ يوم الاثنين. سيكون المكان في الشيراتون. هناك مطعمٌ لطيف في الطابق السفلي. مكانٌ هادئ».

«حسنا. سيطلب لنا الغداء أيضا».

«بلا شك. لديهم كباب لذيذ».

تغرغر أحد الرجلين بالمشروب، ثم تجرعه، وتجشأ، وبعد ذلك مص أسنانه.

«أتعرف ما أفضل شيء في هذه الانتخابات؟».

«ما هو؟».

«بالطريقة التي انتشرنا بها في الجنوب أصبح لنا موضع قدم في بانغلور أيضا. وأنت تعلم أن المستقبل سيكون هناك».

«الجنوب؟ هراء».

«لم لا؟ واحد من كل ثلاثة مبان من المكاتب الجديدة يشيد في بانغلور. إنه المستقبل».

«دع عنك كل هذا. أنا لا أصدق كلمة واحدة. إن الجنوب يعج بالتاميل. أنت تعلم من هم التاميل؟ العبيد. نحن أبناء الآريين الذين أتوا إلى الهند. نحن الذين جعلناهم عبيدا لنا. والآن يلقون علينا المحاضرات. العبيد».

«بني»، مال فيجاي نحوي بكأسه: «اسكب لي كأسا أخرى».

سقيتهم ما تبقى من المشروب في تلك الليلة.

نحو الساعة الثالثة صباحا، قدتُ الهوندا سيتي إلى مجمع

الشـــقق في غورغـــاون. كان قلبي ينبض بســـرعة كبيرة لم أكن أرغب في ترك الســـيارة فورا. مســـحت السيارة وغسلتها ثلاث مـــراتٍ متتالية. كانت القنينة ملقاة على أرضية الســـيارة. قنينة شراب، حتى وهي فارغة لها قيمة في السوق السوداء. التقطتها وسرت نحو مسكن الخدم.

لأجل قنينة شراب، لا يمانع السائق ذو الشفة الموبوءة بالبهاق أن يوقَظ من النوم.

مشـــيت وأنا أدير القنينة بمعصمـــي، أجس وزنها. حتى وهي فارغة لم تكن خفيفة.

لاحظت قدمي تتباطآن والقنينة تدور أسرع وأسرع.

كنتُ أبحث عن المفتاح لسنين...

انتشـــر صدى صـــوت القنينة وهي تتهشـــم في جوف موقف الســـيارات، لا بد أن الصوت قد وصل إلى ردهة الانتظار وارتد متجاوزا كل أدوار المبنى، حتى وصل إلى الدور الثالث عشر.

انتظرت بضع دقائق، متوقعا أن أرى شخصا ما يركض مسرعا إلى موقف السيارات.

لا أحد. كنت في مأمن.

حملت ما تبقى من القنينة المكسورة وقربتها من النور. نتوءات حادة وطويلة وقاسية كالمخالب.

مثلي.

لملمـــت القطع الملقـــاة على الأرض حولي بقدمي على شـــكل كومة. ومســـحت الدم من على يدي، وجدت مكنســـة نظفت بها المنطقـــة. ثم نزلت على ركبتي ونظـــرت حولي أبحث عن القطع

التي قد أكون قد أخفقت في إزالتها. تردد في موقف السيارات، صدى مقطع من القصيدة التي كنت أرددها مرة تلو الأخرى:

لكن الباب كان على الدوام مفتوحا.

كان داهرام نائما على الأرض؛ والصراصير تزحف بالقرب من رأسه. هززته ليفيق وقلت: «نم داخل الناموسية». قام والنوم ملء عينيه.

نمت أنا على الأرض متحديا الصراصير. كان مازال بعض من الدماء على راحتي: ثلاث قطرات صغيرة قد تشكَّلت على لحمي، كصف من الدعسوقات الصغيرة الملونة على ورقة نبات. مصصتُ راحتي كصبي صغير ورحت في سبات.

لم يكن السيد آشوك يريدني أن أصحبه إلى أي مكان في صباح يوم الأحد. غسلت الأطباق في المطبخ، ومسحت الثلاجة، وقلت: «أود أن آخذ إجازة هذا الصباح، سيدي».

«لماذا؟»، سألني وهو يخفض الصحيفة. «لَمْ تطلب أبدا إجازة الصباح كله من قبل. أين ستذهب؟».

وأنت لم تسألني أبدا من قبل أين كنت أذهب عندما أترك المنزل. ما الذي فعلته بك الآنسة أوما؟

«أريد أن أقضي بعض الوقت مع الصبي في حديقة الحيوان، سيدي. أظن أنه يحب أن يرى كل تلك الحيوانات».

ابتسم: «أنت رجل عائلة طيب يا بالرام. اذهب، واستمتع مع الصبي». عاد لقراءة صحيفته، لكنني لمحت خيطا من الدهاء في عينه بينما هو يقرأ صحيفته ذات الطبعة الإنجليزية.

عند مغادرتنا أبراج بكنغهام قطعة «ب»، طلبت من داهرام أن

ينتظرني، ثم عدتُ إلى المبنى وراقبت المدخل. انقضت نصف ساعة، وبعدها نزل السيد آشوك إلى البهو. رجلٌ داكن اللون، ضئيل البنية، من طبقة الخدم، قد أتى ليراه. السيد آشوك وذلك الرجل تحادثا لمدة من الزمن، وبعدها انحنى الرجل الضئيل وغادر. كانا يبدوان كرجلين قد أنهيا صفقة فيما بينهما.

عدتُ حيث كان داهرام ينتظرني. «لنذهب!».

استقللنا الحافلة إلى القلعة القديمة، حيث حديقة الحيوانات الوطنية. ظلت يدي على رأس داهرام طوال الوقت، لابد أنه ظن أن هذا الأمر هو من قبيل المحبة، لكنني كنت أريد فقط أن أمنع يدي من الارتعاش، لقد كانت ترتعش طوال الصباح مثل ذيل سحلية مقطوع.

ستكون الضربة الأولى من جانبي أنا. كل شيء كان في مكانه الصحيح الآن، لا مجال للخطأ، لكنني كما قلت لك، لست ذلك الرجل الشجاع.

كانت الحافلة مزدحمة بالركاب، وكان على كلينا الوقوف طوال الرحلة. تعرقنا كالخنازير. كنت قد نسيت كيف تكون رحلة الحافلة صيفا. عندما توقفنا عند الإشارة الضوئية الحمراء، توقفت أيضا سيارة مرسيدس- بنز بجانب الحافلة. وراء نوافذها المغلقة، ابتسم السائق كاشفا عن أسنانه الحمراء وهو داخل البيضة يستمتع بالبرودة.

كان هناك صف طويل من الناس أمام شباك التذاكر وعددٌ من الأسر ينتظرون دورهم ليدخلوا حديقة الحيوانات، وكان هذا مفهوما بالنسبة إليّ. أما ما حيرني فهو منظر كثير من الشباب

والشـــابات وهم يدخلون حديقة الحيوانـــات يدا بيد، يضحكون ويقرص بعضهـــم بعضا، ويطيل بعضهم النظـــر إلى بعض، كما لو أن حديقة الحيوانات هي مكان شـــاعري. هذا ما لم أجد له معنى.

لاحظ، يا سيد رئيس الوزراء، كل يوم هناك الآلاف من السواح الأجانب يأتون إلى بلادنا للتنوير. يذهبون للهملايا أو بيناراس أو بوذ غايا. يتخذون أوضاعا غريبة من اليوغا، يدخنون الحشيش، يمارســـون الجنس مع واحد أو اثنين من الســـادو ظنا منهم أنهم قد يتلقون التنوير.

ها!

إن كنتـــم حقا قد أتيتم إلى هذا البلـــد لأجل التنوير، فعليكم أن تنســـوا غانجا، انسوا الصوامع المقدسة، واذهبوا مباشرة إلى حديقة الحيوانات الوطنية في قلب نيودلهي.

شاهدنا، أنا وداهرام، طيور اللقلق ذات المنقار الذهبي جالسة على أشـــجار النخيل الموجودة في وســـط البحيرة الاصطناعية. بعضها ينزلق فوق مياه البحيرة الخضراء، تظهر لنا تلك الخطوط الخفيفة الوردية اللون فوق أجنحتها. في خلفية المشـــهد، يمكنك أن ترى الجدران المكسورة للقلعة القديمة.

إقبال، ذلك الشـــاعر العظيم، كان فعلا على صواب حين قال إنه في اللحظـــة التي تدرك فيها معنى الجمال في الدنيا، تكون قد توقفت أن تكون عبدا. ليذهب الناكسال وأسلحتهم المستوردة من الصين إلى الجحيم. لو علمت كل طفلٍ فقير الرسم، فإن في ذلك النهاية للأغنياء في الهند.

كنت حريصا أن أجعل داهرام يستحسن روعة الصعود والهبوط في الهيكل التخطيطي للقلعة، والطريقة التي امتلأت فيها الثغرات باللون الأزرق السماوي، الطريقة التي تتلألأ فيها الصخور القديمة في النور.

تَنَقلنا لمدة نصف ساعة من قفص إلى آخر. الأسد واللبؤة كانا بعيدين أحدهما عن الآخر وهما صامتَان كما الأزواج الحقيقيين في المدينة. ووحيد القرن كان مستلقيا في بركة كبيرة يملؤها الطين، كان داهرام يود أن يقوم بشيءٍ يفعله الآخرون وهو أن يرمي إليه بحجرٍ ليجعله يتحرك ليقف، ولكنني أخبرته بأن هذا التصرف ينم عن القسوة. إن وحيد القرن يستلقي في الطين ولا يقوم بفعل أي شيءٍ آخر، هذه طبيعته فقط.

باختصار إن فلسفتي في جملة واحدة هي: دع الحيوانات تعش كالحيوانات، ودع البشر يعيشوا كالبشر.

قلت لداهرام إن وقت المغادرة قد حان، لكنه حزن وتوسل: «خمس دقائق، يا خالي».

«حسنا، لك خمس دقائق».

وصلنا إلى سياج من أعواد الخيزران الطويلة، وهناك، من خلال فجوات الأعمدة، كان نمرٌ يتحرك جيئة وذهابا في خطٍ مستقيم.

ليس كمثله أي نمر.

كان ذلك المخلوق الذي يولد مرة واحدة فقط لكل جيل في الغابة.

راقبته وهو يمشي خلف قضبان الخيزران. خطوط سوداء

وفراء أبيض يسطع عليها نور الشمس وهي تومض من بين فجوات الخيزران الداكن، كأنك تشاهد بكرة بطيئة من الأفلام الأسود والأبيض القديمة. كان يسير في المسار نفسه مرة بعد أخرى، من طرف قضبان الخيزران إلى الطرف الآخر، ثم يستدير ليكرر السير ثانية، كما لو كان تحت تأثير تعويذة.

كان يقوم بتنويم نفسه مغناطيسيا بالسير بهذه الطريقة، إنها الطريقة الوحيدة التي تمكنه من تحمل هذا القفص.

وبعد قليل توقف ذلك الشيء وراء القضبان عن الحركة. أدار وجهه إلى وجهي. والتقت عينا النمر بعينيّ، مثلما التقت عينا سيدي بعينيّ في كثير من الأحيان في مرآة السيارة.

فجأة اختفى النمر.

جرت رعشة من أسفل عمودي الفقري إلى أعلى فخذي. بدأت ركبتاي ترتعشان؛ شعرت بخفة وزني. صرخت امرأة بقربي: «إن عينيه تدوران! سيغمى عليه!»، حاولت أن أصرخ فيها: «هذا ليس صحيحا، أنا لا يغمى عليّ!» حاولت أن أظهر لهم كلهم أني بخير، لكن رجليَّ كانتا تنزلقان. والأرض من تحتي تتحرك. كان شيءٌ ما يحفر طريقه نحوي، وبعد ذلك تفتق الطين عن مخالب تغرس في لحمي وتشدني إلى جوف الأرض المظلم.

كان آخر ما فكرت فيه قبل أن يلفَّني الظلام، هو أني الآن أدركت كنه تلك القرصات والجذل، وعرفت لماذا يأتي العشاق إلى حديقة الحيوانات.

في ذلك المساء افترشنا أنا وداهرام الأرض في غرفتي، وفتحت رسالة زرقاء أمامه. ووضعت قلما في يده.

«ســأرى مدى معرفتك في كتابة الرسائل، داهرام. أريد منك أن تكتب للجدة ما جرى اليوم في حديقة الحيوانات».

كتب الرسالة ببطء وخط جميل.

«أخبرهــا عن وحيــد القرن، وقــردة الشــامبانزي، وغزلان المستنقعات».

«أخبرها عن كل شــيء». نظر إليَّ، ثم كتب: لقد أغشي على خالي بالرام أمام قفص النمر الأبيض.

«من الأفضل أن أملي عليك، اكتب».

كتب كل ما أمليتُ عليه في مدة عشــر دقائق بســرعة جعلت قلمه يتلطخ بالحبر الأســود الذي ســال من القلــم، توقف لكي يمســح ريشــة القلم بشــعره ثم عاد يكتب. وفي النهاية قرأ ما كتبه:

دعــوت الناس من حولي، وحملنا خالي إلى شــجرة البانيان. صبَّ أحدهم الماء على وجهه. أولئك الناس الأخيار صفعوه على وجهه بشــدة وجعلوه يفيق. التفتوا إلي وقالوا: «خالك يهذي، إنه يــودع جدته. ربما يعتقد أنه ســيموت.إن عيني خالي مفتوحتان الآن. ســألته، «هــل أنت بخير يا خــالــي؟» أخــذ بيدي وقــال، «أنا آســف، أنا آسف، أنا آسف». سألته: «على ماذا أنت آسفٌ؟» قال: «أنا لا أستطيع أن أعيش بقية حياتي في القفص يا جدتي. أنا آسف». ركبنا الحافلة إلى غورغاون ثم تناولنا الغداء في محل الشــاي. كان الجو حارا جدا، وتعرقنــا كثيرا. وهذا كل ما جرى لنا اليوم.

«اكتب لها بعد هذا ما تشــاء، ثم أرسلها غدا، حالما أغادر في

السيارة، لكن ليس قبل ذلك. أفهمت؟».

* * *

كان المطـــر يهطل طوال اليوم، مطـــرٌ خفيف ومتواصل. كنت أســـمع صـــوت المطر مع أنني لـــم أكن أراه. ذهبـــت إلى الهوندا سيتي، وضعت عود البخور داخلها، مسحت المقاعد والملصقات، ولكمـــت الغول الصغير في فمه. رميـــت صرة بالقرب من مقعد السائق. ثم أغلقت الأبواب جميعا.

ثم وأنا أبتعد من الهوندا ســـيتي خطوتين إلى الوراء، انحنيت لها جامعا كفي.

ذهبـــت لأرى ما الـــذي كان يفعله داهـــرام. كان يبدو وحيدا، لـــذا صنعت له قاربا ورقيا، وجعلناه يبحر في القناة خارج المبنى السكني.

وبعد الغداء، استدعيت داهرام إلى غرفتي.

وضعت يدي على كتفه؛ وببطء جعلته يســـتدير بحيث أصبح وجهه بعيدا عني. أسقطت روبية على الأرض.

«انحنِ والتقطها».

فعـــل مـــا أمرته به، وراقبتـــه. كان داهرام قد صفف شـــعره بالطريقة نفســـها التي يصفف بها الســـيد آشوك شعره، عندما تكون أنت واقفا وهو منحن، ترى تفريق الشـــعر من الوسط، كان هنـــاك خطٌ أبيض واضح فوق فروة رأســـه، يؤدي إلى نقطة في قمة رأسه حيث خصلات الشعر تنتشر منها.

«قف منتصب القامة».

أدرت جسمه دورة كاملة. ثم أسقطت الروبية مرة أخرى.

«التقطها مرة أخرى».

راقبت النقطة.

طلبـــت منه أن يجلس في زاوية مـــن الغرفة ويراقبني، دخلت تحـــت ناموســـيتي وطويت رجلـــي، ووضعت كفي علـــى ركبتَي، أغمضت عيني وأخذت شهيقا عميقا.

لا أدري كم من الوقت مضى وأنا جالسٌ كالبوذا، ولكني بقيت هكـــذا إلى أن صاح أحـــد الخدم ليخبرني بأننـــي مطلوب عند البوابـــة الأمامية. فتحت عيني، وكان داهرام جالســـا في زاوية الغرفة يراقبني.

قلـــت: «تعال إلى هنا». احتضنته. وضعت عشـــر روبيات في جيبه. سيكون في حاجة إليها.

«بالرام، لقد تأخرت! كان الجرس يدق بجنون!».

ســـرت إلى الســـيارة، أدخلت المفتاح، وشـــغلت المحرك. كان الســـيد آشـــوك واقفا عند المدخل وبيده المظلة والهاتف النقال. اســـتمر يتحدث على الهاتف بينما هو داخلٌ في الســـيارة وأغلق الباب بعنف.

«مازلـــت غير قادر على أن أصدق هذا. كانت لدى الناس في هـــذا البلد فرصة أن يضعوا حزبا حاكما كفؤا في الســـلطة من جديد، وبدلا من هذا انتخبوا مجموعة من أكثر الرعاع فســـقا. نحن لا نستحق». وضع الهاتف جانبا للحظة ثم قال: «إلى المدينة أولا، بالرام، سأقول لك أين»، وتابع مكالمته الهاتفية.

كانت الطرقات ملساء بسبب الطين والمياه. قدتُ ببطء.

«... الديموقراطيـــة البرلمانية، يا أبي. لن نصل إلى مســـتوى

الصين لهذا السبب بالذات».

كانت محطتنا الأولى في المدينة عند أحد المصارف المألوفة. أخـذ الحقيبة الحمراء ودخل، ورأيته داخل الصندوق الزجاجي، يضغط على أزرار ماكينة الصرف الآلي. عندما عاد، شعرت بأن وزن الحقيبة على المقعد الخلفي قد زاد. انتقلنا من مصرفٍ إلى آخـر، وفي كل مرة يزداد وزن الحقيبة الحمراء. شـعرت بثقلها على أسـفل ظهري، وكأنني لا أصطحب السيد آشوك وحقيبته في السـيارة بل حمله بالطريقة ذاتها التي كان يسـحب بها أبي الراكب وحقيبته في عربة الريكشو.

سبعمائة ألف روبية.

«الآن إلى الشيراتون، يا بالرام».

«حاضر، سيدي».

أدرت مفتاح السيارة، بدّلت الترس. وتحركت.

«شغِّل موسيقى ستينغ يا بالرام، ليس عاليا».

«حاضر، سيدي».

شـغلت القرص المدمج. أقبل صوت ستينغ. وأخذت السيارة سرعتها المناسبة. بعد قليل، مررنا على التمثال البرونزي الشهير لغاندي وأتباعه وهو يخرجهم من الظلام إلى النور.

كان الطريق خاليا. والمطر يتسـاقط خفيفا. لو سرنا في هذا الطريق، سـنصل إلى الفندق، أكثـر الفنادق فخامة في عاصمة بلادي قاطبة، إنه المكان الذي يقيم فيه على الدوام الضيوف من قادة الدول، مثل شخصك. لكن دلهي مدينة بإمكان الحضارة أن تظهـر وتختفي فيها، في غضون خمـس دقائق. في هذا الوقت

بالتحديد كانت توجد على جانبي الطريق مساحات مقفرة وبها نفايات.

في المرآة الخلفية، رأيته لا يأبه بأي شيء سوى هاتفه النقال. وهجٌ أزرق اللون يضيء وجهه. من دون أن يرفع نظره، سألني: «ما الخطب، يا بالرام؟ لم توقفت السيارة؟».

لمست الملصقات المغناطيسية للإلهة كالي لتجلب لي حسن الطالع، ثم فتحت درج السيارة. هناك كانت القنينة المكسورة بمخالبها الزجاجية.

«هناك خللٌ في العجلة، سيدي. أعطني فقط دقيقتين».

وقبل أن ألمس الباب، أقسم إنه قد فُتِح الباب من تلقاء نفسه. وكنت في الخارج تحت رذاذ المطر.

كان هناك طينٌ أسود متشبع بمياه المطر في كل مكان. أخذت طريقي بين الطين ومياه المطر، وجثمت قرب العجلة اليسرى للسيارة التي كانت مختفية عن الطريق بواسطة هيكل السيارة. كانت هناك كتلة كبيرة من الشجيرات من ناحية، وامتداد من النفايات في الخلف من الناحية أخرى.

لم تكن ترى قط طريقا خاويا بهذا الشكل. تكاد تقسم إن هذا قد رُتب لأجلك فقط.

ظل الوميض الأزرق من هاتفه النقال هو الضوء الوحيد داخل السيارة. ضربت على زجاج النافذة بإصبعي. التفت إليَّ بدون أن يخفض زجاج النافذة.

تلفظت بكلمات: «هناك مشكلة، سيدي».

لم يفتح زجاج النافذة، ولم يخرج من السيارة. كان يلهو بهاتفه:

يضغط الأزرار ويبتسم. لا بد أنه يرسل رسالة نصية للآنسة أوما. بدت شفتاي مبتسمتين عندما ألصقتُهما بالزجاج الرطب.

ترك الهاتف. رفعت قبضتي وصرت أضرب على زجاج نافذته. فتح النافذة بنظرة استياء. أتى صوت ستينغ من خلال النافذة.

«ما الخطب، بالرام؟».

«سيدي، هل بالإمكان أن تنزل من السيارة، هناك مشكلة؟».

«أي مشكلة؟».

أبى جسده أن يتحرك! كان الجسد يعلم - إنه يعلم - على الرغم من أن العقل كان أغبى من أن يستنتج.

«إنها العجلة، سيدي. سأحتاج إلى مساعدتك. لقد علقت في الطين».

سرعان ما فاجأني وميض المصابيح الأمامية: كانت سيارة آتية على الطريق. تخطى قلبي نبضة من نبضاته. لكنها ما لبثت أن مرت بمحاذاتنا ونثرت المياه الموحلة عند قدمي.

وضع يدا على الباب وكان على وشك الخروج، ولكن كان شيء من غريزة البقاء لايزال يمنعه.

«إن المطر ينهمر، بالرام. أتعتقد أن علينا أن نطلب المساعدة؟».

تملص وتنحى عن باب السيارة.

«أوه، لا، سيدي. ثق بي. اخرج».

مازال يتلوى، ظل جسده يبتعد عني بقدر الإمكان. صرت أفكر، إنه يضيع مني، وهذا جعلني أقوم بفعل شيءٍ أعرف أنني سأكره نفسي بسببه، حتى بعد ذلك بسنوات. حقيقة، لم أود أن

أفعل هذا الشـــيء، لم أكن حقيقة أود أن يظن في الدقيقتين أو ثلاث الدقائق الباقية له أنني من ذلك النوع من السائقين - الذي يلجأ إلى ابتزاز سيده - لكنه لم يترك لي أي خيار آخر.

«لقد بدأت بخلق المتاعب منذ تلك الليلة التي ذهبنا فيها إلى ذلك الفندق في جانغبورا».

نظر إلى أعلى من هاتفه النقال.

«ذلك الفندق الذي عليه علامة T. أنت تذكره، سيدي، أليس كذلك؟» منذ تلك الليلة لم تعد هذه السيارة كما عهدناها».

انفرجت شفتاه، ثم أغلقهما. إنه يفكر: ابتزاز؟ أو مجرد إشارة ساذجة إلى الماضي؟ لا تعطه فرصة ليرتب أموره.

«اخرج من السيارة، سيدي. ثق بي».

أطاعني واضعا هاتفه النقال على المقعد. ملأ الضوء الأزرق داخل السيارة الداكنة لثانية واحدة، وبعدها انطفأ.

فتح الباب الأكثر بعدا عني وخرج بالقرب من الطريق. جثوت على ركبتي واختفيت وراء السيارة.

«تعـــال إلى هذا الجانب، ســـيدي. الإطـــار التالف على هذا الجانب».

أتى، آخذا طريقه من بين الطين.

«إنه هذا، ســـيدي، كن على حـــذر، هناك قنينـــة ملقاةٌ على الأرض». كان هناك كثير من النفايات الملقاة على الطريق الجانبي التي تجعل الأمر يبدو طبيعيا تماما.

«دعني أرمه بعيدا. هذا هو الإطار التالف، ســـيدي. أرجوك ألق نظرة عليه».

جثا على ركبتيه. نهضت واقفا، أحمل بيدي القنينة وراء ظهري وقد طويت ذراعي.

وفي الأسفل، كان رأسه ككرة سوداء، وفي السواد، رأيت خطا رفيعا من فروة رأسه لونه أبيض يقسم شعره بدقة، مؤديا إلى قمة رأسه، مثل الخط المصبوغ للطرق السريعة، النقطة التي ينتشر منها شعر الإنسان.

تحرَّكت الكرة السوداء؛ قطب وجهه ليحمي عينيه من رذاذ المطر، نظر إليَّ.

«يبدو أنها سليمة».

وقفتُ ساكنا مثل تلميذ في المدرسة قد أمسك به المدرس. فكرتُ: إن عقله الإقطاعي قد اكتشف الأمر. سيقف ويصفعني على وجهي.

ولكن ما جدوى أن تنتصر في المعركة عندما لا تعرف أساسا أن هناك حربا قائمة؟

«حسنا، أنت تعرف عن هذه السيارة أكثر مني، يا بالرام. دعني ألق نظرة أخرى».

أمعن النظر إلى إطار السيارة. ذلك الطريق السريع الأسود اللون ظهر ثانية أمامي، بالصبغ الأبيض للخطوط التي تؤدي إلى قمة الرأس.

«هناك حتما مشكلة، سيدي. كان يجب أن تغيِّر الإطار منذ فترة طويلة».

«حسنا، بالرام». لمس الإطار. «لكنني في الواقع أظن أن...».

هويت بالقنينة على رأسه. التهم الزجاج عظامه. ورحت أدكُّ

قمة رأسه ثلاث مرات ساحقا مخه من الداخل. إنها قنينة جيدة وقوية تستحق قيمة إعادة بيعها بجدارة.

سقط الجسد المصعوق في الطين. أطلق صوتا من شفتيه يشبه خروج الهواء من إطار السيارة.

وقعتُ على الأرض، كانت يداي ترتجفان، انزلقت القنينة من يدي وأصبح علي أن ألتقطها بيدي اليسرى.

وذلك الشيء الذي يصدر صوتا من شفتيه نهض على يديه وركبتيه؛ وبدأ يزحف حول نفسه في دوائر، كالذي يبحث عن شخص يحميه.

لماذا لم أكمم فمه وأتركه بين الشجيرات، صريعا وغائبا عن الوعي، حيث لا يستطيع أن يفعل أي شيء عدة ساعات بينما أنطلقُ أنا هاربا؟ سؤالٌ وجيه فكرتُ فيه مراتٍ عديدة ليلا بينما أنا جالسٌ في مكتبي أنظر إلى الثريا.

الإجابة الأولى المحتملة هي أنه بالإمكان أن يسترد وعيه وينزع كمامه ثم يستدعي الشرطة. لذا كان عليَّ أن أقتله.

الإجابة الثانية المحتملة هي أن أفراد أسرته كانوا سيقومون بالأعمال نفسها الشنيعة مع أسرتي، لذا كنت فقط أنتقم منهم سلفا.

أميلُ أنا إلى الإجابة الثانية أكثر.

ساويته بالأرض بوضع رجلي على ظهره وهو يزحف. جثوت على ركبتَي لأكون بالمستوى نفسه منه لأداء المهمة التالية. أدرت الجسد حتى يكون في مواجهتي. دُسْتُ بركبتي على صدره وفتحت ياقة قميصه ثم مسحت نحره حتى أحدد المنطقة.

عندما كنت صبيا في لاكشمانغهر وقد اعتدت أن ألهو بجسم أبي، تلك المنطقة التي تلتقـــي فيها الرقبة بالصدر، المكان الذي تبرز فيه كل الأوتار والشـــرايين، كانت هذه هي المنطقة المفضلة لدي. عندما لمســـت هذه المنطقة، ذلـــك التجويف في رقبة أبي، كنت قادرا على التحكم فيه، كان في إمكاني أن أوقف تنفسه بأن أضغط مرة واحدة بإصبعي عليه.

فتـــح ابن اللقلـــق عينيه، في اللحظة التـــي ثقبت فيها رقبته، وانفجر شريان حياته داخل عيني.

كنت أعمى. كنت رجلا حرا طليقا.

عندما مسحت الدماء عن عينَي، كان السيد آشوك قد انتهى. سالت الدماء من رقبته بسرعة.

أعتقد أن هذه الطريق التي ينحر بها المسلمون الدجاج.

لكن داء السل هو أسوأ طريقة للموت، أنا أؤكد لك ذلك.

بعد أن ســـحبت الجثة إلى حيث الشـــجيرات، غطست يدي ووجهـــي في ميـــاه الأمطار الموحلة والتقطـــت الصرة التي كانت بالقرب من قدمي، حيـــث القميص الأبيض ذو الأكمام القصيرة والذي يغطيه اللون الأبيض وبه فقط كلمة واحدة باللغة الإنجليزية، غيَّرت ملابسي. مددت يدي إلى العلبة المذهبة للمناديل الورقية، نظَّفـــت وجهي ويدَي. نزعت كل الملصقـــات للآلهة ورميتها على جثة السيد آشوك، قد تساعد روحه على دخول الجنة.

وبعدهـــا، دخلت الســـيارة وأدرت مفتاحها، ثم وضعت قدمي على دواســـة السرعة، أخذت الهوندا ســـيتي، أحسن السيارات، وأكثرهـــا إخلاصا وتعاونا في واحـــدة مـــن الرحـــلات النهائية.

بما أنه لم يكن أحدٌ بالسيارة، فقد مددت يدي اليسرى وأطفأت موسيقى ستينغ، ثم توقفت واسترخيت.

من الآن فصاعدا في إمكاني أن أستمع إلى الموسيقى للمدة التي أشاء.

في محطة القطار، بعد ثلاث وثلاثين دقيقة، كانت العجلات الملونة في آلات الحظ تتألق بأضوائها، وقفت أمامها، أحملق في وهجها ورفرفتها وإثارتها للدهشة، هل أعود لآخذ داهرام معي؟

لو تركته هناك الآن، فإن السلطة بالتأكيد ستعتقله بحجة أنه متواطئ مع القاتل. سيزجون به في السجن مع زمرة من الرجال المتوحشين، وأنت تعلم ما يحدث للصبية الصغار عندما يودَعون في أوكار من هذا النوع، يا سيدي.

بيد أني إن قطعت كل هذه المسافة إلى غورغاون، فإن أحدهم سيكتشف الجثة... وحينها كل هذا «ضيقتُ قبضتي على الحقيبة» سيذهب هباء. جثوت على أرض المحطة، مترددا. كان هناك صوت حاد على يساري. كان دلوٌ بلاستيكي يتحرك، كما لو أنه كائن حي، ثم قفز خارجا من الدلو طفل أسود انفرجت أساريره عن ضحكة. برز من الدلو مخلوق هزيل، طفلٌ ذكر. جلس على جانبي الدلو رجلٌ وامرأة من المشردين، غطتهما الأوساخ ينظران إلى البعيد بلا هدف. بين الأبوين المرهقين صارت لدى الطفل فرصة نادرة للعب بالماء ينثره على المارة. قلت له: «لا تفعل هذا، أيها الطفل الصغير». نثر الطفل مزيدا من الماء وصار يصيح بصوتٍ حاد مبتهجا في كل مرة ينثر الماء نحوي. رفعت يدي.

غطس في الدلو واستمر ينثر الماء من الداخل.

وضعــت يدي في جيوبي بحثا عن عملة من فئة روبية واحدة، تأكــدت من أنها لم تكن عملة من فئـــة روبيتين، ودحرجتها نحو الدلو.

تنهَّــدت، وقمــت من مكاني، ولعنت نفســي ثم ســرت خارج المحطة.

إنه يوم حظك السعيد، يا داهرام.

الليلة السابعة

هل تسـتطيع أن تسـمع هذا، يا سـيد جياباو؟ سـأرفع لك الصوت.

أعلن وزير الصحة اليوم خطة للقضاء على الملاريا في بانغلور بحلول نهاية العام. لقد أعطى التعليمات لكل المسؤولين المدنيين بـأن يعملوا من دون أخـذ عطلة حتى تصبح الملاريا شـيئا من الماضي. وسـيخصص مبلغ أربعة وخمسين مليون روبية للقضاء على وباء الملاريا.

وفي خبر آخر، أعلن رئيـس وزراء الدولة خطة للقضاء على سـوء التغذية في بانغلور خلال ستة أشهر. وصرح بأنه لن يكون هناك طفل واحد جائع في المدينة مع نهاية السـنة، وعلى جميع المسـؤولين أن يعملوا بإصرار لتحقيق هذا الهدف. وستخصص خمسة ملايين روبية للقضاء على سوء التغذية.

وفـي خبر آخر، صرح وزير الماليـة بأن ميزانية العام الحالي ستشـمل حوافـز خاصـة لتحويل قرانـا إلى جنة مـن التقنية المتطورة.

هذه هـي نوعية الأخبار التـي نقتات عليها مـن إذاعة «كل الهند»، ليلة بعد أخرى: وغدا عند الفجر سـتكون في الصحف أيضا. والناس تبتلع هذا الهراء ليلة بعد ليلة وصباحا بعد صباح. شيءٌ لا يصدَّق، أليس كذلك؟

يكفي الحديث عن الإذاعة. لقـد أطفأت المذياع. دعني الآن أنظر إلى الأعلى حيث الثريا لأقتبس منها الإلهام.

وِن!

صديقي القديم!

سنختم الليلة هذه القصة الرائعة. في أثناء قيامي بتمرينات اليوغا صباح اليوم نعم هذا صحيح، أستيقظ في الساعة الحادية عشرة صباحا كل يوم ومباشرة أمارس اليوغا لمدة ساعة، بدأتُ أسترجع تطورات قصتي، وتحققتُ من أني قد انتهيت من سردها تقريبا. كل ما تبقى من القصة هو كيف تحولت من مجرمٍ مطارَد إلى دعامة راسخة في المجتمع البانغلوري.

بالمناسبة، سيدي، مادمنا نتحدث عن اليوغا أتسمح لي أن أقول إن ساعة من التنفس العميق، اليوغا والتأمل في الصباح تشكل فعلا بداية يوم مثالية للمقاول. كيف لي أن أواكب ضغوط هذا العمل المزعج من دون ممارسة اليوغا، لا أدري. عليك أن تجعل اليوغا إجبارية في المدارس الصينية، هذا ما أقترحه عليك.

لكن لنعد الآن إلى القصة.

أولا، أود أن أوضح شيئا عن حياة الهارب.

أن تكون رجلا هاربا لا يعني دائما أنك خائف، الهارب له أيضا نصيب من المتعة.

في ذلك المساء بينما كنت أكنس بقايا قطع الزجاج من قنينة شراب في موقف السيارات، فكَّرت في خطة للوصول إلى بانغلور. لن يكون ذلك على قطار مباشر كلا. قد يراني أحدهم، ومن ثم تعرف الشرطة إلى أين توجهت. بدلا من هذا، سأقوم برحلة التنقل من قطار إلى آخر لتكون طريق وصولي إلى بانغلور متعرجة.

على الرغم من أن جدولي الزمني للوصول إلى دهرام قد

انقلب رأسـا على عقب فقد وجدته نائما في الناموسـية، حيث أيقظته قائلا له إننا سـنذهب في عطلة إلى الجنوب، وسـحبته خارج الناموسـية وبصعوبة حملت الحقيبة الحمراء في يدٍ وفي اليد الأخرى أمسـكت بيـد دهرام « كونَ محطـة القطار مكانا محفوفا بالخطر بالنسبة إلى صبي صغير، كما تعلم هناك الكثير من الأشـخاص المنحرفين »، ورحتُ أسـتخدم الطريقة نفسـها الملتوية متجها إلى جنوب دلهي.

وفي اليوم الثالث من السفر بهذه الطريقة، الحقيبة الحمراء بيـدي، وصلت إلى حيدر آباد وانتظرت فـي الطابور عند محل الشـاي في المحطة لأشـتري كوبا من الشـاي قبل أن يرحل بنا القطـار. «كان دهرام يحرس المقعد في المقصورة ». كانت هناك سـحلية في أعلى دكـان الشاي، وكنـت أنـظر إليها بحذر حتى لا تتحرك من مكانها قبل أن يأتي دوري لأخذ الشاي.

دارت السحلية إلى اليسار وتحركت بسرعة فوق قطعة كبيرة من الورق ألصِقَتْ على الحائط، وقفتُ من دون حراك لبرهة من الزمن ثم انحرفت جانبا.

كانت القطعة الكبيرة من الورق هي ملصق الشـرطة، ملصق الشـرطة خاصتي. لقد وصلَـتْ بالفعل إلى هنـا. نظرت إليها مبتسما بفخر.

ابتسـامة دامت لثانية واحدة فقط. لسبب غريب سترى كيف أن الأمور تتجز في الهند بشكل فوضوي. الملصق الذي يخصني قد ألصِـقَ مع ملصقٍ آخر يخص رجلين من كشـمير، اثنان من الإرهابيين مطلوبان من الشرطة لضلوعهما في التفجير أو شيء

آخر من هذا القبيل.

عندما تنظر إلى الملصقَين، فإنك في الأغلب ستخال أنني أنا أيضا إرهابيٌّ. كم يزعجني هذا.

أدركــت أنني مراقَب. كان هناك شــخصٌ مــا يضع يده وراء ظهــره ينظر إلى الملصق، ثم ينظر إلــيَّ باهتمام. بدأت أرتجف. ابتعــدت عن الملصق، لكنني كنت قد تأخــرت. في اللحظة التي رآني فيها على وشك مغادرة المكان، أسرع مقبلا عليَّ، أمسك بي من معصمي، وحملق في وجهي.

ثم قال: «ما الذي يقوله الملصق؟ هذا الملصق الذي تقرأه؟».

«اقرأه بنفسك».

«لا أستطيع».

عرفــتُ الآن لماذا أقبل عليَّ مســرعا. إنها اســتماتة الرجل الأمــي للفت انتباه الرجل المتعلم. ومن لكنته عرفتُ أنه أيضا من «الظلام».

قلــت: «إنها قائمة المطلوبين للشــرطة لهذا الأســبوع. هذان الرجلان إرهابيان من كشمير».

«ما الذي فعلاه؟».

«لقد فجَّرا مدرسة. قتلا ثمانية أطفال».

«وهذا الشخص؟ هذا ذو الشاربين؟». ضرب بمفاصل أصابع يده اليمنى على الصورة.

«إنه الشخص الذي أمسك بهما».

«كيف قام بهذا العمل».

حتــى أوهمه بأنني أقرأ الكلمات المطبوعة على الملصق المعلَّق

على الحائط، مِلتُ بنظري إلى الملصقين مقلبا شفتيّ.
«هذا الشـــخص كان سائقا. يقول هنا في هذا المكان إنه كان في سيارته وهذان الإرهابيان قد أقبلا عليه».
«ثم ماذا».
«يقول إنه قد تظاهر بأنه لا يعرف أنهما إرهابيان، واصطحبهما في جولة في دلهي ثم أوقف الســـيارة في منطقة مظلمة وكســـر قنينة وجز رقبتيهما بها. رســـمت بإبهامي خطا وهميا كما يُجَز رقبتين سريعا.
«من أي نوعٍ كانت القنينة؟».
«قنينة مشروب إنجليزي. تميل إلى الصلابة إلى حدٍ ما».
قـــال: «أعرف هذا. فقـــد كنت أذهب إلى محل المشـــروبات الإنجليزية لأشتري منه لسيدي كل يوم جمعة مشروبه المفضل».
«سِـــمير نوف»، قلت هذا وهو لم يكن يستمع إليَّ. كان يحدق في الصورة التي في الملصق. فجأة وضع يده على كتفي.
«أتعرف من يشبه هذا الشخص الذي في الملصق؟».
سألته: «من؟».
انفرجت أساريره.
«أنا».
نظرت إلى وجهه ثم إلى الصورة.
«هذا صحيح». قلت هذا وأنا أربت على ظهره.
لقد قلت لك سابقا: يمكن أن يكون ذلك الوجه لنصف الرجال في الهند.
وبعـــد ذلك، شـــعرت بالحـــزن لذلك الرجل الأمـــي، متخيلا

معاناته التي تشبه معاناة أبي في محطات القطار عندما يسخر منه الغرباء ويُخدَع واشـــتريت له قدحا من الشـــاي قبل أن أعود إلى القطار.

* * *

سيدي:

أنا لســت سياســيا أو برلمانيا. ولســـت من أولئــك الرجال الاســتثنائيين الذين يقتلون الناس، ويستمرون في حياتهم وكأن شيئا لم يكن. لقد قضيت قرابة أربعة أسابيع في بانغلور لتهدئة أعصابي.

خلال الأربعة أسابيع قمت بالشيء نفسه مرة بعد مرة. أترك الفندق إلى مكان صغير مهمل بقرب محطة القطار الذي اتخذته مسكنا بعد أن أودعت خمسمائة روبية كل يوم في الثامنة صباحا وأهيم على وجهي لأربع ساعات بحقيبة مملوءةً بالأوراق النقدية. «لم أجرؤ على ترك الحقيبة في غرفة الفندق» قبل أن أعود إلى فترة الغداء.

كنــا نتناول الطعام أنا ودهـــرام معا. لا علمَ لي بما كان يعمله في الصباح ليبقى مشــغولا، إلا أنني كنـــت أرى معنوياته عالية. كانت هـــذه العطلة الوحيدة التي حظي بهـــا طوال حياته. كانت ابتساماته تمنحني الراحة.

كان سعر وجبتنا أربع روبيات. كان الطعام طيبا في الجنوب، على الرغم من أنه غريب، الخضراوات تقطع وتقدم على شـــكل كاري ســـائل. ثم صعدت إلى غرفتي ونمت. في الساعة الرابعة نزلت وطلبت بسكويت «بارل ميلك» مع الشاي، ذلك لأنني لم أكن

قد تعلمت بعد شرب القهوة.

كنت أتوق إلى تجريب القهوة. لاحظ، الفقراء في الشمال يشربون الشاي والفقراء في الجنوب يشربون القهوة. من قرر أن تكون الأمور على هذا النحو، لا أدري، ولكن الأمور تسير هكذا. لذا كانت المرة الأولى التي كنت أشم فيها رائحة القهوة يوميا.

صرت أموت شوقا لتجريب القهوة. لكن قبل أن يكون في إمكانك أن تشربها، عليك أن تعرف كيف تشربها. هناك أسلوب وطريقة معينة تتعلق بها والتي كانت تسحرني. تقدَم القهوة في كوب يثبت على صحن، وبعد ذلك تصب بكميات محددة وتُشرب منها رشفات بسرعة محددة. كيف كانت تُصَبّ وكيف كانت تُرتشَف، لم أكن أعرف. لفترة ما من الزمن كنت أراقب من كثب.

أخذتُ من الوقت أسبوعا لأستوعب أن كل واحد منهم يشرب القهوة بطريقة مختلفة. أحد الرجال سكب القهوة كلها في قدحه ذي الصحن دُفعة واحدة؛ وآخر لم يستخدم الصحن على الإطلاق.

قلت لنفسي: كل الذين هنا غرباء. كلهم يشربون القهوة للمرة الأولى.

كان هذا جانبا آخر جديرا بالاهتمام لمن يريد أن يزور بانغلور. كانت المدينة مزدحمة بالغرباء. لا أحد يلاحظ الآخر.

قضيت أربعة أسابيع في ذلك الفندق بالقرب من محطة القطار، لا عمل لي. إني أعترف بأنه كانت هناك بعض الشكوك في ذهني. ألم يكن من الأفضل لي لو أنني ذهبت إلى مومبي

بدلا من بانغلور؟ لكن الشـرطة كانت سـتعرف مكاني فورا، في الأفلام كل القتلة يذهبون إلى مومبي، أليس كذلك؟

كلكتا! كان عليَّ أن أذهب إلى هناك.

قـال دهرام ذات صبـاح: «خالي، أنت تبـدو مكتئبا. لنخرج إلى نزهة». سـرنا عبر الحديقة حيث السـكارى يستلقون على المصاطب في وسـط منطقة كسـتها الأعشـاب البرية العالية. خرجنا إلى طريق عريضة ؛ وفي الجانب الآخر من الطريق بناية ضخمة من حجر وفي قمتها أسد ذهبي.

«ما هذا المبنى، يا خالي؟».

«لا أعلم، دهرام. لا بد أنه المكان الذي يعيش فيه الوزراء في بانغلور».

رأيت فوق الجزء المثلث في أعلى المبنى شعارا:

عمل الحكومة هو من عمل الله

«أنت تبتسم، يا خالي».

«صحيح، درام. أنا أبتسم. أظن أننا سنستمتع بوقتٍ طيب في بانغلور»، قلت هذا وغمزت له.

انتقلنا من الفندق إلى شـقة بالإيجـار. لقد حان الوقت لكي أتخذ عملا لنفسـي في بانغلور كان عليَّ أن أجد طريقة لمواكبة الحياة في المدينة.

حاولت أن أستمع لصوت بانغلور، كما كنت أستمع لدلهي.

مشـيت على طريق «م. ج.» وجلست في مقهى «يوم القهوة»، بطاولاتـه الموضوعـة في الهواءالطلـق. كان معي قلـم وورقة، وشرعت أكتب كل ما كنت أستمع إليه.

لقد أتممت برنامج الحاسوب ذاك في دقيقتين ونصف.

عَـرَضَ أمريكيٌّ عليَّ اليوم مبلغ أربعمائـــة ألف دولار كبداية لكنني قلت له: «هذا ليس كافيا!».

هل شركة هيوليت باكارد أفضل من شركة IBM؟

بدا لي أن كل ما في المدينة ينتهي إلى شيءٍ واحدٍ لا غير.

التعاقــد الخارجــي. والذي يعنــي أن تقــوم بالأعمال داخل الهند لمصلحة الأمريكان عن طريق الهاتف. كل شــيءٍ ينبع منها: العقارات، الثروة، النفوذ، الجنس. لذا عليَّ أن أنضم إلى التعاقد الخارجي، بطريقة أو بأخرى.

في اليوم التالي، أخذتُ الريكشــو الآلي وذهبت باتجاه مدينة الإلكترونيات. وجدت على قارعة الطريق شــجرة بانيان، جلست تحتها أراقب المباني حتى المساء، ورأيت السيارات الرياضية ذات الدفع الرباعي تتســابق في الدخول إليهــا؛ ورحت أراقب حتى الثانية صباحا، عندما أخذت السيارات تخرج من المباني.

وفكرت، هذا هو، هذا الذي يناسبني.

دعني أشرح لك، ســعادة رئيس الوزراء. الرجال والنساء في بانغلور يعيشون كما تعيش الحيوانات في الغابة، ينامون صباحا ويعملون ليلا حتى الثانية أو الثالثة أو الرابعة أو حتى الخامســة صباحــا، يعتمد هذا على أوقات رؤســائهم فــي الجانب الآخر مــن العالم، أمريكا. الســؤال الكبير هو: كيــف للفتية والفتيات خصوصا الفتيــات أن يصلوا إلى أماكن العمل في آخر المســاء ومن ثم يعودون في الثالثة صباحا إلى منازلهم؟ بما أنه لا يوجد نظــام الحافلات الليلية فــي بانغلور ولا القطــارات الليلية مثل

مومبي. لن تكــون الفتيات في مأمنٍ عند تنقلهن عبر الحافلات والقطارات. إن الرجال في المدن، بكل صراحة، كالحيوانات.

وهنا يأتي دور المقاول.

الخطــوة التاليــة كانت ذهابــي إلى وكالة تايوتــا كاليس في المدينــة وطلبي من الوكيل بصوتي العــذب: «أود أن أقود إحدى سياراتكم». نظر إليَّ الوكيل حائرا.

لم أصدق نفســي أني قلت هذا. عندمــا يكون الخادم دائما خادمــا، تبقى الغريزة حاضرة هنــاك، في أعماقه، في مكانٍ ما بالقــرب من قاعدة عموده الفقري « لــو أنكَ أتيــت إلى مكتبي، يا ســيدي رئيس الوزراء، ربما كنت أنكب على قدميك لأدلكهما لك فورا!».

قرصت كفيَ الأيســر. ابتسمت وأنا لا أزال أقرص كفي وقلت بصوتٍ أجش وعميق:

«أريد أن أستأجر سياراتكم».

* * *

آخــر مرحلة فــي قصة نجاحــي المذهلة، يا ســيدي، كانت الانتقال من مقاول اجتماعي إلى مقاول تجاري. وهذه النقلة لم تكن سهلة أبدا.

لقــد هاتفتهم جميعــا، واحدا تلو الآخــر، كل مديري مكاتب الشركات للتعاقد الخارجي في بانغلور. هل تحتاجون إلى سيارت أجرة لنقــل الموظفين من بيوتهم إلى مقار أعمالهم مســاء؟ هل تحتاجون إلى سيارات أجرة لتوصيل الموظفين إلى بيوتهم ليلا؟

وأنت طبعا تعرف إجاباتهم جميعا.

إحدى السيدات كانت طيبة بما فيه الكفاية لتشرح لي:

«يؤســفني أن أقول لك: لقد فات الأوان. كل مؤسسة تجارية في بانغلور لديها الآن خدمة توصيل موظفيها ليلا».

كان هذا يشبه بداياتي في دهانباد، أصابني الاكتئاب. ظللت مستلقيا في السرير طوال اليوم.

تساءلت بيني وبين نفسي، ما الذي كان سيفعله السيد آشوك في هذه الحالة؟

ســرعان ما تذكرت أنني لســت بمفردي هنــا، لدي من هو بجانبي. بل هناك الآلاف بجانبي!

ســترى أصحابي عندما تــزور بانغلور، رجــالٌ ممتلئون ذوو كروش متخمة، تتأرجح أعــواد الخيزران في أيديهم على بريدج روود، يلكزون ويضايقون الباعة ويرغمونهم على دفع المال.

أنا أتحدث هنا عن الشرطة، طبعا.

في اليــوم التالي، دفعت المال لمترجم محلــي، أنت تعلم، وأنا واثق، أن الناس في الشــمال والجنوب في بلادي يتحدثون لغات مختلفــة،، وذهبت إلى أقــرب مركز للشــرطة. وبيدي الحقيبةً الحمراء. تصرفت كرجلٍ مهم، وتأكدت أن أفراد الشــرطة رأوا الحقيبــة الحمراء وذلك بالتلويح بها كثيرا في يدي. ثم أعطيتهم البطاقة الشــخصية والتي كانت قد طُبِعت للتو. وطلبت بإصرار أن أرى، الرجــل الكبيــر، المفتش. في نهاية المطــاف، أدخلوني مكتبه، إن خدعة الحقيبة الحمراء انطلت عليهم.

جلــس الرجل الكبير في مكتبٍ ضخم، تلتمع الشــارات على بزتــه الكاكية اللون وعلامات حمــراء لدواعي الدين قد ظهرت

علـــى جبينه. فـــي الخلف كانت ثلاث صور للآلهة ولكن ليســـت الصورة التي كنت أبحث عنها.

أوه، هناك صورة لغاندي أيضا، في الزاوية.

بابتسامة عريضة وتحية احترام (النماستا) سلمت له الحقيبة الحمراء. فتحها بحذر.

قلت بواسطة المترجم: «أريد أن أقدم شيئا بسيطا لـرد الجميل إليك».

إنه لأمر مدهـــش. في اللحظة التي تكشـــف عن النقود، كل الناس تستطيع أن تعرف لغتك.

«رد الجميل مقابل أي شيء؟».

سأل المفتش المترجم بالهندوستانية، وهو يحدق داخل الحقيبة بعين واحدة.

«لكل ما ستقدمه لي، يا سيدي».

عد النقود عشـــرة آلاف من الروبيات، ســـمع مـــا كنت أريده وطلب مضاعفـــة المبلغ. أضفت القليل، وســـعد بذلك. أنا أقول لـــك، يا معالي رئيس الـــوزراء، كان الملصق الذي يخصني والذي رأيته مـــن قبل موجودا هناك طوال الوقـــت الذي كنت أتفاوض معه. ذلك الملصق الذي يشـــير إلى أنني مطلوب للعدالة ويحمل صورتي الصغيرة والقذرة.

بعد يومـــين، اتصلتُ بتلك المرأة الطيبة في شـــركة الإنترنت والتي كانت قد خذلتني، وســـمعت حكاية مروعة. لقد اضطربت خدمة سيارات الأجرة. فقد كشـــفت مداهمة للشرطة أن عددا كبيرا من السائقين لا يحملون إجازات قيادة.

قلتُ: «أنا آسف، سيدتي، أنا أتعاطف معك. فضلا عن ذلك، أنا أقدم لك شركتي. سائقو النمر الأبيض».

«هل جميع السائقين في شركتك لديهم إجازات قيادة؟».

«بالطبع، يا سيدتي، باستطاعتك الاتصال بمركز الشرطة للتأكد».

بالفعل تأكدَتْ من الأمر وعادت للاتصال بي. لا بد أن الشرطة قد لمَّعت صورتي أمامها. وهكذا حصلتُ كما يقول الإنجليز على «الانطلاقة الأولى لمشروعي الجديد».

كنت في الأيام الأولى أحد السائقين، ولكنني تخليت عن قيادة السيارات بعد ذلك. لا أظن أنني استمتعت بالقيادة يوما في حياتي، كما تعلم. المحادثة أمتع منها. الآن، الانطلاقة الأولى قد تنامت حتى أصبحت تجارة واسعة. لدينا ستة عشر سائقا يعملون في ورديات على ست وعشرين مركبة. أجل، هذا صحيح، بضع مئات من الروبيات التي تعود إلى شخص آخر، وكثير من العمل الدؤوب، يكون له تأثير السحر في هذا البلد. اجمع ما أملكه من العقارات و حساباتي المصرفية، سترى أنني أمتلك ما مقداره خمسة عشر ضعف المال الذي استدنته من السيد آشوك. تحقق بنفسك من هذا في موقعي الإلكتروني. وشاهد شعاري باللغة الإنجليزية: «إننا ندفع بالتكنولوجيا إلى الأمام». انظر إلى صور أسطولي: ست وعشرون سيارة تويوتا كاليس جديدة وبراقة، بمكيفات هواء بالكامل لشهور الصيف الحارة، كلها قد خصصت بموجب عقد لأشهر شركات التكنولوجيا. إذا أعجبتك سياراتي ذوات الدفع الأمامي، وإذا أردت توصيل

الفتيــة والفتيــات في مركز الاتصــالات التابع لــك إلى بيوتهم بأسلوبٍ حضاري، فعليك أن تضغط على المكان المكتوب فيه:
اتصلً بآشوك شارما الآن!

أجل، آشــوك! هذا ما ســميتُ به نفســي هذه الأيام، آشوك شارما، مقاول هندي من الشمال، استقر في بانغلور.

لــو كنتَ الآن جالســا معي تحت هذه الثريــا، لأطلعتك على كافة أســرار المهنة خاصتي. كان يمكنــك أن تنظر عن كثب إلى شاشــة حاســوبي المحمول ماركة ماكنتوش وترى صور سياراتي ذوات الدفع الرباعي، والسائقين، والمرائب، والميكانيكيين، وأفراد الشرطة الذين قد رشوتهم.

جميعهــم تابعون لي أنا مونا، الذي كان قــدره أن يكون يوما صانع حلوى!

ســترى أيضا صور صبيتي، الستة عشــر كلهم. كنتُ يوما ما سائقا لسيد، ولكن الآن أنا سيد السائقين. أنا لا أعاملهم معاملة الخــدم، لاً أصفعهم، لا أضربهم، ولا أســخر من أي أحد منهم. أنا لا أهين أيا منهم، وأســميهم «عائلتي». هم موظفون لدي وأنا رئيســهم، هذا كل ما في الأمر. أجعلهم يوقِّعون معي عقدا، وأنا أوقِّع معهــم أيضا، وكلا الطرفين عليه الالتزام بهذا العقد. هذا كل مــا في الأمــر. متى ما انتبهوا إلى الطريقــة التي أتكلم بها، والطريقة التي ألبس ملابســي بهــا، والطريقة التي أحافظ بها على نظافة الأشــياء من حولي، فسيتطورون في الحياة. وإن لم يفعلوا فســيبقون ســائقين طوال حياتهم. أنا أترك الخيار لهم وحدهم. عندما ينتهون من إنجاز أعمالهم، أصرفهم من المكتب:

لا دردشة ولا قدح من القهوة معهم. لا يبقي النمر الأبيض عنده صديقا، إنه أمرٌ محفوفٌ بالمخاطر.

الآن، علـــى الرغـــم من قصة نجاحي المذهلـــة، فأنا لا أرغب فـــي القطيعة مع الأماكن التي تلقيـــت فيها التعليم الحقيقي في الحياة.

الطريق والرصيف.

أســـير حول بانغلور في المســـاء، أو في الساعات الأولى من الصباح، فقط لأستمع للطريق.

ذات مـــرةٍ، وأنـــا بالقرب من محطة القطـــار، رأيت عددا من العمـــال قد تجمعوا أمام جدارٍ يتحدثـــون بصوتٍ خفيض. ظلوا يتكلمـــون بلغةٍ غريبة؛ كانوا السًـــكان المحليين. لمْ يكن هناك داعٍ لكي أفهم الكلمات حتى أســـتوعب ما يقولونـــه. إن المدينة التي ينصَبُّ فيها أناسٌ من الخارج، يكون السكان المحليون هم المنسيين في المدينة.

كانوا يقرأون شـــيئا ما على الجـــدار. أردتُ أن أعرف ما هو هذا الشـــيء، لكنهم توقفوا عن الكلام واحتشـــدوا أمام الجدار. كان عليَّ أن أظهر لهم شـــيئا من التهديد بأني سأتصل بالشرطة إن لم يتفرقوا ويتركوني أرى ما كانوا يقرأونه.

صورة مطبوعة ليدين تكسر قيودها:

الاشتراكي الكبير آتٍ إلى بانغلور

وصل بعد أسبوعين. وقد رُتبت له حملة انتخابية كبيرة وألقى خطابـــا مثيرا عن النار والدم، وتطهيـــر البلاد من الأغنياء ذلك لأنه لن تبقى مياه عذبة للفقراء بعد عشر سنوات من الآن حيث

درجات الحرارة في ازدياد مطرد في العالم. وقفت في الخلف أنصت لخطبته. صفق الناس بجنون عندما انتهى. هناك كمٌّ من الاستياء في المدينة، بالتأكيد.

اجعل آذانك صاغية في أي مدينة أو قرية بالهند وستسمع أحاديث تخلق الإثارة، إشاعاتٍ وتهديدات بالعصيان المدني. رجالٌ يجلسون تحت أعمدة الإنارة ليلا ويقرأون، وآخرون يتجمهرون ويتناقشون فيما بينهم ثم يرفعون أصابعهم إلى السماء. في ليلةٍ ما، تُرى هل سيتحدون بعضهم مع بعض، هل سيدمرون حظيرةً الدواجن؟

ها!

ربما تكون هناك ثورة كل مائة عام لتحرير الفقراء. لقد قرأت هذا في صفحة من كتاب نصوص قديم، تلك الصفحات القديمة التي تلف بها السموسا الدهنية عند أكشاك بيع الشاي. لاحظ، هناك أربعة رجال في التاريخ قادوا ثوراتٍ ناجحة لتحرير العبيد وقتلوا أسيادهم، هذه الصفحة تقول:

الإسكندر الأكبر.

إبراهام لينكولن.

ماو من بلدك أنت.

ورجلٌ رابع. ربما يكون هتلر، لا أتذكر. لكنني لا أعتقد أن هناك رجلا خامسا يمكن أن يضاف إليهم في القريب العاجل.

ثورة هندية؟

كلا، يا سيدي. لن يحدث هذا الشيء. فالناس في هذا البلد مازالوا ينتظرون حربا لتحريرهم تأتي من مكانٍ ما، من الغابات،

من الجبال، من الصين، أو من باكستان. وهذا لن يحدث أبدا. كل رجلٍ عليه أن يصنع مدينته المقدسة بنفسه.

يا شباب الهند كِتاب الثورة يقع عند تجويف بطونكم. أخرجوه ثم اقرأوه بدل الجلوس أمام شاشات التلفزيون الملونة ومشاهدة لعبة الكريكت ودعايات الشامبو.

بالنسبة إلى دعايات الشامبو، معالي رئيس الوزراء، عليَّ أن أشير إلى أن الشعر ذا الصبغة الشقراء يصيبني بالغثيان الآن. لا أظن أنه صحي للمرأة أن تصبغ شعرها بهذا اللون. أنا لا أثق بالصور التي أراها في التلفزيون أو في الخارج على شكل ملصقات للنساء ذوات البشرة البيضاء والتي تراها في جميع أرجاء بانغلور. أنا أقول من منطلق خبرتي الآن، منذ قضاء وقتي في الفنادق ذات الخمس نجوم. (هذا صحيح، يا سيد جياباو: أنا لم أعد أتردد على «منطقة الضوء الأحمر». ليس من الصواب أن تبيع وتشتري في النساء وهن في أقفاص الطيور وتعاملهن كالحيوانات. أنا أشتري فقط الفتيات اللواتي أجدهن في الفنادق ذات الخمس نجوم.

وبناء على خبرتي، الفتيات الهنديات هن الأفضل.

حسنا، إنهن ثاني أفضل الفتيات. صدقني، يا سيد جياباو، إنه منظر مثير بالنسبة إليك كرجل في بانغلور وأنت ترى ذلك الزوج من العيون النيبالية للفتيات تطل عليك بوميضٍ من المظلة السوداء لعربات الريكشو الآلية.

في الواقع، عند رؤية هؤلاء النسوة ذوات الشعر الأشقر

ستكتشف أن بانغلور قد أُتخِمَت بهن هذه الأيام وقد أقنعتني بأن الناس ذوي البشرة البيضاء في طريقهم إلى الزوال. كلهن يظهرن نحيلات في الغاية، سقيمات جدا. وليس في مقدورك أن ترى واحدة ببطنٍ متناسق. لذا أنا أضع اللوم على رئيس أمريكا؛ بأن جعل اللواط أمرا مشروعا في بلاده؛ صار الرجال يتزوجون الرجال بدلا من النساء. لقد سمعت هذا من الإذاعة. سيؤدي هذا إلى انحلال الجنس الأبيض. إلى جانب كونهم يستخدمون الهاتف النقال بكثرة، مما يدمر عقولهم. إنها باتت حقيقة معروفة. الهواتف النقالة تسبب السرطان وتقلص من رجولتك؛ اخترعها اليابانيون لكي يقضوا على عقل وخصوبة الرجل الأبيض في وقت واحد. اختلستُ السمع ذات مرة عند موقف الحافلة ليلا وعرفت هذا الأمر. حتى ذلك الحين كنت فخورا بهاتفي النقال «نوكيا»، أستعرضه أمام فتيات مركز الاتصالات، اللواتي كنت أشعر بالإثارة اتجاههن. ولكنني سرعان ما رميته بعيدا. لذا أي مكالمة تريد أن تجريها معي يجب أن تكون عن طريق الخط الأرضي. مع أن هذا يضر بتجارتي ولكن عقلي أكثر أهمية منها، سيدي إنه الشيء الوحيد الذي يمتلكه الرجل ذو التفكير في هذا العالم.

سيزول الجنس الأبيض في الفترة التي أكون فيها على قيد الحياة. هناك السود والحمر أيضا، لكن ليس لدي أي فكرة عما يرمون إليه للمستقبل، لم أسمع عنهم شيئا في الإذاعة. تقول نبوءتي المتواضعة: خلال العشرين سنة القادمة، سنعتلي نحن فقط الجنس الأصفر والجنس البني قمة الهرم، وسنحكم العالم

أجمع.

فليحفظ الله الجميع.

* * *

الآن عليَّ أن أشـــرح لك ســـبب ذلك الانقطاع عن سرد قصة حياتي منذ ليلتين سابقتين.

ســيعينني هذا أيضا لأســلط الضوء على أوجه الاختلافات بين بانغلور ولاكشــمانغهر. لتعلم، يا ســيد جياباو، أنه ليس كما تظــن أنك تأتي إلــى بانغلور وتجد الناس هنــا يتحلون بأخلاقٍ عالية واســتقامة. لهذه المدينة حصيلة من السفاحين المحترفين والسياسيين أيضا. الاختلاف يكمن فقط في أنه هنا للمرء خَيارٌ فإذا أراد أن يكون صالحا، فسيكون صالحا. أما في لاكشمانغهر، فلــن يكون له حتى الخَيار. هذا هو الفرق بين هذه الهند والهند الأخرى: الخيار.

تصور، ليلة البارحة، كنت جالسا هنا أحكي لك قصة حياتي، وحينهــا رن الهاتــف الأرضي. بينما أنــا أدردش معك، التقطتُ سماعة الهاتف وسمعت صوت محمد آصف.

«سيدي، هناك مشكلة».

كان هذا عندما توقفت عن التحدث معك.

ســألته: «أي نوع من المشاكل؟». كنت أعرف أن محمد آصف كان في الخدمة تلكَ الليلة، لذا جهَّزت نفسي لتلقي أسوأ خبر.

ســاده الصمت، ثم قال: «كنت أقِل الفتيات إلى بيوتهن عندما اصطدمتُ بصبي على دراجة هوائية. لقد مات، سيدي».

قلت له: «اتصِل بالشرطة فورا».

«لكن سيدي أنا السبب. أنا الذي اصطدمت به».

«لهذا السبب في حد ذاته عليك أن تتصل بالشرطة».

كانت الشـــرطة قد وصلــت عندما أتيت إلـــى موقع الحادث بعربة نقل مقصورة. توقفت سيارة الكاليس على جانب الطريق؛ ومازالت الفتيات جالسات في السيارة.

هناك جســـدٌ، جســـد الصبـــي، ملقى علـــى الأرض مضرجا بالدماء.

كانت الدراجة الهوائية على الأرض مهشمة وملتوية.

على جانب الطريق، وقف محمد آصف يهز رأسه يصرخ فيه أحدهم، يصرخ بســـخطٍ قاهر لا يمكن أن يكون إلا لشخصٍ من أحد أقارب الصبي.

عملَتْ الشرطة على احتواء الموقف. أومأ برأسه عندما رآني فنحن الآن يعرف كلٌ منا الآخر جيدا.

«هذا أخـو الصـبي الميت، ســـيدي»، همس في أذني. «هو فـــي غـــايـــة الغضـــب. لم يكن في اســـتطاعتي أن أبعده من هنا».

هززت محمد آصف مخرجا إياه من حالة الفزع الشديد.

«خذ ســـيارتي وأوصل هـــؤلاء الفتيات إلـــى منازلهن قبل كل شيء».

أردفـــت قائلا بصوتٍ عالٍ: «دع مســـتخدمي يذهب، عليه أن يقـــل الناس إلى منازلهـــم. أيٌ إجراءٍ ســـتتخذه في هذا الصدد ستتخذه معي أنا».

«كيف لك أن تخلي سبيله؟»، صرخ أخو الصبي الميت في الشرطي.

قلــت لــه: «التفت إلــيَّ، يا بني. أنـــا صاحب هــذه المركبة. مشـــاجرتك تكون معي أنا وليس مع هذا السائق، فقد كان يتلقى الأوامر مني بأن يقود بأقصى ســـرعة لديـــه، فالدماء الآن على يـــدي أنا وليس يده. هؤلاء الفتيات عليهن الذهاب إلى منازلهن. تعال معي إلى مركز الشـــرطة أنا ســـأقدم نفسي كفدية. دعهم يذهبوا».

قام الشـــرطي بلعب دوره آخذا جانبي. «هــذه فكــرة صائبة، يا بني. يجب علينا تسجيل هذه القضية في مركز الشرطة».

بينما تركت الأخ ينشـــغل في إجـــراءات المرافعة، دخل محمد آصـــف والفتيات العربـــة وانطلقوا بعيدا. كان هـــذا هو الهدف الأول: توصيل الفتيات إلـــى منازلهن. فقد كنت قد وقَّعت عقدا مع شركتهن، وعليَّ الالتزام به.

ذهبـــت إلى مركز الشـــرطة مع شـــقيق الصبـــي الميت. قدم لي أفراد الشـــرطة المناوبة ليلا القهوة. ولـــم يقدموها له. نظر إلـــيَّ بغضب بينما كنت التقطت القـــدح؛ كان يبدو عليه أنه على استعداد لأن يمزقني إربا إربا. رشفت قهوتي.

قال أحد رجال الشرطة: «سيحضر مساعد المفوض القانوني بعد خمس دقائق».

سأل أخو الصبي الميت: «هل هو نفسه الذي سيسجل القضية؟ لأنه إلى الآن لم يقم أحدٌ بتسجيل القضية».

رشفت مزيدا من قهوتي مرة ثانية.

لقد أنفقت على مســـاعد المفوض القانوني الذي كان يجلس في المركز ليغدو سلســـا في مثل هذه الأمور. وحدث أن أخرجني

من مأزقٍ ذات مرة. إنه من أسوأ الرجال حيث لا عمل لديه سوى ابتزاز المال من أي شخص يحضر إلى مكتبه. حثالة.

لكنه حثالة تخصني.

وجل قلبي عند رؤيته. لقد قطع طريقا طويلا ليصل إلى المركز لكي يأخذ بيدي. هناك شرف بين اللصوص كما يقولون. تفهَّم الموقف فورا. تجاهلني وراح يكلم أخا الصبي: «ما الذي تريده؟».

رد الأخ: «أريد أن أقيم دعوى قضائية. أريد تسجيل قضية الجريمة».

«أي جريمة؟».

«موت أخي. بسيارة هذا الرجل» وأشار إلي.

ألقى مساعد المفوض القانوني نظرة على ساعة يده وقال: «يا إلهي، لقد تأخر الوقت. إنها الخامسة تقريبا. لم لا تذهب إلى البيت الآن؟ سنغض النظر عن وجودك هنا ونسمح لك بالعودة إلى البيت».

«وماذا بخصوص هذا الرجل؟ هل ستسجنونه؟».

شبك مساعد المفوض القانوني أصابع يديه ثم أطلق تنهيدة وقال: «لاحظ أنه في وقت الحادث، كان أخوك يقود دراجته من دون إنارة. ويعتبر هذا مخالفة قانونية، كما تعرف. وهناك أمور أخرى ستظهر إلى جانب هذه المخالفة. أنا متأكد من هذا».

حملق الفتى. هز رأسه كأنه لم يكن قد سمع بالشكل الصحيح: «إن أخي قد مات. وهذا الرجل قاتله. أنا لا أفهم ما الذي يجري هنا».

«التفتّ إلى هنا، عد إلى البيت. استحم وصلِ لله ثم نم. وفي الصباح، تعال إلى هنا لنسجل القضية، موافق؟».

فــي نهايــة المطــاف، أدرك الفتى لم قد أتيت بــه إلى مركز الشــرطة. وفهم أخيرا الحيلة التي انطلت عليه. ربما لم يشاهد الشرطة من قبل سوى في الأفلام الهندوستانية.

يا للفتى المسكين.

«هذا خرقٌ للقانون! سأستدعي الصحافة! سأتصل بالمحامين! سأتصل بالشرطة!».

كان مســاعد المفوض القانوني رجلا لا يتســم بالدعابة لكنه ســمح لابتســامة طفيفة بأن تعلو محياه وقــال: «حتما. اتصل بالشرطة».

زمجر الفتى بالصراخ والتهديد.

قال مساعد المفوض القانوني: «ستتغيّر أرقام لوحة السيارة. وســندّعي أنها حادثة ضد مجهول. وتُبدل الســيارة بأخرى من تلك السيارات الخردة التي نحتفظ بها لهذا الغرض».

أومأت برأسي.

عندما يكون القتيل قائدا لدراجة هوائية، لا تســجل الشرطة الحادثــة كقضيــة. وعندما يكــون القتيل قائــدا لدراجة نارية، فاحتمال أن تســجل الشــرطة الحادثة كقضيــة. ولكن أن يكون القتيل مستقلا سيارة، فلا بد أن يزجوا بي في السجن.

«ماذا لو لجأ إلى الصحافة؟».

ربت مســاعد المفوض القانوني على كرشه وقال: «جُل رجال الصحافة الذين في البلاد أعرفهم وهم كهنا».

لم أسـلمه المظروف مباشرة. لهذه الشـؤون أوانٌ ومكان. أما الآن فقد حان الوقت لتبادل الابتسامات والامتنان، ورشف القهوة السـاخنة التي قدمها لي. إنه وقت الدردشة عن ولديه اللذين يدرسـان في أمريكا، يريدهما أن يعودا ليؤسسا شركة إنترنت في بانغلور. أسـتمع له مع إيماءة اتفاق وابتسامة تظهر فيها أسـناني النظيفة البراقة بفعل الفلورايد. رشـفنا قدحا بعد الآخر من القهوة السـاخنة جالسـين تحت روزنامة لوجه الإلهة لاكشـيمي، كانت تسـكب العملات الذهبية من جرةٍ في نهـر الخير. وفوقها كانت صورة في بـرواز لإله الآلهة مهاتما غاندي مبتسما.

بعـد أسـبوع من الآن، سـأعود لأقابلـه مرة أخـرى ومعي المظروف، حينها لن يكون دمث الخُلق. سـيحصي النقود أمامي ويقـول: «أهذا فقط؟ أتعلم كم يكلـف تعليم اثنين من أبنائي في كليـة أجنبية؟ عليك أن ترى الفواتير التي تبعثها لي «الأميريكان إكسـبرس» كل شـهر! ثم سـيطلب مني مظروفا آخر. ثم آخر، وآخر.. وهكذا. لا نهاية لهذه الأمور في الهند، يا سـيد جياباو، كما يقول السيد آشوك وهو عين الصواب. عليك أن تدفع وتدفع لأولئك الخائنين. لكنني أشكو من الشرطة الآن بأسلوب الأغنياء نفسه؛ وليس بأسلوب الفقراء.

وهناك فارقٌ كبير بين الاثنين.

في اليوم التالي، سيدي، استدعيت محمد آصف إلى المكتب. كان يكتـوي من العار لمـا قد اقترفت يداه، لم أكن في حاجة إلى تأنيبه.

ولم يكــن ذنبه. ولا ذنبي أيضا. إن طبيعة خدمات شــركاتنا رخيصة للغاية إلى درجة أنهم يجبرون مشــغلي حركة ســيارات الأجــرة على أن يقوموا بعددٍ غيــر معقول من الجولات كل ليلة. ولكــي يتحقق هدفهم، علينا أن نقــود برعونة؛ نصدم الناس في الطرقــات ونؤذيهــم. إنها مشــكلة تواجه كل من يتولى تشــغيل سيارات الأجرة. فلا تلمني.

قلــت له: «لا تحمل همه يا آصــف». فقد كان الفتى في غاية الحرج.

أصبحت أحترم المسلمين، سيدي. ربما ليسوا الأكثر تألقا بين الناس، فيما عدا أولئك الشــعراء الأربعة، لكنهم بالفعل سائقون مهرة، وهم أناسٌ شــرفاء إلى حدٍ كبير، لم أكن أنوي طرد آصف بسبب ذلك الأمر.

لكننــي طلبت منه أن يبحث عن عنوان الصبي الذي قُتل على أيدينا.

راح يحملق فيَّ.

«لماذا نذهب إليهم؟ لا داعــي لأن نخشــى والـديه. أرجـوك لا تفعل هذا».

جعلته يحصل على العنوان ويحضره لي.

أخــذت النقود من خزانتي، جميــع الأوراق النقدية كانت من فئة المائة روبية وطازجة، وضعتها في مظروفٍ بني اللون. دخلتُ سيارة وقدتها بنفسي إلى المكان.

كانــت الأم هي التي قد فتحت الباب. وســألتني عما أريده. فأجبت: «أنا صاحب شركة سيارات الأجرة».

لم يكن عليَّ أن أفصح لها عن ماهية الشركة.

قدمت لي القهوة في كوب وضع في إناء خاص. إن هؤلاء الهنود من الجنوب لديهم أخلاقيات عالية لا تقارن بغيرهم.

صببت القهوة في كوبي ورشفت منه بطريقة مقبولة.

كانت هناك صورة لشابٍ معلقة أعلى الحائط ومحاطة بإكليلٍ ضخم من الياسمين.

لم أنبس ببنت شفة حتى انتهيت من شرب قهوتي وبعدها وضعت المظروف على الطاولة.

دخل الغرفة رجلٌ كبيرٌ في السن، ووقف يحملق فيَّ.

«أولا وقبل أي شيء، أود أن أعبر عن مدى أسفي لوفاة ابنكم. كوني قد فقدت أقارب لي، فأنا أدرك ذلك الألم الذي تشعرون به. ما كان ينبغي أن يموت».

«ثانيا، الذنب ذنبي أنا وليس السائق. وقد أطلقت الشرطة سراحي. هكذا تسير الأمور في هذه الغابة التي نعيش فيها. وأنا أتحمل مسؤولية ما حدث. إني أطلب المغفرة منكم».

أشرت إلى المظروف البني الذي قد وضعته على الطاولة.

«يوجد فيه خمسة وعشرون ألف روبية. أنا لا أقدمه لكم لأني مضطر، ولكن رغبة مني. هل تفهمان قصدي؟».

أبت المرأة أن تأخذ المال.

ولكن الرجل الكبير، الوالد، كان يرنو إلى المظروف.

قال: «على الأقل أبديت الرجولة وأتيت إلى هنا».

قلت: «أنا أود أن أساعد ابنك الآخر. إنه فتى شجاع. كان موقفه ثابتا مع الشرطة في تلك الليلة. في إمكانه أن يأتي ليعمل

معي سائقا لو أراد ذلك. سأعتني به إن أردتم».

امتعض وجهها وهزت رأسها.

وتدفقت الدموع من عينيها. كان الأمر بديهيا. ربما كانت تعقد آمالا لذلك الفتى مثل تطلعات أمي لي. لكن الأب كان التعامل معه سهلا؛ الرجال أكثر عقلانية في مثل هذه المسائل.

شكرته على القهوة. وانحنيت أمام الأم الثكلى باحترامٍ جم، ثم خرجت.

كان محمد آصف في انتظاري عندما عدت إلى المكتب. هز رأسه وقال: «لمَ؟ لمَ أهدرت كل هذا المال؟».

عندئذٍ فكرت، ربما قد أخطأت. ربما سيخبر آصف بما قد حدث لبقية السائقين بأنني كنت خائفا من المرأة المسنة، وبالتالي يمكنهم أن يغشوني. جعلني هذا التفكير متوترا. لا أحب أن أظهر الضعف أمام موظفي. وأدرك تماما تداعي هذا الأمر.

ولكن كان عليَّ أن أقوم بشيء مختلف، ألا ترى هذا؟ فأنا لا أستطيع أن أعيش كما اللقلق أوالخنزير البري أو الغراب، ومن المحتمل أنهم مازالوا على المنوال نفسه، هناك في لاكشمانغهر.

أنا الآن في النور.

الآن، ماذا عن القصة النمطية في مجلة «جريمة الأسبوع»، أو الفيلم الهندوستاني بخصوص هذا الأمر؟ رجلٌ فقير يقتل رجلا غنيا. حسنا. ثم يستولي على المال. حسنا. لكنه سرعان ما يحلم بكوابيس يلاحق القاتل فيها القتيل بينما تقطر أصابعه دما وهو يقول: قا-ت-ل، قا-ت-ل.

في الواقع لا يحدث مثل هذا الشيء. صدقني. وهذا

أحد الأسباب التي جعلتني أتوقف عن مشاهدة الأفلام الهندوستانية.

حصل ذلك في واحدة من الليالي حيث أتت جدتي تطاردني على ظهر الجاموسة المائية. ولم يتكرر ذلك أبدا.

أما الكابوس الحقيقي فهو من صنف آخر. إنه عندما تتقلب في فراشك، وتحلم أنك لم تقم بذلك الشيء وأنك فقدت السيطرة على أعصابك وتركت السيد آشوك لحال سبيله، وأنك مازلت في دلهي، خادما لسيدٍ آخر، وبعدها تستيقظ من نومك.

تتوقف عن التعرق وتتباطأ دقات قلبك.

إنما فعلتها! لقد قتلته!

بعد وصولي إلى بانغلور بثلاثة أشهر، ذهبت إلى المعبد وأديت آخر الشعائر لأجلهم جميعا: كاسوم، وكيشان، وكل عماتي وأبنائهن وبناتهن، وبنات إخوتي، وصلّيتُ حتى لأجل الجاموسة. من يدري إن كان أحدٌ منهم حيا أو ميتا؟ ثم رجوت كيشان وكاسوم في دعائي: «اتركوني الآن أعيش بسلام».

وقد فعلوا ذلك، يا سيدي، إلى حدٍ ما.

في يومٍ من الأيام قرأت قصة في صحيفة: «عائلة من سبعة عشر فردا قُتِلت في قرية في شمال الهند». بدأ قلبي يخفق بشدة، سبعة عشر؟ لا يمكن أن يكون هذا صحيحا إنها ليست عائلتي. كانت تلك القصص التي تأخذ حيزا بمقدار بوصتين وتنشر كل صباح في الصحف ترعبني، لم يكن هناك ذِكر لاسم القرية. فقط قالوا إنها في «الظلام» بالقرب من غايا. قرأتها المرة تلو الأخرى: سبعة عشر! لم يكن تعداد من في البيت يصل إلى سبعة عشر...

تنفست الصعداء... ولكن ماذا لو كان لأحدهم أطفال.....؟

كومــت الصحيفة في يدي ورميتها بعيــدا. ومنذ ذلك الوقت توقفت عن قراءة الصحف لبضعة أشــهر فقط لأكون في مأمنٍ من تلك الأخبار.

انظر، هذا ما حدث لهم. إما أن اللقلق قد قتلهم، أو قتل البعض منهم وأشــبع الآخرين ضربا. والآن، حتى لو أنهم نجوا بمعجزة أو أن الشرطة لم تقم بهذا العمل، فالجيران سيزدرونهم. لاحظ، لو أن فتى فاسدا في عائلة ما أساء إلى سمعتها فوضعها في الحضيض، ستجد أهل القرية يحثونهم على النزوح إلى دلهي أو كلكتا أو بومباي ليعيشوا تحت الجسور الإسمنتية، يتسولون ليسدوا رمقهم من دون أدنى أمل لهم في المستقبل. ولن يكون هذا أفضل من الموت.

ما الذي تقوله عني، يا سيد جياباو، أسمعك تقول: وحشٌ ذو دم بارد؟

ثمة قصة ســمعتها وأنا في محطة القطار، ســيدي، أو ربما قرأتها في قصاصة صفحة لفت كوز ذرة مشــوي اشــتريته من الســوق، لا أذكر تماما. كانت القصة عــن بوذا. في أحد الأيام، حاول شخصٌ ما من البراهما الماكرين مراوغة بوذا فسأله: «أيها المرشد، أتعتبر نفسك آدميا أم إلها؟».

تبسم بوذا وقال: «لا هذا ولا ذاك. أنا فقط ذاك الذي استيقظ بينما ظل الآخرون نياما».

ســأجيب عن سؤالك بالإجابة نفسها، يا ســيد جياباو. أنت تسأل: «أأنت إنسانٌ أم شيطان؟».

أقــول لك: لا هذا ولا ذاك. أنا اســتيقظت بينما أنتم مازلتم

نياما. هذا هو الاختلاف بيننا ولا شيء غيره.

لا ينبغي التفكير فيهم كليا. إنها عائلتي أنا.

من المؤكد أن داهرام لا يفكر فيهم.

لقد تصوَّرَ الآن مجريات ما حدث. في البدايات قلت له إننا سنذهب في عطلة. وقد انطلى عليه هذا لشهر أو اثنين. إنه لا ينبس ببنت شفة، ولكن أراه أحيانا يرمقني بطرفٍ عينه.

إنه يعلم.

نأكل معا في الليل، نجلس متقابلين، يراقب أحدنا الآخر من دون أن نطيل الكلام. بعد أن ينتهي من الأكل أناوله كوبا من الحليب. قبل ليلتين، وبعد أن انتهى من شرب الحليب، سألته: «ألا تفكر في أمك؟».

لم يجب حتى بكلمة واحدة.

«في أبيك؟».

ابتسم لي وقال: «هل لي بكوب آخر من الحليب، يا خالي؟».

نهضت. أضاف: «وطبق من الآيس كريم أيضا».

قلت: «الآيس كريم لأيام الآحاد، يا داهرام».

«لا. بل لهذا اليوم».

وابتسم لي.

واه، إنه تعرَّف على كل شيء، أنا أؤكد لك هذا. إنه لسفَّاحٌ صغير. سيبقى ساكتا مادمت أطعمه. لو سجنوني، فلن يحصل على أكواب الحليب والآيس كريم، أليس كذلك؟ لابد أنه يفكر على هذا النحو. أنا واثقٌ بأن الجيل الجديد سينشأ بلا أدنى أخلاقيات.

يذهب الآن إلى مدرسة جيدة هنا في بانغلور، مدرسة إنجليزية. واليوم أصبح ينطق الكلمات الإنجليزية مثل أبناء الأغنياء. يمكنه أن ينطق «بيتزا». كما كان السيد آشوك ينطقها. «أولم يحب أكل البيتزا، ذلك الشيء الكريه؟»، أراقبه بفخر وهو يضع قطعته الطويلة فوق ورقٍ أبيض نظيف على طاولة العشاء. أنا لم أتعلم كل تلك الأشياء.

أعرف أنه في يومٍ ما سيأتي داهرام، هذا الفتي الذي يشرب من حليبي ويأكل منًّ الآيس كريم الذي أجلبه له في أوان كبيرة، يتساءل: ألم يكن في مقدورك أن تحافظ على حياة أمي؟ ألم يكن في مقدورك أن تكتب لأمي رسالة تحذرها لتهرب وتنجو بنفسها؟

حينها يتحتم عليَّ أن أجيبه أو أعتقد أن أقتله. لكن هذا السؤال مازال بعيدا لبضع سنوات. حتى ذلك الحين، سنتعشى معا كل مساء، داهرام هو آخر فردٍ من عائلتي، وأنا كذلك.

بهذا القدر يظل شخصا واحداً لأتحدث عنه.

مستخدمي السابق.

فكرتُ أنه لا داعي لأن أصلي لأجله عند الآلهة، لأن عائلته لابد أنهم فعلوا ذلك بسخاء على طول نهر الغانجا.

لكنني أفكر فيه مليا، صدق أو لا تصدق، إنني أفتقده. لم يكن يستحق ذلك المصير.

كان ينبغي أن أجز رقبة «النمس».

* * *

الآن، يا معالي رئيس الوزراء، هناك تقدم ملحوظ في

العلاقــات الصينية -الهنديــة في الأيام الســبعة الماضية. كما يقولون، إن العلاقــة الهندية - الصينية ما هي إلا علاقة أخوة. لقــد أخبرتك بــكل ما تحتاج إلى أن تعرفه عــن المقاولة وكيفية تعزيزهــا، وتخطي العقبات، وكيفية الثبات لتحقيق الأهداف، ثم كيف تحوز ميداليات النجاح الذهبية.

ســيدي: على الرغم مــن أنني قد انتهيت من ســرد قصتي، وأصبحت أســراري هي أسرارك، اسمح لي بأن أتركك مع كلمة أخيرة.

«خدعة تقليدية تعلمتها من الاشــتراكي الكبير ألا وهي: فور ابتــداء الجمهور بالتثــاؤب، يقول: كلمة أخيرة. ثم يســتمر في الحديث لمدة ساعتين أخريين. ها!»

عندما أقود في شــارع هوسر الطريق الرئيسي، وينعطف بي الشــارع إلى المدينة الإلكترونية، المرحلة الأولى، وأرى الشركات تمتد على طول الطريق، لا أستطيع أن أصف لك مدى حماسي. كل هذه الشركات الضخمة في بانغلور الآن، جنرال إلكترك، دِل، ســيمينز، ومثلها كثير في طريقها إلــى هنا. في كل مكان توجد مبانٍ تحت الإنشاء. أكوامٌ من الطين، وأكوامٌ من الأحجار، وأخرى من الطوب. تحجب الأدخنة، والســحب الملوثة، وغبار الإسمنت كل المدينة. كيف ستبدو بانغلور عندما تُرفع عنها هذه الغشاوة؟

ربما ســتظهر الكارثــة: أحيــاء الفقراء، مجــاري الصرف الصحي، مراكز التســوق التجارية، الزحام المروري، والشــرطة. ولكن كيف لأحدٍ أن يعلم؟ ربما تصبح مدينة جميلة، حيث يعيش فيها البشر كبشــر، والحيوانات كحيوانات. بانغلور جديدة لهندٍ

جديــدة. حينئذ يمكنني القول وبأســلوبي الخاص: إنني قدمت الدعم لبانغلور جديدة.

لم لا؟ ألستُ أنا طرفا في كل ما يتغير في بلادي؟ ألست ذلك الذي نجح في المكابدة المرجوة منه في ذلك الصراع الذي أبى أن يتقبله كما تقبله، أبى أن ينتهي به الأمر إلى كومة من الأجســاد مجهولة المعالم والتي ستتعفن في طين نهر الأم غانجا؟ صحيح، هناك مســألة القتل التي هي أمرٌ مخزٍ، لا جدال في ذلك. وهذا ما قد اتشــحت له روحي بالسواد. جميع منتجات تفتيح البشرة التي تباع في أسواق الهند، لن تنظف يدي.

أليس من المحتمل أن كل مَن يُحسب له حساب في هذا العالم بمن فيهم رئيس وزرائنا « بمن فيهم أنت، يا سيد جياباو»، يكون قــد قتل أحدا أو آخر فــي طريقه إلى الصعــود؟ اقتل بما فيه الكفاية وسيشــيدون لك تمثــالا من البرونز بالقــرب من مبنى البرلمــان في دلهي، لكن هذا يعتبر مجــدا، وليس هذا ما أصبو إليه أنا، كل ما أصبو إليه هو انتهاز الفرصة لأكون رجلا، ولأجل هذا قتل شخص واحد يفي بالغرض.

ما الذي لدي بعد ذلك؟ أعرف أن هذا ما تتســاءل عنه بينك وبين نفسك.

دعني أفســرها لك. ففي هذا المساء، وأنا أقود على إم. جي. رود، حيث المحال الراقية التي تحتشــد فيها المعارض الأمريكية وشركات التكنولوجيا، رأيت إعلانا يخص ياهو! فالناس يضعون لافتة جديدة خارج مكاتبهم:

ما مدى حيِّز تفكيرك؟

رفعت يدي الاثنتين عن عجلة القيادة وعقدتهما بشكلٍ كبير.

أحـــب انطلاقتي وهذه الثريا، وهذا الجهاز المحمول الفضي، وتلك الســـت والعشرين من سيارات تويوتا كاليس، ولكن للأمانة أقول لك إنني سأشعر بالملل منها عاجلا أو آجـــلا. أنـا رجـــل ذو عزم شـــديد مثل الترس الأول في محرك الســيارة، يا سيد جياباو. فـــي النهاية، لا بد أن أبيع هـــذه الانطلاقة لمعتوهٍ آخر، أقصد لمقاول آخر. وأتخذ مســـارا جديدا. أعتقد أن مشـــروعي القادم ســيكون العقارات. أتلاحظ، إنني دائما ذلك الرجل الذي يتطلع إلى «الغد». في حين الآخرون دائما يرون «الوقت الحاضر». غدا، ســيأتي العالم بأســره إلى بانغلور. قُدْ سيارتك إلى طريق المطـار وأحصِ المبانـــي التي تمر عليها، التـــي نصفها مبني من الزجاج والنصف الآخر من الفولاذ والتي تشبه الصناديق. انظر إلى أسماء الشـــركات الأمريكية التي تشيدها. وعندما يأتي كل هؤلاء الأمريكيين إلى هنا، في أي مكانٍ تظنهم ســينامون؟ على قارعة الطريق؟

ها!

أينما وجدت شـــقة فارغة، ألق عليها نظرة، وأتساءل، كم من المال ســأجني من أمريكي زائر في ســنة ٢٠١٠ لهذا المكان؟ إن كان المكان مؤثثا كمنزل أمريكي، فسأطلب الدفعة الأولى قبل أي شـــيء. مستقبل العقار يكمن في بانغلور، يا سيد جياباو. يمكنك أن تنظم القتل، إن كنت تريد وسأمد لك يدا!

بعد ثلاث أو أربع ســنوات في مجـــال العقار، أعتقد أنه عليَّ أن أبيع كل شـــيء، آخذ النقود، وأنشـــئ مدرسة للغة الإنجليزية

للأطفال الفقراء في بانغلور. مدرسة لا تسمح بإفساد عقل أحدهم بقصص الآلهة أو غاندي، لا شيء سوى الحقائق عن حياة هؤلاء الأطفال. مدرسة ملؤها النمور البيضاء، تطلق عنانها في بانغلور! حينها ستخضع لنا هذه المدينة، صدقني. يمكنني أن أصبح مدير بانغلور. سوف أقوِّم ذلك المفوض لدى الشرطة. سأضعه على دراجة هوائية وأجعل آصف يدهسه بالكاليس.

كل هذه الأحلام التي أحلمها يمكن أن تكون مجرد أحلام ولا شيء آخر.

لاحظ، أحيانا أعتقد أنه لن يُقبض عليَّ. أعتقد أن قن الدجاج يحتاج إلى أناس على شاكلتي ليفروا منه. وهذا يتطلب أن يُجْتَث الأسياد -مثل السيد آشوك الذي على الرغم من فضائله العديدة، لم يكن سيدا حقيقيا- من أماكنهم، ويستبدلوا بخدم استثنائيين مثلي. في مثل هذه الأوقات، تثير عائلة السيد آشوك شماتتي حين يقدمون جائزة مقدارها مليون دولار مقابل رأسي، ولكن من دون جدوى. لقد استبدلت الأمور، أنا الآن واحد من أولئك الذين يصعب القبض عليهم في الهند. في هذه اللحظات، أنظر إلى الثريا المعلقة فوقي، أود أن أرفع يدي إلى الأعلى وأصرخ بأعلى صوتي كي يصل عبر الهاتف إلى مركز الاتصال ومنها إلى الناس في أمريكا:

لقد فعلتها! لقد هربت من قن الدجاج!

لكن في وقت ما ينادي شخصٌ ما في الشارع: «بالرام»، فألتفت معتقدا أنه قد قُبض علي.

إن احتمال القبض عليَّ واردٌ في جميع الأوقات. فلا شيء له

نهاية في الهند، كما كان يقول السيد آشوك دائما. في استطاعتك أن تقدم للشرطة العديد من المظاريف البنية والحقائب الحمراء، ولكن ربما يستمرون في إيذائك. ربما يخرج رجلٌ عليَّ بالزي الكاكي ويشير بإصبعه إليَّ ليقول: *(انتهى وقتك، موتًا)*.

مع ذلك حتى لو سقطت ثرياتي وتهشمت على الأرض، حتى لو زجوا بي في السجن، حتى لو اعتدى عليّ كل المساجين وقاموا بهتك عرضي، حتى لو جعلوني أسير على ذلك السلم الخشبي المؤدي إلى حبل المشنقة لن أقول إنني اقترفت خطأ في تلك الليلة في دلهي حينما حززت حنجرة سيدي.

أنا أقر بأن إدراكك بأنك لست خادما، ولو ليوم واحدٍ أو لساعةٍ واحدةٍ أو لدقيقة واحدةٍ، يعني الكثير ويستحقّ كل هذا العناء.

أعتقد أنني على استعداد لأن يكون لدي أطفال، يا سيد رئيس الوزراء.

ها!

المخلص لك إلى الأبد

آشوك شارما

النمر الأبيض

من بانغلور

boss@whitetiger-techndogydrivers.com

المؤلف

سطور

آرافيند آديغا

- روائي وصحافي هندي.
- ولد سنة ١٩٧٤.
- تعلّم في مدراس بالهند. هاجر مع أسرته عندما توفيت والدته، إلى سيدني في أستراليا. وبعد أن أنهى المرحلة الثانوية من تعليمه، رحل إلى نيويورك في الثامنة عشرة، ودرس الأدب الإنجليزي في جامعة كولومبيا العريقة، وبعدها حصل على بعثة دراسية بكلية مدالن في أكسفورد بإنجلترا، وتعلم على يد أشهر أساتذة الأدب الإنجليزي مثل هيرميون لي.
- انخرط آديغا في سلك الصحافة حيث عمل محررا في صحيفة فايننشيال تايمز بقسم المال والاقتصاد. استعانت بخبرته مجلة تايم الأمريكية، وظل مراسلا لها في منطقة جنوب آسيا لمدة ثلاث سنوات. عاد بعدها إلى الهند في العام ٢٠٠٣وعمل مراسلا صحافيا يجوب البلدان المجاورة مثل باكستان والنيبال وسريلانكا، مما ساهم في تكوين ذخيرة معرفية واسعة لديه عن الجوانب الثقافية والاجتماعية والدينية التي استقى منها المواد الأدبية في كتابة روايته «النمر الأبيض».
- حصل آديغا على جائزة بوكر البريطانية المرموقة العام ٢٠٠٨ عن رواية «النمر الأبيض»، وهو يعتبر ثاني أصغر روائي يحصل على هذه الجائزة. يعيش آديغا حاليا في مومبي بالهند. ونُشر له كتاب آخر في العام ٢٠٠٩ عبارة عن سلسلة قصصية. حاليا يكتب رواية جديدة بعنوان «آخر رجل في البرج» وستنشر في العام ٢٠١١.

المترجم
سطور

د. طيبة محمد صادق

- من مواليد الكويت.
- حصلت على الليسانس في الأدب الإنجليزي من جامعة الكويت العام ١٩٨١.
- نالت شـهادة الماجسـتير في المناهج وتعلم اللغة الإنجليزية بواسطة الكمبيوتر من جامعة سان فرانسيسكو في الولايات المتحدة العام ١٩٨٤.
- حصلـت على شـهادة الدكتـوراه فـي تعلم اللغة بواسـطة الكمبيوتر من King's College جامعة لندن العام ٢٠٠٢.
- عملـت في وزارة التربية والتعليم لعدة سـنوات، كمـا عملت في الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب، وتشـغل حاليا منصب أستاذ مساعد في قسم اللغة الإنجليزية وآدابها بكلية التربية الأساسية.
- شـاركت في كثير من اللجان العلمية وحضرت العديـد من المؤتمرات المحلية والدولية.
- لها عدد من البحوث في مجال استخدامات الكمبيوتر والمهارات اللغوية.
- عضو فـي منظمة TESOL لتدريـس اللغة الإنجليزيـة للمتحدثين باللغات الأخرى، ومقرها الولايات المتحدة الأمريكية.
- عضـو في منظمة تعلم اللغة بواسـطة التكنولوجيا الحديثة JALTCALL ، ومقرها اليابان.
- لهـا اهتمامات خاصة في «محـو الأمية الثقافية» وتقـوم بتدريس المقرر في قسـم اللغة الإنجليزية في كلية التربية الأساسية. وقد خصصت لها مدونة عامة مفتوحة للحوار في تقارب الثقافات (http://culture433.blogspot.com).
- تقوم حاليا بمشروع ربط أدب الطفل بالتكنولوجيا الحديثة.

المراجع
سطور

د. زبيدة أشكناني

- كويتية.
- حاصلة على شـهادة الدكتوراه فـي الأنثروبولوجيا الاجتماعية من جامعة درهام.
- عملت أستاذا مساعدا في الهيئة العامة للتعليم التطبيقي.
- لهـا بحوث عدة في الأنثروبولوجيـا، إضافة إلى عدة ترجمات من اللغتين الإنجليزية والفارسية إلى العربية.
- راجعت عدة نصوص لسلسـلة «إبداعات عالمية» وهي: «واحدة بعد أخرى تتفتح أزهـار البرقوق» دراسـة إبداعية، «نون والقلم» رواية، «سـت وصايا للألفية القادمة» دراسـة إبداعية، «حكايات الهنود الأمريكيين وأساطيرهم»، «سبع نساء سبع قصص».

إصدارات قادمة

جبروت الألم

(رواية)

تأليف: دوبرافكا يوغريسك

ترجمة وتقديم: أ.د. محمد فرغل

مراجعة: د. سامية دياب

ماصدر
ن هذه
سلسلة

318	نون و القلم	تأليف : جلال آل أحمد
319	سيري سامبيجي	تأليف : تشاندرا سيخار كامبار
320	أيام بورمية	تأليف : جورج أورويل
321	ست وصايا للألفية القادمة	تأليف : ايتالو كالفينو
322	السكرتير الخصوصي	تأليف : ت. س. إليوت
323	قصص برازيلية	تأليف : مجموعة من القاصين البرازيليين
324	شذرات من خطاب في العشق	تأليف : رولان بارت
325	لون الماء	تأليف : جيمز ماكبرايد
326	وجهان لحواء	تأليف : أمريتا بريتام
327	المنزل ذو الشرفات السبع	تأليف : اليخاندرو كاسونا
328	من الأدب الباكستاني الحديث	تأليف مجموعة من القاصين الباكستانيين
329	مختارات من القصة التركية المعاصرة	تأليف : مجموعة من القاصين الأتراك
330	مسرحية محكمة العدل في بلخ	تأليف : بهرام بيضائي
331	مطبخ - خيالات ضوء القمر	تأليف : بنانا يوشيموتو
332	الطباخون الأشرار الجرة المكسورة	تأليف : جونتر جراس تأليف : هاينرش فون كلايست
333	شمل تشابه ضائع	تأليف : أندريه شديد
334	حكايات الهنود الأمريكيين و أساطيرهم	تأليف : فلاديمير هلباتش
335	زهرة الصيف	تأليف : مجموعة من القاصين اليابانيين
336	طام - طام زنجي	تأليف : ليوبولد سيدار سنغور
337	اليبروح	تأليف : نيكولو ماكيافللي
338	منزل النور	تأليف : جوهر مراد
339	كثبان النمل في السافانا	تأليف : تشنوا أشيبي
340	أناتول وجنون العظمة	تأليف: أرتور شنيتسلر
341	غرام ميتيا	تأليف: إيفان بونين
342	آرنجندن والحارس الليلي	تأليف: فيمي أوسوفيسان
343	ورقة في الرياح القارسة	تأليف: تنغ - هسنغ يي
344	مدرسة الدكتاتور	تأليف: إيريش كستنر
345	رسائل عيد الميلاد	تيد هيوز
346	حكايات وخرافات أفريقية (1) الطفل الملك	تأليف: سليمان جيغو ديوب
347	مسرحية عذراء أورليان	تأليف: فريدريش شيللر
348	حكايات وخرافات أفريقية (2)	تأليف: سليمان جيغو ديوب

ما صدر ن هذه سلسلة

349	الأدغال والسهول العشبية تحكي القصة القصيرة الإسبانو أمريكية في القرن العشرين	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالأسبانية
350	مسرحيتا: -1 محنة الأخ جيرو -2 تحوُّل الأخ جيرو	تأليف: وول سوينكا
351	روض الأدب (مختارات قصصية)	تأليف: أو. هنري
352	مسرحية «آنتيجون»	تأليف: ب. بريشت
353	أجمل حكايات الزن	تأليف: هنري برونل
354	يتبعها فن الهايكو مسرحية «المقهى»	تأليف: لاوشه
355	مسرحيتا: -1 صناعة تاريخ -2 ترجمات	تأليف: برايان فرييل
356	رواية «الشباب»	تأليف: ج. م. كويتتزي
357	مختارات من الشعر المجري المعاصر (شعراء السبعينيات)	تأليف: مجموعة من الشعراء المجريين
358	مسرحيتا: -1 تلاميذ الخوف -2 الغزاة	تأليف: إيجون وولف
359	اسمي آرام (مجموعة قصصية)	تأليف: وليام ساورويان
360	حامل الإكليل (قصص مختارة)	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالألمانية
361	الصُّورة (مسرحية)	تأليف: سيلافومير مروجيك
362	الأيام الخمسة الأخيرة لرسول (رواية)	تأليف: تحسين يوجل
363	سبع مسرحيات ذات فصل واحد (من بولند)	تأليف: إيرينيوش إيريدينسكي أندجي ماليشكا ستانيسلاف ليم (ستانيسواف) سوافومير مروچيك
364	سبع نساء... سبع قصص	تأليف: مجموعة من القاصات الفارسيات
365	زمن الضحك (ملهاة خفيفة من ثلاثة فصول)	تأليف: نويل كاورد
366	بالأبيض على الأسود (رواية)	تأليف: رُوبين دايڤيد غونساليس غاليغو
367	مسرحيتا: -1 سهرة في المقهى -2 موت ممثل مشهور	تأليف: تيان هان
368	إمرأة وحيدة «فروغ فرخزاد وأشعارها» سيرة حياة	تأليف: مايكل هلمان

صدر من هذه السلسلة

369	«الملاح» (مسرحية من الأدب البولندي)	تأليف: ييجى شانيافسكي
370	ليلة التنبؤ (رواية)	تأليف: بول أوستر
371	هذا الجيل المحظوظ (مسرحية)	تأليف: نويل كاورد
372	لا وجود لخصومات صغيرة	تأليف: أمادو همباطي با
373	الليلة التي أمضاها ثورو في السجن (مسرحية)	تأليف: جيروم لورنس وروبرت إي. لي
374	مختارات من الشعر الإيراني الحديث	تأليف: مجموعة من الشعراء الإيرانيين
375	العقرب وقصص أخرى (الجزء الأول)	تأليف: بول بولز
376	العقرب وقصص أخرى (الجزء الثاني)	تأليف: پول بولز
377	«الأسيرة» (مختارات من ديوان شعر)	تأليف: فروغ فرخزاد
378	شارع بريك لين (الجزء الأول)	تأليف: مونيكا علي
379	شارع بريك لين (الجزء الثاني)	تأليف: مونيكا علي
380	الطريق (رواية)	تأليف: كورماك مكارثي
381	مختارات من القصص القصيرة الأوزبكية	تأليف: مجموعة من الأدباء الأوزبك
382	عشيق الصين الشمالية (رواية)	تأليف: مارغريت دوراس
383	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الأول)	تأليف: إرنست همنغواي
384	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثاني)	تأليف: إرنست همنغواي
385	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثالث)	تأليف: إرنست همنغواي

قسيمة الاشتراك

البيان	إبداعات عالمية		مجلة الثقافة العالمية		مجلة عالم الفكر		سلسلة عالم المعرفة	
	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار
المؤسسات داخل الكويت	٢٠	–	١٢	–	١٢	–	٢٥	–
الأفراد داخل الكويت	١٠	–	٦	–	٦	–	١٥	–
سسات في دول الخليج العربي	٢٤	–	١٦	–	١٦	–	٣٠	–
فراد في دول الخليج العربي	١٢	–	٨	–	٨	–	١٧	–
سات في الدول العربية الأخرى	–	٥٠	–	٣٠	–	٢٠	–	٥٠
راد في الدول العربية الأخرى	–	٢٥	–	١٥	–	١٠	–	٢٥
سسات خارج الوطن العربي	–	١٠٠	–	٥٠	–	٤٠	–	١٠٠
أفراد خارج الوطن العربي	–	٥٠	–	٢٥	–	٢٠	–	٥٠

ملء البيانات في حالة رغبتكم في: تسجيل اشتراك ☐ تجديد اشتراك ☐

لاسم:	
لعنوان:	
سم المطبوعة:	مدة الاشتراك:
لبلغ المرسل:	نقداً/ شيك رقم:
لتوقيع:	التاريخ: / / ٢٠٠م

سدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب مع مراعاة سداد
: البنك المحول عليه المبلغ في الكويت.
ترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص.ب: 28623 - الصفاة - الرمز البريدي 13147
دولة الكويت

أسماء وكلاء التوزيع

فاكس	تليفون	العنوان	وكيل التوزيع الحالي
24826823	24826820/1/2 24613872 /3	الشويخ – الحرة – قسيمة 34 – الكويت – الشويخ – ص.ب 64185 – الرمز البريدي 70452	المجموعة الإعلامية العالمية
00971 42660337	00971 242629273	Emirates Printing, Publishing & Distribution Company Dubi Media City/ Dubai UAE P.O Box: 60499	شركة الإمارات للطباعة والنشر والتوزيع
00966 (01) 2121766	00966 (01) 2128000	المملكة العربية السعودية – الرياض – حي المؤتمرات – طريق مكة المكرمة – ص.ب 62116، الرمز البريدي 11585	الشركة السعودية للتوزيع
00963 112128664	00963 112127797	سورية – دمشق – البرانكة	المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
00202 25782632	00202 25782700- 25782632	جمهورية مصر العربية – القاهرة – 6 شارع الصحافة – ص.ب 372	مؤسسة دار أخبار اليوم
00212 522249214	00212 522249200	المغرب – الرباط – ص.ب 13683 – زنقه سجلماسه – بلفدير – ص.ب 13008	الشركة العربية الأفريقية للتوزيع والنشر
00216 71323004	00216 71322499	تونس – ص.ب 719 – 3 نهج المغرب – تونس 1000	الشركة التونسية للصحافة
)0961 1653260	00961 1666314/5 01 653259	لبنان – بيروت – خندق الغميق – شارع سعد – بناية فواز	مؤسسة نعنوع الصحفية للتوزيع
)0967 1240883	00967 2/3201901	الجمهورية اليمنية – صنعاء	القائد للنشر والتوزيع
00962 65337733	00962 65300170 - 65358855	عمان – تلال العلي – بجانب مؤسسة الضمان الاجتماعي	وكالة التوزيع الأردنية
00973 17 480819	00973 17 480801	البحرين – المنامة – ص.ب 10324	مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف
24493200 00968	00968 24492936	ص.ب 473 – مسقط – الرمز البريدي 130 – العذيبة – سلطنة عُمان	مؤسسة العطاء للتوزيع
00974 44557819	00974 4557809/10/11	قطر – الدوحة – ص.ب 3488	دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع
00970 22964133	00970 22980800	رام الله – عين مصباح – ص.ب 1314	شركة رام الله للنشر والتوزيع
002491 83242703	002491 83242702	السودان – الخرطوم – الرياض – ش المشتل – العقار رقم 52 – مربع 11	دار الريان للثقافة والنشر والتوزيع
00213 (0) 31909328	00213 (0) 31909590	Cite des preres FARAD.lot N09. Constantine. Algeria	شركة بوقادوم للنقل وتوزيع الصحافة
-	-	Al Izdihar (alizdihar__co@yahoo.com)	شركة الازدهار للتوزيع
)0718 4725493	00718 4725488	Long Island City. NY 11101 – 3258	Media Marketing
14208 7493904	(0) 0044 2087499828 0044208 7423344	Universal Press & Marketing Limitd	Universal Press

سلسلة إبداعات عالمية

«إبداعات عالمية» سلســـلة دورية تصدر كل شهرين عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، وكانت في السابق تصدر - شهريا - عن وزارة الإعلام تحت اسم سلسلة «من المســـرح العالمي» حتى بعد انضمامها إلى المجلس الوطني العام ١٩٩٤، وكانت تعنى بنشر المسرحيات العالمية فقط.

وقد صدر العدد الأول من سلسلة «من المسرح العالمي» في أكتوبر ١٩٦٩، تحت عنوان مســـرحية «ســـمك عسير الهضـــم»، تأليف: مانويل جاليتش، وبعد تغيير مســـماها إلى سلســـلة «إبداعات عالمية» العام ١٩٩٨، أصبحت تعنى بنشـــر الترجمات الإبداعيـــة الراقية من لغـــات مختلفة، وتنطلق أهداف السلســـلة (إبداعات عالمية) من فلسفتها في نشـــر الوعي الثقافي القائم على التراث الإنساني، من خلال نشـــر وتقديم ترجمات رصينة مـــن الآداب العالمية، من روايات وقصص قصيرة ودواوين شعر ومسرحيات... وغيرهـــا، من لغاتها الأصلية، بهدف تزويد المكتبة العربية بآثار هذه الثقافات المختلفة.

وترحب السلســـلة باقتراحات النشر والترجمة المقدمة من المتخصصين، على أن تكون وفق الشروط التالية:

١ - أن تكون المادة المقترح ترجمتها مميزة في المستوى الفكـــري والأدبـــي الرفـــيع، ولم يســـبق نشـــرها في أي مكان آخر.

٢ - يجب ألا يزيد حجم المادة على ٣٥٠ صفحة من القطع المتوسط، وأن تكون مصحوبة بنبذة وافية عن الكتاب وموضوعاته وأهميته ومدى جدواه.

٣ - يجب تقديم النص الأدبي المقترح نشره، أو ترجمته مع الكتاب في لغته الأصلية، ويرسل مطبوعا على الآلة الكاتبة مع وضع نسخة من النص المترجم في ديسك أو CD، مع تدوين أرقام صفحات الكتاب الأصلي المقابلة للنص المترجم على جانب الصفحة المترجمة.

٤ - السلسلة غير مسؤولة عن إعادة الكتب الأجنبية والنصوص الأصلية أو المترجمة التي لا يتم قبولها.

٥ - المواد المقدمة للنشر أو الترجمة تخضع للتحكيم العلمي على نحو سري من قبل هيئة تحرير السلسلة، ويجري إرجاع النصوص إلى أصحابها لإجراء التعديلات أو الإضافات اللازمة عليها قبل نشرها، كما يجب ألا تحتوي النصوص على عبارات منافية للدين أو الأخلاق.

وفي حال الموافقة والتعاقد على الموضوع المترجم للنشر تصرف مكافأة للمترجم بمعدل ٢٠ فلسا عن الكلمة الواحدة في النص الأجنبي.

وفي جميع الحالات ينبغي إرسال سيرة ذاتية وافية (C.V) للمترجم، تتضمن البيانات الرئيسية عن نشاطه الأدبي السابق، وعنوان المراسلة التقليدي والإلكتروني، واسمه الثلاثي باللغة الإنجليزية حسب جواز سفره، بالإضافة إلى كتابة اسم البنك الذي يتعامل معه ورقم حسابه الذي ستحول المكافأة عليه.

المجلس
الوطني
للثقافة
والفنون
والآداب

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

إبداعات عالمية

النمر الأبيض

نقدم للقارئ الكريم، في هذا العدد، رواية للكاتب الهندي الأصل «آرافيند آديغا» بعنوان «النمر الأبيض»، حيث ينسج بخطوط ملونة تفاصيل الهند السياسية والعقائدية والاجتماعية بكل تناقضاتها وأشكالها، من خلال سرد قصة حياته منذ النشأة في قريته الفقيرة حتى ذهابه إلى المدينة النابضة بالحياة، ويرسم صورة لطبيعته وشخصيته في كل مرحلة من مراحل حياته.

كما يحاول الكاتب عرض التناقضات التي تشهدها الحياة اليومية على شكل رموز عدة أحدها اللون، فاللونان الأبيض والأسود يدلان على الرتابة والكآبة. وفي فضاء النص القصصي يرمز إلى الحالة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية أيضا، فيجعل الكاتب مدينة دلهي عاصمة لدولتين (النور والظلام) لا دولة واحدة.

وفي هذه الرواية يبرز الكاتب أيضا الجانب المتعلق بالانتماء إلى طبقة الفقراء، وكيف أن الفقر هو أساس وحياة وعقيدة بطل الرواية دوما وأبدا التي لا يمكن تغييرها، بعكس ما يحدث في الهند من تغييرات تاريخية. وهنا يزيح الكاتب الستار عن الانحطاط الأخلاقي والابتزاز والتلاعب باسم الديموقراطية في الحياة السياسية الهندية الحديثة؛ حيث يجني ثمارها الأشرار فقط دائما.

وفي الجانب الثقافي نتلمس استخدام الكاتب لغة سهلة وبسيطة قريبة من اللغة اليومية، فقد استخدم كلمات وعبارات في أصلها الهندي، على الرغم من أن الرواية قد كتبت باللغة الإنجليزية.

ونتمنى من القارئ الكريم قراءتها بروية وتمعن حتى يتبين له المعنى الخفي الذي يحاول الكاتب إيصاله من خلال روايته.

رقم الإيداع: ٢٠١١/٣٦٧
ردمك: ٤-٣٣٥-٠-٩٩٩٠٦